كان وأخواتها

مشاهد حية من تاريخ مصر الحديث

تأليف
جمال بدوى

الطبعـــة الأولى
اكتوبـــــر ١٩٨٦

رسوم الغلاف بريشة الفنان نسيم
خطوط الغلاف بقلم : محمود ابراهيم
حروف الجمع على اجهزة الجمع التصويرى بالوفد
الطبع على ماكينات مؤسسة انترناشيونال برس

إهـــــداء

إلى روح الزعيـــم

مصـــطفى النحـــاس

تحية عرفان من مصرى عاشق لوطنه ..
إلى روح الزعيم الذى افنى عمره فى خدمة وطنه ..
ثم غادر الدنيا ـ كما دخلها ـ طاهرا من الرجس .

هذا الكتاب
بقلم محمد فؤاد سراج الدين
رئيس الوفـــــد

قرات هذا الكتاب مرتين ، المرة الأولى على حلقات اسبوعية في باب « كان واخواتها » في صحيفة الوفد الذى يحرره الأستاذ جمال بدوى مؤلف هذا الكتاب وذلك على مدى خمسة وسبعين اسبوعا متتالية ، والمرة الثانية بعد أن جُمعت هذه الحلقات في ملازم واعدت للطبع . وكانت متعتى بالقراءة الثانية لا تقل عن متعتى الأولى بها ، وذلك لطرافة الموضوعات التى انتقاها المؤلف من تاريخ مصر الحديث بدءا من عهد محمد على إلى عهد الثورة وكذلك للأسلوب الشيق الذى عرف به جمال بدوى .

وقد عالج المؤلف الموضوعات التى تناولها فى كتابه من زاوية جديدة لم تعرفها الصحف من قبل ونجح تماما فى أن يتلافى الجمود الذى يصاحب دائما الموضوعات التاريخية .

ولاشك أن هذا الكتاب قد ادى خدمة جليلة لشباب هذا الجيل إذ عرفه بالكثير من تاريخ بلاده وسير زعمائه ، الأمر الذى تعمد المسئولون تجهيله به فى معاهد العلم لأسباب سياسية معروفة .

ان ما اقترفه هؤلاء المسئولون فى حق الشباب المصرى يعتبر جريمة لا تغتفر لابد ان يحاسبوا عليها اشد الحساب .

لقد وفق الاستاذ جمال بدوى فى اختيار عنوان كتابه ، عندما وصفه بانه « مشاهد حية من تاريخ مصر الحديث » . كما وفق فى إعادة الحياة إلى هذه الأحداث القديمة التى مر عليها عشرات السنين ونسيها الناس وإن كان معظمهم يجهلونها او يجهلون معظمها لأن احدا من الكُتاب ـ قبل جمال بدوى ـ لم يهتم بعرضها والتعليق عليها .

إن هذا الكتاب إثراء جديد للمكتبة المصرية كانت فى اشد الحاجة اليه ويذكر لصاحبه بالفضل ويزيد من فضله مواصلته لكتابة هذه الحلقات ، فالقارىء ايا كان شيخا او شابا فى اشد الحاجة إليها . وإنى واثق بان هذه الدراسات الشيقة ستؤدى غرضها فى تنوير المواطن المصرى بتاريخ بلاده وحياة العظماء من رجال مصر الأوفياء بعد ان ازال عنهم جمال بدوى غبار الجحود والتجهيل ، وكشف عن جهادهم النبيل فى سبيل مصر الخالدة .

بيـــن يـــدى القـــارىء

هذه مشاهد من تاريخ مصر الحديث يسعدنى ان أضعها بين يدى القارىء الكريم لكى ينتفع بها وتساعده على تفسير امور كثيرة تجرى من حوله ، فانا لم اكتبها بهدف تسلية القارىء أو الترويح عنه ، ولكن بهدف إزعاجه حتى يعرف نفسه ، وعندما امسكت بالقلم لاكتب هذه المشاهد فإننى ما تخيلتُ نفسى شاعرا بربابة يحكى لرواد مقهاه امجاد ابى زيد الهلالى ومغامرات الزناتى خليفة .. ولا تخيلت نفسى مدرسا يلقن تلاميذه معلومات محفوظة عن عظمة خوفو وهو يبنى الهرم الأكبر .. أو شجاعة أحمس وهو يطارد الهكسوس فى قفار آسيا .. ولكنى عرفت نفسى واحدا من أبناء هذا الشعب الطيب الصبور ، حمل على صدره أحجار الهرم وارتفع بها مِذماكا فوق مدماك ، وحمل على كتفه القوس والسهم والسيف والبندقية وسار خلف تحوتمس ورمسيس وصلاح الدين وقطز وبيبرس ومحمد على .. وامسك الفاس ليشق ترعة المحمودية والابراهيمية والاسماعيلية ليعم الرخاء والنماء أرض مصر .. ثم حفر قناة السويس ليربط الغرب بالشرق دون أن يعى انه سيكون هدفا للغرب والشرق .

لم يكن همى عند كتابة هذه المشاهد تسجيل امجاد الملوك والخلفاء والولاة الذين حكموا مصر ، فكُتبُ التاريخ تفيض ـ والحمد لله ـ بهذه المعلومات ، ولكن كان همى هو البحث عن اثر هذه الأحداث القديمة فى المصريين المحدثين ، لإيمانى بان تاريخ مصر حلقات طويلة متماسكة ، وان احداث اليوم هن بنات الأمس ، ولاقتناعى بان احداث التاريخ تجرى بقوة دفع مطرد .. فكل حادث يملك فى داخله عوامل ذاتية تدفع به إلى الامام فيتولد منه حادث جديد مشابه له فى الشكل ولكنه يخالفه المحتوى والمضمون ..

وهكذا .. تسير - دوما - عجلة التاريخ ، ومن هنا تبطل المقولة المشهورة بأن التاريخ يعيد نفسه .. فهى مقولة تخالف طبيعة الأشياء ، وتناقض حركة الحياة التى تسير فى خط مطرد نحو الأمام .. ولو تخيلنا أنها تسير نحو الوراء لكان شأنها شأن عقارب الساعة إذا دارت فى عكس الاتجاه المتعارف عليه منذ اخترعت الساعة ..

وأنا حينما أنظر إلى الشقاء الذى عاناه أجدادنا المصريون وهم يحملون أحجار الهرم ، فلا أقول إن التاريخ يعيد نفسه حين أراهم وهم يحفرون ترعة المحمودية أو قناة السويس رغم أن الشقاء واحد فى الحالين ، ولكن الحالة النفسية التى كان عليها المصرى مختلفة : فهو فى الأولى تحرك بدافع العقيدة التى تتحدث إليه عن قدسية الملك ، أما فى الثانية فقد تحرك بدافع من الكرباج .! فلو وصفتُ ذلك بمقولة إن التاريخ يعيد نفسه ، لكان معنى ذلك أن الزمان ثابت لا يتحرك .. وأن المصريين متجمدون .. أو متحركون على إيقاع «مَحَلَّك سِرْ» وهو إيقاع يقضى على الكائن الحى بالضمور والانقراض . وهناك بالطبع ، شعوب تجمدت حركتها فانقرضت ، والتاريخ يدلنا على أمم لحقتها لعنة الفناء فباتت مجرد ذكرى ، ولكن هذا السلوك لا ينطبق على المصريين الذين عاشوا على ضفاف النيل منذ آلاف السنين ، واستطاعوا أن يقاوموا عناصر الفناء ، ومن هنا نشأت خصيصة التواصل التاريخى عند المصريين ، وهى خصيصة لا تتمتع بها أمم كثيرة معاصرة ، فأنت حين تتحدث عن الجزر البريطانية أو فرنسا أو أسبانيا أو المجر .. لا تستطيع أن تحقق وجود ظاهرة التواصل التاريخى فى تلك البلاد .. ولا تستطيع أن تقول إن الشعوب التى تعيش الآن فوق هذه الأراضى هى أحفاد الشعوب التى كانت موجودة قبل ميلاد المسيح ، ذلك أن هذه البلدان تعرضت لموجات هجرة عنيفة من جانب القبائل الجرمانية والمغولية فغلبت على الشعوب الأصلية حتى أزاحتها وقضت عليها .

● ولكن .. برغم الهجرات والغزوات العديدة التى تعرضت لها مصر ، فقد حافظ المصريون على تماسكهم وترابطهم ووحدتهم

الاجتماعية والسياسية ، فالعقيدة قد تتغير ، ويتبدّل الدين ، ويتحول اللسان ، ولكن يبقى المصريون محافظين على نقاء سريرتهم ومعدنهم .. وعاداتهم وتقاليدهم .. ولا اقول نقاء عنصرهم ، لان نظرية نقاء العنصر نظرية رجعية فاسدة ، وإذا صحّت بالنسبة للشعوب المغلقة التى تعيش فى أدغال إفريقيا او فيافى آسيا او على حافة المحيط المتجمد .. فإنها لا يمكن ان تصح على شعب يشغل قلب العالم ، وتتفتح بحاره وصحاريه على كل الاتجاهات الاربعة .. فقد كان امرا مقضيا ان يختلط بشعوب اخرى ، بل اقول إن هذا الاختلاط كان من عوامل بقائه ، فقد اكسب العنصر المصرى - إن صح هذا التعبير - صفات وراثية قوية على النحو الذى يعرفه علماء الأجناس والسلالات ، وهذه الميزة حُرِمَت منها العناصر المتعجرفة التى عاشت فى مصر أسيرة نقاء العنصر ، فذوت وضعفت حتى انقرضت ، وانت تستطيع ان تجد ذلك إذا بحثت عن احفاد العناصر التركية المتغطرسة التى استوطنت مصر ولكن بمعزل عن شعبها ، ولم يسمح لها غرورها واستعلاؤها بالتزاوج من الفلاحين المصريين ، فلن تجد لهم ذكرا ، على عكس القبائل العربية التى اختلطت وامتزجت فكتبت لنفسها البقاء .

وهذه الخصيصة التي يتمتع بها التاريخ المصرى - خصيصة التواصل والاستمرار - هى التى جعلتنى افسر امورا معاصرة باحداث قديمة ، وخصوصا عندما يتطرق الأمر إلى العلاقة الجدلية بين الحاكم والمحكومين ، عندئذ يكون من اليسير تفسير هذه القضية في ضوء معطياتها المباشرة ، ويكون من الواجب تاصيلها تاريخيا وربطها بالظروف العملية التى حتّمت قيام سلطة مركزية تشرف على توزيع مياه الرى على زراع الأرض .. ثم احترام الزراع لهذه السلطة وخضوعهم لما تصدره من قوانين وانظمة .. فنشا عن ذلك مولد الحكومة المستبدة التى تفرض سلطانها بقوة القهر ، ثم قبول الناس لهذا الاستبداد لأنه مرتبط باستمرار الحياة ودوام النماء .. وعلى هذا فإنه يصعب الفصل بين المشاهد والأحداث المتشابهة من تاريخ مصر حتى لو باعدت

بينها آلاف السنين ، ورغم انني اضع بين دفتي هذا الكتاب مشاهد متناثرة من تاريخ مصر الحديث ، إلا انني أدعو القارىء الكريم إلى ان يكمل بنفسه بقية المشوار ، فينُقِّب في بطون الكتب عن اصول هذه المشاهد وجذورها المدفونة في تربة مصر منذ فجر التاريخ الانساني ، عندئذ سوف تكتمل امامه اجزاء الصورة ، وتتصل حلقات السلسلة التي اشَرْتُ إليها في صدر هذا الحديث . عندئذ يعرف المصري نفسه .. ويجد الجواب عن كثير من الأسئلة الحائرة التي تتزاحم بها احداث اليوم .. وهذا هو الهدف الرئيسي من إعداد هذا الكتاب .

تبقى بعد ذلك ملحوظة .. فسوف يجد القارىء الكريم انني أهملت ذكر المصادر والمراجع ، وهي مسألة يهتم بها كُتَّاب التاريخ ، وكان من السهل أن افعل ذلك .. ولكني وجدت ذلك سيبدو عملا مظهريا ، فما اسهل ان اسجل اسماء مئات الكتب التي رجعت إليها .. ولكنني لم افعل لانني لا اكتب رسالة جامعية تحتم عليّ ذكر مصدر الحدث ، ولكني اقدم تحليلا للحدث نفسه .. ولذلك تغافلت عن ذكر المصدر إذا كان الأمر يتعلق بالأحداث ، لأنها ملك للجميع ، وذكرها مشاع في عديد من الكتب ، ولكني تعمدت ذكر المرجع حين كان الأمر يتعلق برأى او وجهة نظر تفسر الحدث نفسه ، او تستخلص منه نتيجة بعينها .. فهي ملك لصاحبها وحده .

● وفاء وعرفان ●

وفي ختام هذا التقديم فإن واجب الوفاء يقتضيني ان اتقدم بالعرفان لكل المؤرخين والباحثين والكُتَّاب الذين رصدوا تاريخ مصر بعين فاحصة ، فقد افدت منهم وتعلمت على أيديهم الكثير .

كما أتقدم بخالص التقدير والاحترام للأستاذ الكبير محمد فؤاد سراج الدين زعيم حزب الوفد الذى جاء إصراره وجلده وإيمانه عاملا مؤكدا في عودة حزب الوفد إلى الساحة السياسية بعد فترة ركود دامت ثلاثين عاما ، وكان ظهور جريدة «الوفـد» فرصة

ذهبية لظهور هذه المشاهد على صفحاتها الغراء . ومن ثم كانت مثار مناقشات مثمرة بيني وبين هذا الزعيم الذى يحفظ فى ذاكرته وعقله ادق الاسرار عن مرحلة زمنية تشغل نصف القرن .

ويسعدني ان اقدم امتناني إلى اخى وصديقى وزميلى مصطفى شردى رئيس تحرير «الوفـد» الذى اتاح لهذا الباب التاريخى «كـان واخواتهـا» ان يحتل مكانا مرموقا على صفحاتها منذ عددها الأول . كما لا يفوتني ان اشيد بملاحظات الأصدقاء والأخوة الذين لم يبخلوا علىّ بعبارات التشجيع التى كان لها ابلغ الاثر فى تقويم هذه المشاهد وإظهارها فى اكمل صورة . وارجو الله ان يمدني بعونه حتى أستطيع مواصلة الرسالة التى احملها بين جنبى تجاه بنى وطني .. إنه سميع مجيب .

جمال بدوى

مصر الجديدة اكتوبر ١٩٨٦

عنزة السيدة نفيسة

بـات المجتمع المصرى ، خلال العصرين المملوكى والعثمانى نهبا للخرافات والخزعبلات والاساطير التى كانت تنسجها عقول خبيثة تستغل سذاجة الناس وضحالة وعيهم وتستنزف ما فى جيــوبهم وقد استيقظت القاهرة ذات صباح على قصة خرافية تزعم ان عنزة صعدت فوق مئذنة مسجد السيدة نفيسة رضى الله عنها واخذت تكلم الناس وتحضهم على فعل الخيرات وتحذرهم من ارتكاب الموبقات وتطورت القصة بعد ان تناقلتها السنة العوام فاضافوا اليها بعض التوابل والمشهيات واكتملت لها عناصر الاثارة والتشويق واستقرت القصة فى الشارع المصرى على النحو التالى كما رواها الجبرتى :

كان بعض الجند المصريين قد وقعوا اسرى الحرب فى بلاد الفرنجة ، وذات يوم اشتروا عنزة ليذبحوها فى مجلس الذكر الذى عقدوه قربانا الى الله كى يفك اسرهم ويعيدهم الى ديارهم ، ولكن الحارس القائم على امرهم ابى عليهم ذلك واستولى على العنزة ومضى بها الى بيته . فلما اوى الى فراشه راى فى منامه رؤيا مزعجة فادرك على الفور ان العنزة مباركة ، فلما اشرق الصباح اعاد العنزة الى الجند ثم اطلق سراحهم وزودهم ببعض المال كى يستعينوا به على الرحيل الى بلادهم ، فاستقلوا مركبا الى مصر ومعهم العنزة المباركة ، فلما بلغوا القاهرة ذهبوا من فورهم الى مسجد السيدة نفيسة وقضوا ليلتهم بجوار ضريحها وفى الصباح وجدوا العنزة قد اعتلت المنارة وسمعوها تكلم الناس ، وكان للمسجد خادم ذكى اسمه الشيخ عبداللطيف ادرك الفائدة العظمى التى ستعود عليه من ترويج قصة العنزة فاشاع بين رواد المسجد ان السيدة نفيسة خاطبته من مقصورتها واوصته بالعنزة خيرا ، وذاعت الخرافة بين اهل القاهرة فتوافدوا على المسجد لرؤية العنزة والتبرك بها والتبرع لها بما تجود به اريحيتهم وانفتح باب الرزق الرغيد امام الشيخ عبداللطيف فوضع تسعيرة محددة لكل درجة من درجات القرب من العنزة ادناها الرؤية المجردة واعلاها المسح على جسمها والحصول على بركاتها ، وانهالت الهدايا والنذور على الشيخ عبداللطيف فكان يخبرهم بان العنزة لا تاكل الا قلب اللوز والفستق ولا تشرب الا ماء الورد

المحلي بالسكر المكرر ، فيحمل الناس اليه أطنانا من هذا وذاك حتى تكدست لديه اكوام من اطايب الطعام والشراب ، وبلغت القصة مسامع الاميرات وزوجات الكبراء والقادة فكن يتسابقن إلى صنع القلائد الذهبية والاقراط والاساور ويبعثن بها الى الشيخ عبداللطيف ليزين بها جسد العنزة المباركة .

● ● ●

وكان الامير عبدالرحمن كتخدا من اشد الامراء حزما وحسما واكثرهم وعيا ورفضا لهذه الخزعبلات فارسل الى الشيخ عبداللطيف يرجوه ان يتعطف بزيارته فى قصره وبصحبته العنزة حتى يتمكن اهل بيته من رؤيتها والتماس البركة منها ، وسعد الشيخ عبداللطيف بهذه الدعوة التى ستفتح امامه قصور الامراء والكبراء .. وحدد يوما لهذه الرحلة الميمونة فتجمع ارباب الطرق الصوفية فى موكب مهيب لمصاحبته من مسجد السيدة نفيسة الى قصر الامير كتخدا المجاور لمسجد احمد بن طولون وامتطى الشيخ عبداللطيف بغلته وحمل العنزة فى حجرة تحيط به الاعلام والبيارق وتتقدمه الطبول والزمور .. وتهادى الموكب عبر شوارع الصليبة وسوق السلاح والناس يتجمعون من كل انحاء القاهرة لرؤية العنزة المباركة وهى تتربع فى دهشة من هذا الحشد الغريب ولا تدرى شيئا مما يدور حولها حتى اذا بلغ الموكب باب القصر نهض الامير هو وضيوفه من العظماء والوجهاء لاستقبال العنزة المباركة ، واستاذن الأمير فى ان تمضى العنزة الى جناح الحريم فرحب الشيخ عبداللطيف واعطاه العنزة فحملها الخدم الى المطبخ حيث انهالت عليها سكين الجزار فذبحتها وسلختها وتسابق الطباخون الى سلقها وتحميرها ، بينما اتخذ الشيخ عبداللطيف مكانه فى صدر المجلس يروى للامراء مزيدا من الخرافات عن كرامات العنزة .

● ● ●

وحان موعد الغداء فامر كتخدا بمد السماط ، فدخل الخدم يحملون اطباق الفتة تعلوها هبر من اللحم الشهى .. وانهالت ايدى الامير وضيوفه تنهش اطايب اللحم .. وبين الحين والحين كان الامير يحث الشيخ عبداللطيف على تناول المزيد من اللحم قائلا : كل ياشيخ عبداللطيف هذه القطعة السمينة .. فيلتهمها

الرجل ممتنا .. والأمراء من حوله يتغامزون ويكتمون ضحكاتهم ، حتى فرغوا من الطعام وشرب القهوة فنهض الشيخ عبداللطيف مستاذنا في الانصراف ومعه العنزة . فقال له الامير عبدالرحمن .. أى عنزة تقصد ؟؟

فقال خادم المسجد : العنزة المباركة التى دخلت جناح الحريم !

فقال الامير : العنزة لم تدخل جناح الحريم مطلقا .. ولكنها دخلت بطنك ياكاذب .. يافاجر .. ياأفاق .. وهذا دليل على ضلالك المبين .

● ● ●

وبهت الرجل من هول المفاجاة التى وقعت على راسه كالصاعقة .. وحاول الافلات بجلده .. ولكن الامير امسك بخناقة وامر مماليكه بضربه ستين عصا على رجليه .. ثم امر بجلد العنزة فطرحه على عمامته وطاف به الجند شوارع القاهرة ليكون عبرة لغيره من الافاقين والنصابين الذين يحتالون على الناس بالاساطير التى تستغل عواطفهم الدينية .. والدين منها براء .

ياخفي الألطاف

في الثاني والعشرين من اكتوبر ١٧٩٨ انطلقت اول قنبلة من المدافع الفرنسية المثبتة في حصون القلعة ، فسقطت في صحن الأزهر وتناثرت شظاياها ففتكت بالجموع التي احتشدت فيه ، ثم توالى سقوط القنابل حتى اوشكت جدران الجامع ان تتداعى على الاشلاء الممزقة والجثث المتراكمة . وكان وابل القنابل يتساقط من اعالي القلعة فيدمر الاحياء المجاورة للجامع العتيق ، ويحيلها ركاما ، وكان الأزهر في حد ذاته هدفا مطلوبا ، فمنه انطلقت جذوة الثورة على الحملة الفرنسية ، وإلى رحابه لجا الثائرون ، فاصبح بؤرة للوطنية المتاججة الى جانب كونه معقلا للعلم والدين .

وكانت القلعة ، منذ بناها صلاح الدين الايوبي على التلال المشرفة على العاصمة ، حصنا عسكريا منيعا ، هدفه حماية القاهرة من تهديدات الغزو الصليبي على الحدود الشرقية ، وربطها بحزام من الاسوار والأبواب الضخمة التي لاتزال بقاياها قائمة عند بوابة الفتوح وبوابة المتولي وباب النصر وفم الخليج .. ولكن القلعة لم تستخدم ابدا في تحقيق الهدف العسكري الذي انشئت من اجله ، ولم تفلح القلعة مرة واحدة في صد الغزاة الذين توافدوا على مصر ، بدءا بالجيش العثماني ، ومرورا بالحملة الفرنسية ، وانتهاء بالقوات البريطانية التي زحفت على القاهرة بعد اخماد الثورة العرابية وهزيمة الجيش المصري في التل الكبير .. !! فيم إذن فائدة القلعة ..

● ● ●

لقد استقر في عرف المؤرخين الذين رصدوا تاريخ القلعة ، انها لم تكن اكثر من حصن منيع لحماية حكام مصر ، وقمع الشعب اذا فكر في التمرد او العصيان .. فالقاهرة بحكم موقعها على راس الصعيد وعند مفترق الدلتا ، هي مفتاح الحكم في مصر ، من يملكها يملك مصر كلها ، ومن يملك القلعة يملك القاهرة ، وكانت الفجوة القائمة بين القلعة والقاهرة على اتساع الفجوة القائمة بين الحكام الغرباء والمحكومين المغلوبين على امرهم ، فالقلعة تقف في عليائها وقفة الشموخ والتحدي ..بينما العاصمة ترقد في

سلامة وطمانينة على ضفة النيل وبين أحضان الروابى الخضر التى تحيط بها .. تكد وتكدح ثم تنام ملء جفونها وحكامها لا ينامون .. عيونهم دائما مفتوحة على المجهول .. وترصد كل مايجرى فى الأزقة والحوارى المكدسة تحسبا لما يخبؤه الغد .

ولقد أدت القلعة الغرض الحقيقى منها .. ووفرت عنصر الأمان لحكام مصر على تعاقب الأجيال .. منذ الأيوبيين والمماليك والعثمانيين حتى أبناء محمد على .. كلهم عاش فى حصونها .. واحتمى بقلاعها .. واستعلى على شعبها .. فلا يهبط الى المدينة إلا مضطرا .. وكان أول الهابطين هو الخديو اسماعيل بعد أن بنى قصر عابدين وجعله مقرا رسميا للحكم ، أما نابليون فقد أدرك المهمة الحقيقية للقلعة ، فمنذ دخوله القاهرة بدأ فى ترميم أبراجها ، وتدعيم حصونها استعدادا لليوم الموعود ..

● ● ●

ولقد أتى اليوم المرتقب ، عندما ثارت القاهرة على الفرنسيس ، فلم يتورع نابليون عن صب نيرانه الحامية على الجامع الأزهر وماجاوره من أحياء مكتظة بالأهالى .. يقول الجبرتى فى وصف هذه المذبحة : « فلما سقط عليهم ذلك وراوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ، نادوا ياسلام من هذه الآلام ، ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف ، وهربوا من كل سوق ودخلوا فى الشقوق ، وتتابع الرمى من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الاركان ، وهدمت فى مرورها حيطان الدور ، وسقطت فى بعض القصور ، ونزل فى البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل .. وبعد هجعة من الليل ، دخل الفرنج المدينة كالسيل ، ومروا فى الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، ثم دخلوا الى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواصيه ، وكل من

صادفوه به عروه ومن ثيابه اخرجوه .. وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون ، وللنجاة بانفسهم يطلبون ، وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت اشرف البقاع ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفي بحر النيل قذفوهم ، ومات في هذين اليومين امم كثيرة لا يحصى عددها إلا الله » .

سنوات الحيرة

كانت السنوات الخمس التى تلت جلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، من أروع حلقات التاريخ المصرى كفاحا ونضالا وحركة وحيوية .. ولكنها تبقى ـ مع ذلك ـ اشد هذه الحلقات مدعاة للدهشة والحيرة .. كانت هذه السنوات بمثابة لحظة اشراق بعد ليل طويل حالك السواد ، وكان المتوقع ان يسفر الفجر الوليد عن حركة تحرير كبرى يتخلص فيها الشعب المصرى من اغلال النظام القديم ، ويتحرر من رق الترك والمماليك .. ولكن الثمرة الناضجة وضعت على طبق من الفضة وقدمها السيد عمر مكرم بالهناء والشفاء الى الضابط الألبانى المغامر محمد على ، ليحكم مصر مع ابنائه واحفاده قرنا ونصف قرن بالتمام والكمال .. وكاننا يابدر لا رحنا .. ولا جينا .. !

والأمر المؤكد ان المصريين افادوا من الحملة الفرنسية برغم النكبات والكوارث التى سببتها لهم ، فالحملة التى ضمت كتيبة من العلماء ، وحملت مع المدفع المطبعة والصحيفة والمعمل ، تركت بصماتها على العقل المصرى ، وتسامع المصريون بافكار الثورة الفرنسية التى هزت عروش اوروبا ، وترددت بينهم أسماء فولتير وروسو ومونتسكيو وأضرابهم من آباء الفكر الليبرالى ودعاة الحرية والمساواة ، وحق الشعوب فى التمرد على الطغاة والمتجبرين ، ولا شك ان المصريين شاهدوا ولمسوا وتاثروا بالنمط السياسى الجديد والتقاليد الجديدة التى جاء بها الفرنسيون ، فلما غادروا مصر كانت الشراذم التركية والمملوكية تتهيا لاستعادة مجدها الغابر .. كانت تمسك فى يدها الاغلال والأصفاد لتضعها فى عنق الشعب المصرى مرة أخرى ، ولم يكن من المعقول ان يتم لهم مااارادوا بعد ان تجلى جبنهم وخورهم وتخاذلهم امام الفرنسيين ، لقد هربوا جميعا من الساحة كالفئران المذعورة ، وتركوا المصريين وجها لوجه امام قدرهم .. واثبت المصريون انهم رجال من خلال الثورات والهَبّات التى قاموا بها ضد الاحتلال الفرنسى ، ودفعوا ثمن الحرية بالدم والعرق والدموع .. افليس من حقهم بعد ذلك ان يستمتعوا بالحرية .. ؟ اليس من حقهم ان يتطلعوا إلى عصر جديد تتحدد فيه العلاقة

بين الحاكم والمحكومين على اسس جديدة ، ومفاهيم جديدة تختلف عن تلك التى كانت قائمة فى العصر الوسيط .. ؟

● ولكن اى تحرر كان يريده المصريون .. ؟

● وماهو مفهوم الحرية الذى ينشدون .. ؟

هذا هو السؤال الصعب الذى تحار فى فهمه العقول .. ولكى نكون منصفين مع آبائنا واجدادنا ، ولكيلا نقسوا فى احكامنا عليهم ، يجب ان نضع فى اعتبارنا اختلاف المفاهيم بين عصرنا وعصرهم ، إذ من الخطا الكبير ان نحكم على عصرهم بآراء عصرنا .. ومن الظلم والاجحاف ان نحاسبهم بتقاليد عصرنا ، التى تضع اعتبار الاستقلال الوطنى فوق كل اعتبار ، ولم تكن مثل هذه المفاهيم شائعة او مطروقة فى زمانهم ، ولعل أوضح دليل هو تصرف الزعيم عمر مكرم الذى حمل لواء الثورة .. ولكنه انتهى بها الى احضان السيادة العثمانية ، وكان فى كل مافعل منسجما مع افكار عصره .. معبرا عن آراء مواطنيه التى لا ترى الأمان إلا فى ظلال السلطان ، ولا تتصور الانفصال عنه .

وإذا كان الاستاذ الرافعى قد ارتفع بالشعور القومى المصرى فى ذلك العصر الى مرتبة نظيره فى فرنسا وماأحدثه من ثورة استقلالية كبرى ، فإن الدكتور حسين مؤنس يحذرنا من الاسراف فى هذا التقدير ، لأن المصريين لم يكونوا يطلبون الحرية والاستقلال كمانفهمهماالآن ، ولم يكن عمر مكرم نفسه يفهم الحرية باكثر من انها رفع المظالم وتخفيض الضرائب .

ويرى الدكتور مؤنس أن عمر مكرم لم يكن فريدا فى فهمه هذا .. بل كان مثله فيه كمثل كل الوجهاء وذوى اليسار والسطوة من اهل البلاد ، فمهما بلغت مطامعهم لم يكن احد منهم يفكر فى ان يتولى بنفسه حكومة البلاد ، بل كان أقصى أمانيهم أن يتقربوا إلى اولى الأمر ، وان يحظوا منهم بالعطف والرعاية ، وتلك نتيجة طبيعية للوضع السياسى الذى وجد الشعب المصرى نفسه عليه ، فى ظل الحكومات التى تواترت عليه من قديم الزمان ، إذ اضعف فيه ثقته بنفسه ، وجعله يخشى المسئولية ولا يقتدر على اعباء الحكم ، فيكتفى بأن يَكِلَه الى الأجانب ويتولى هو المعاونة والمساعدة ، وهذا مافعله عمر مكرم .. فقد ترك الأمر طواعية لمحمد على وسلمه كل مقومات الحكم ، كانه كان يشعر فى نفسه بانه غير كفء له .

نجم الزعامة المصرية

كان السيد عمر مكرم اقوى شخصية مصرية ظهرَت على المسرح السياسى فى مطلع القرن التاسع عشر، ومع ذلك لم يفكر فى تنصيب نفسه حاكما على مصر، والعلماء الذين صعدوا معه الى القلعة فى مايو ١٨٠٥ لخلع الوالى العثمانى خورشيد باشا، لم يخطر ببالهم ان يضعوا الصولجان فى يد ذلك الزعيم الصعيدى الاسيوطى الأزهرى، ووضعوه فى يد الضابط المقدونى المولد، العثمانى النشاة : محمد على،فضيعوا على مصر فرصة العمر، وحكموا عليها بان ترزح قرنا ونصف قرن تحت نير اسرة أجنبية تضاف الى سلسلة الأسر التى حكمت مصر من قلاوونية وايوبية وفاطمية وإخشيدية وطولونية .. وقبل كل هؤلاء كان حُكم الرومان، وقبل الرومان كانت الأسر البطلمية الاغريقية التى استوطنت مصر بعد فتح الاسكندر لمصر عام ٣٣٣ قبل الميلاد. وبين المقدونى الأول والمقدونى الحديث واحد وعشرون قرنا عاشتها مصر تحت حكم الأجانب، ولم يستطع زعيم مصرى أن يخترق الستار الحديدى ويجلس على عرش بلاده.

إياك ان تقع فى شَرَك الذين يعلقون هذه الظاهرة على مشجب الاسلام، بحجة انه يجمع بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية فى شخص الحاكم، وأن الرعية عليها أن تسمع وتطيع بصرف النظر عن جنسية الحاكم ولونه .. واقول لك إن الاسلام برىء من هذه الأكاذيب التى روجها المرجفون لإخضاع الشعوب وتطويعها لحكم الجبابرة والطغاة .. والاسلام لم يقل ان حكم مصر حَلال لكافور الاخشيدى وابن طولون المنغولى وخوش قدم الالمانى الاصل ..وحرام على ابنائها .. !!

■ ■ ■

لو تتبعت تاريخ هذه الأسرات والدول، فسوف تكتشف بينها فجوات ضعف وانحلال كان من الممكن ان يسدها مصرى اصيل. مثلما حدث فى اعقاب جلاء الفرنسيين عن مصر وعودة الأتراك إلى حكمها وماحدث من صراع دموى بينهم وبين المماليك .. فى هذه الفترة المضطربة ظهر نجم الزعامة المصرية ممثلا فى شخص

السيد عمر مكرم .. ومع ذلك لم يفكر المصريون فى تنصيبه حاكما عليهم .. الأمر الذى يشكل علامة استفهام كبيرة .. ؟؟

ولقد حاولت ان اتلمس الجواب فى كتابات الباحثين والمؤرخين فلم أجد عند الاستاذ الرافعى مايشفى الغليل ، وهو برغم اعجابه الشديد بالسيد عمر مكرم ، وبرغم مبالغته فى تقدير حجم الشعور القومى الذى بزغ اثناء تواجد الحملة الفرنسية فى مصر ، فإنه لم يشرح لنا سر انصراف الحركة الوطنية الوليدة عن ابنها البار التقى النقى .. واقبالها على الضابط المقدونى المجهول الأصل .. !

الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ، فى كتابها القيّم « شخصية مصر » حاولَت ان تقدم تفسيرا خلاصته ان الموقف السياسى فى تلك الفترة الدقيقة كان يتطلب معرفة القوى الموجودة فى الساحة ووزنها بميزان دقيق ، كما يتطلب مهارة فى اللعب بها ، ومعها ، وقد عرف التاجر المقدونى من اين تؤكل الكتف ، ولم يكن علم هذا عند ابن البلد الطيب عمر مكرم .. وتضيف الى ذلك انبهارنا التقليدى بالغريب ..

اما الدكتور عبد العزيز الشناوى استاذ التاريخ الاسلامى .. فيقدم لنا فى كتابه عن عمر مكرم تفسيرا من خلال الظروف الثقافية والفكرية التى كانت تسود المجتمع المصرى يومئذ ، فالمجتمع كان مجتمعا دينيا ، ولم يكن ينظر الى السلطان العثمانى على أنه حاكم اجنبى دخيل مستعمر ، بل نظر اليه على انه سلطان الاسلام . وكان سلطان تركيا سعيدا جدا بهذه النظرة المقدسة ، فجعل من الدين ستارا يخفى وراءه اغراضا استعمارية ، والدين منها براء ، وكان الشعب المصرى متشبعا بفكرة الوطن الاسلامى اكثر من تشبعه بفكرة الوطن القومى ، وبعبارة اخرى كانت العاطفة القومية ممتزجة متشابكة مع العاطفة الدينية بحيث يصعب الفصل بينهما ، وكانت السياسة العليا للدولة العثمانية منذ غزو مصر فى عام ١٥١٧ تقضى بان يكون والى مصر عثمانيا صرفا ، بمعنى ان يكون عثمانى المولد والنشأة واللسان والعقلية ، فإذا تم اختيار عمر مكرم او غيره من زعماء البلاد واليا لمصر ، لكان معنى ذلك ـ فى ضوء مفاهيم المجتمع الدينى ـ ثورة على النظام الذى أخذت به الدولة ، ونقضًا لمبدأ أساسى وضعه

سلطان الاسلام وخروجا على طاعته ..

■ ■ ■

وكان من الممكن أن يكون هذا التفسير مقبولا لو ان الشعوب التى حكمتها الامبراطورية قد استسلمت نهائيا ، واستنامت لتلك المفاهيم التى اشار اليها الأستاذ الفاضل ، ولكن الذى حدث أن الشعوب العربية لم تكف عن الشغب والتمرد والعصيان فى مصر وسوريا ولبنان .. وثورة الدروز فى القرن السابع عشر معروفة .. وفى مصر وجدنا فى الثلث الاخير من القرن الثامن عشر من يقود جيشا ليضم سوريا ، ويعلن الانفصال عن الامبراطورية ، وأعنى بذلك حركة على بك الكبير ، فالخروج على سلطان الدولة العثمانية كان أمرا شائعا .. بل ان محمد على نفسه لم يكد يستقر على عرش مصر حتى شق عصا الطاعة على سادته ، وقاد جيشا مصريا واسطولا مصريا لِيَدُك بهما عرش الآستانة .. فما المانع من عصيان الدولة العلية ونقض مبادئها بتعيين مصرى على عرش مصر .. ؟؟

مهرجان الدم

تحدد يوم أول مارس ١٨١١ موعدا لسفر الحملة المصرية بقيادة الأمير طوسون لإخماد الحركة الوهابية فى الحجاز ، وخرج شعب القاهرة كعادته فى هذه المناسبات ، الى الشوارع المحيطة بالقلعة لتوديع الجيش وسط أهازيج الفرح ودقات الطبول ، ولكن صيحات الفرح تحولت الى صرخات استغاثة ، وطغى صوت الرصاص على دقات الطبول ، وتحول الموكب السعيد الى مهرجان للدم .

فى صباح ذلك اليوم تَصَدّرَ محمد على قاعة الاستقبال الكبرى فى قصره بالقلعة ، وتوافد عليه العظماء مهنئين مباركين ، وانتهزها المماليك فرصة لإظهار ولائهم للعهد الجديد ، فقد خمدت الحروب الطاحنة التى دارت رحاها فى صعيد مصر بين فلولهم وقوات محمد على ، ويئس المماليك من احراز نصر حاسم فهبطت عزيمتهم و اعربوا عن رغبتهم فى إلقاء السلاح ، وتظاهر محمد على بقبول الصلح فاعطاهم الأمان ، وسمح لهم بالعودة الى القاهرة ليعيشوا فى قصورهم بين حريمهم وغلمانهم حياة الرغد واللهو والفجور ، ولم يقنع المستبد الداخلى بهذا الاستسلام ورأى ان الحل الوحيد هو استئصالهم من الجذور ، حتى لا تبقى أمامه قوة مناوئة تصرفه عن الهدف الأكبر وهو الانفراد بحكم مصر .

• • •

ذهب البكوات المماليك الى القلعة يَرفلون فى ثيابهم المزركشة الفضفاضة وقد تمنطقوا بالسيوف الذهبية البراقة دون البنادق ، واستقبلهم محمد على بالبشر والترحاب وابدى لهم من طرف لسانه حلاوة اسكرتهم ونزعت من نفوسهم كل ريبة ، وهم الذين تربوا منذ نعومة اظافرهم على الشك والمكر والخداع ، ولكنهم فى هذا المضمار كانوا مجرد تلاميذ فى حضرة الداهية الأعظم الذى قرأوا عليه يوما صفحات من كتاب ميكافيللى فسخر منه وقال : انا اعرف اكثر منه .. !

ودوّى النفير إيذانا بتحرك الجيش ، فانتصب محمد على

واقفا ، ونهض الأمراء المماليك يستاذنونه في الانصراف ، فاوحى اليهم أنه سيكون أكثر حبورا لو أنهم شاركوا في المهرجان كي يراهم شعب القاهرة وهم في صحبة الجيش ، وتلقف المماليك الطُعمَ شاكرين ، واعتبروا مطلبه زيادة في الكرم وحسن النوايا ، وبدأ الموكب سَيرَه حسب الخطة المرسومة : في المقدمة جوق الطبول والموسيقى ثم طليعة الفرسان ، وبعدها كتيبة الجنود الألبان بقيادة صالح قوش أحد اربعة رجال اشتركوا مع محمد على في تدبير المؤامرة ، وبعدهم جموع البكوات المماليك على صهوات جيادهم المطهمة ، وتهادى الموكب من باب القصر ثم انحرف يسارا ليجتاز طريقا ضيقا وَعِرا منحوتا في الصخور ويتدرج في الانحدار حتى باب العزب الذى يفضى إلى ميدان الرميلة (صلاح الدين حاليا) . وعبرت الفرق الاولى باب العزب ، ثم انغلق الباب غلقا محكما ، وفي سرعة خاطفة تسلق الألبان بأسلحتهم النارية قمم الصخور المتاخمة للطريق ، بينما كانت جموع المماليك تتقدم نحو الباب ولا يدرون شيئا مما يجرى حولهم ، وفي نفس الوقت كانت صفوفهم الخلفية تواصل سيرها حتى إذا اكتمل عددهم انغلق الباب الذى دخلوا منه فباتوا محصورين في هذا الخندق الصخرى الضيق ..

* * *

وفجاة .. دوت طلقة نارية فكانت اشارة بدء المذبحة ، وبعدها انفتحت افواه البنادق كالسيل المنهمر يحصدهم حصدا فلا يستطيعون فكاكا ، وصدمتهم المفاجاة وانسدت في وجوههم ابواب النجاة من هذا الجحيم المستعر ، وتلاطمت خيولهم وساعد دَوىّ الرصاص على إثارتها فازدادت هياجا كانها حُمُر مستنفرة فرّت من قَسوَرة .. واخذت الخيل تلفظ سادتها عن ظهورها وتدكهم باقدامها دكا وكانها تنفذ دورا مرسوما لها في المؤامرة ، ومن حاول منهم تسلق الصخور عاجلته رصاصة يهوى بعدها الى الحفرة صريعا أو جريحا فتدهسه الخيل النافرة ، اما الوحيد الذى نجا بحياته فهو امين بك الذى كان في مؤخرة الركب ، فما إن سمع دوى الرصاص حتى ركض بجواده نحو اسوار القلعة ثم لكز الحصان بقوة فهوى به الى الوادى السحيق وتهشم الجواد ونهض الامير فأطلق ساقيه للريح في صحراء المقطم ، ولم يكف عن الجَرى حتى وصل لبنان لائذا باميرها بشير الشهابى .

على موائد اللئام

لم تكن مذبحة القلعة هى فصل الختام فى المأساة المروعة التى خطط لها محمد على بإتقان ، فالبكوات المماليك الذين ذهبوا الى احتفال القلعة وحصدهم رصاص الألبان كانوا ٤٠٥ فقط ، اما بقية المماليك فكانوا - وقت المذبحة - آمنين فى قصورهم المنبثة فى الجمالية والأزبكية والناصرية ولا يدرون شيئا مما جرى لزعمائهم ، فما إن سكن غبار المذبحة حتى انقض الجند الالبان على قلب القاهرة يذبحون المماليك فى عقر دورهم ويستحيون نساءهم ، وينهبون اموالهم . كانت تعليمات الابادة صريحة حتى لا يبقى على ظهر الأرض من المماليك دَيَّار ، ولقد نفذ الألبان المهمة الموكولة اليهم وقد تملكَتهم شهوة السلب والانتقام من اعدائهم الألداء ، حتى باتت القاهرة فى ذلك اليوم المشئوم اشبه بمدينة مفتوحة امام غزوة تترية ، وعاث الجند فسادا فى المدينة الآمنة ، ولم يسلم المصريون من هذه المحنة القاسية ، فاصابهم بعض ما اصاب المماليك من عمليات النهب والسلب وهتك الأعراض ، ورغم أن اهل القاهرة سارعوا الى اغلاق حوانيتهم ولجاوا الى بيوتهم بمجرد سماعهم نبأ المذبحة ، إلا ان الوحوش الكاسرة لم تفرق بين قصور المماليك وبيوت المصريين ، فاستباحوا كل ما تصل اليه أيديهم واستمرت الفوضى ثلاثة أيام بلياليها ، ولم تتوقف إلا بعد أن نزل محمد على بنفسه إلى شوارع المدينة ، وتمكن من كَبح جماح جنوده واعاد الانضباط الى المدينة التعيسة .

وفى نفس الوقت الذى دارت فيه عمليات الابادة فى القاهرة ، كانت هناك عمليات مماثلة فى الاسكندرية وبقية المدن التى يتواجد فيها المماليك ، ولم يفلت منهم إلا من اسعده القدر بالهروب الى الصحراء بحثا عن كهف مظلم أو قبر مهجور ياوى اليه .

● ● ●

وانطوت إلى الأبد من تاريخ مصر صفحة المماليك بعد خمسة قرون أو تزيد عاشوها فى احضان مصر المحروسة ، يتقلبون فى أعطاف نعيمها وينهلون من رضاب نيلها ، اولئك هم الصعاليك الذين جاءوا الى مصر غلمانا يباعون فى اسواق النخاسة ، فما هى

إلاّ عشية وضحاها حتى اصبحوا ملوكا يَدين الناس بالطاعة لهم ، ويدعون لهم بالنصر والعز والتاييد . وفَن الدعاء للحاكم ـ إن لم تكن تعلم ـ فَن مصرى قديم أتقَنه المصريون منذ دالت دولتهم ، وخبا عزهم ، واصبحوا غرباء فى ديارهم ، ثم باتوا كالأيتام على موائد اللئام .. ولكن هؤلاء اللئام لم تكن صفحة حياتهم خالية من ومضات المجد والعظمة ، فهم الذين دافعوا عن مصر والشرق الاسلامى يوم اطبقت عليه جحافل المغول من الشرق ، وجيوش الصليبيين من الغرب ، وهم الذين فُتنوا بجمال العمارة ، وتلك آثارهم تدل عليهم فى المساجد والمدارس والأضرحة والأسبلة . ولو سرت يوما فى قاهرة المعز ، فاعلم ان كل ما تقع عليه عينك من اثر عظيم ـ بما فيها الأزهر نفسه ـ إنما من وحى عشقهم للعمران والتشييد .

● ● ●

فوارحمتاه على اولئك الصناديد الذين ترَبّوا على صهوات الجياد ، وانصهروا فى غبار المعارك ، ولم يعرفوا إلا لُغَة الحرب ، فاذلوا كبرياء هولاكو فى عين جالوت ، واسروا لويس التاسع فى المنصورة ، وحرروا القدس من دَنَس الصليبيين،وازالوا آخر قلاعهم فى عكا ، ومسحوا وجودهم عن خريطة الشرق الاوسط .

وواأسفاه عليهم حين خلدوا الى النعيم واللهو ، والمجون ، وانحبسوا فى مخادع الحريم والغلمان ، فلانت قناتهم ، وذابت صلابتهم ، وانطفأ وهجهم ، وصدئت سيوفهم من طول مانامت فى اغمادها ففقدوا مبرر وجودهم ، ولم يبق منهم سوى ثياب مزركشة مضحكة ، وخيول مطهمة ، وسيوف مطعمة بالماس والزمرد ، وكلها أشياء تصلح للعرض فى المتاحف ولا تصلح لمواجهة تطورات العصر الحديث .

وقبل أن يَفنى المماليك على يد محمد على ، كانت عوامل الفناء الذاتى قد حكمت عليهم بالموت البطىء ، لقد ظنوا ان العالم سوف يتوقف عند اللحظة التى شهدت امجادهم ، وتقوقعوا داخل شرنقة الغرور والاستعلاء والجهل ، وماذروا انهم صنعوا اكفانهم بايديهم ، ودخلوا مرحلة الفناء البطىء حين تجاهلوا حركة التاريخ .. فلما أجهز عليهم محمد على لم يجدوا احدا يبكى عليهم أو ياسف على ماساتهم .

إنها عبرة التاريخ لمن يريد أن يعتبر .

عبدٌ مأمور

كان محمد بك الدفتردار احد السواعد القوية التى اعتمد عليها محمد على فى تثبيت حكمه وتشديد قبضته على الشعب المصــرى ، وقام فى هذا السبيل بدور لا يقل كفاءة عن الأدوار التى قام بها ابراهيم باشا أكبر أبناء الوالى ، والكتخدار محمد لاظوغلى نائب الوالى ، وصالح قوش بطل مذبحة القلعة ، وغيرهم من اركان النظام الجديد ، وكلهم جاءوا برفقة محمد على ، جنودا فى جيش الاحتلال العثماني الذى وصل مصر فى فترة الفوضى التى اعقبت خروج الحملة الفرنسية ولكنهم لم يخرجوا من مصر ابدا .. واصبحوا سادة البلاد والمتحكمين فى مصيرها على مدى قرن ونصف قرن من الزمان .

وكان محمد الدفتردار وحشا كاسرا يحمل بين جنبيه قلبا صخريا لا تعرف الرحمة أو الشفقة سبيلا اليه ، كان عاشقا للدماء ، يطرب لمشهد الرؤوس وهى تطير فى الهواء ، ولا يتورع عن ارتكاب ابشع المذابح لأوْهَى الأسباب ، فكان مجرد ذكر اسمه يثير الفزع والرعب فى نفوس سامعيه . وكان محمد على يستخدم هذا النوع من البشر لفرض سيطرته وإحكام قبضته على ربوع مصر ، ومنع المصريين من التمرد على نزعته الاستبدادية ، فجعله من خاصته المقربين ، ولكى يضمن ولاءه الى الابد زَوّجَه ابنتَه زهرة هانم ، فاصبح واحدا من اعضاء الأسرة المالكة ،

وحدث أن كان الدفتردار يطوف على بعض القرى عندما تقدم منه فلاح بائس عارضا شكواه فقال : لقد تاخرت عن سداد الضريبة المستحقة علىّ وقدرها ستون قرشا ، ولكن ناظر الارض أبَى إلا الدفع ، فاستولى على بقرتى الوحيدة وامر جزار القرية بذبحها ثم قسمها ستين جزءا وامر بتوزيعها على الفلاحين بواقع قرش واحد للجزء ، واعطى الجزار راس البقرة لقاء عمله ، وبعد أن جمع المبلغ مضى وتركنى دون ان أتَذَوق حتى ولو قطعة واحدة من لحم البقرة التى كنت اعتمد عليها فى زراعتى .. وكانت تساوى ضعف المبلغ الذى جَمعه .

فلما فرغ الفلاح من قصته مضى الدفتردار الى القرية ، واطلق

المنادى يطلب من اهلها التجمع فى الجُرن . والتف الفلاحون فى شبه حلقة ، بينما بعث الدفتردار فى استدعاء الناظر والجزار الذى ذبح البقرة ، ثم أمر الجند بتكبيل الناظر بالحبال والقائه فى وسط الحلقة ، وتوجه بالحديث الى الجزار قائلا : كيف سمح لك ضميرك بذبح بقرة هذا الفلاح المسكين وهى كل ما يملك من حطام الدنيا ؟! فارتعد الجزار ولكنه تمالك نفسه وقال للدفتردار : إنى يامولاى ، عبد مامور .. ولم افعل سوى ما امرنى به الناظر .. فسكت الدفتردار برهة كانها دهر والقى بسهام نظراته النارية على الناظر المطروح ارضا ، وقال للجزار : لو امرتك بان تذبح الناظر مثلما ذبحت البقرة .. فهل تفعل ..؟ فقال الجزار على الفور : لقد قلتُ يامولاى إنى عبد مامور ، اطيع الأوامر التى تصدر إلىّ من سادتى .. عندئذ انتصب الدفتردار واقفا وصرخ فى وجه الجزار : إذن فإنى امرك أن تذبح هذا الوَغد .. فخَفّ الجزار مسرعا وأخرج السكين من جيبه ، وانقض على رقبة الناظر فحزها حتى فصل راسه عن جسده .. وساد الوجوم أهل القرية .. وجمدت الدماء فى عروقهم وظلوا واقفين مذهولين امام هذا المشهد الرهيب .. وبعد ان فرغ الجزار من مهمته نهض منتظرا باقى الاوامر . فقال له الدفتردار : والآن آمرك أن تقطع جثته ستين إربا .. ماعدا الراس .. ومضى الجزار فى تنفيذ الامر بهمة ونشاط حتى فرغ من تقطيع الجثة ستين إربا .. وهنا التفت الدفتردار نحو اهالى القرية صارخا : على كل منكم ان يشترى قطعة ويدفع قرشين .. وصدع الاهالى بالأمر .. اخذ كل منهم قطعة من لحم الناظر ووضع قرشين . فلما تجمع مبلغ مائة وعشرين قرشا تناولها الدفتردار . ودفع بها الى الفلاح المنكوب ليشترى لنفسه بقرة جديدة .. ثم التفت الى الجزار وقال : « كما انك اخذت راس البقرة جزاء لك على تعبك ، خذ بالمثل راس الناظر جزاء لك على تعبك فى ذبحه وتقطيعه » وانطلقت منه ضحكات فظيعة كانها زلزال مدمر .. ثم نهض وغادر القرية ومن خلفه جنوده .. بينما اهل القرية ذاهلون .. وكانهم يشهدون كابوسا كريها ..

لقد ظن هذا الوحش البشرى انه اقام عدلا ، ومحا ظلما .. !! ومادرى ان العدل الذى يتحقق عن طريق الإرهاب والعنف هو عين الظلم .

سياسة بلا أخلاق

كان أمير البحر احمد فوزى باشا قائدا للاسطول التركى فى الوقت الذى بلغ الصدام فيه ذروته بين مصر وتركيا . كان محمد على قد اذاق الجيوش التركية مرارة الهزائم المتوالية فى الشام والأناضول ، وباتت القوات المصرية على مرمى حجر من عاصمة الامبراطورية العثمانية فزلزلت دعائمها وهددت بزاولها . وفى هذا الوقت الحرج مات السلطان محمود ـ سلطان الاتراك ـ وخلّفه غلام فى السابعة عشرة اسمه عبد المجيد ، اسلم زمام الدولة إلى خسرو وعيّنه صدراً اعظم.والمصريون يذكرون هذا الرجل الذى جاء الى مصر واليا من قبل الدولة العلية مع بداية ظهور محمد على ولكنه فشل فى اقتلاعه من مصر ، فعاد الى بلاده خائبا وهو يقطر حقدا على محمد على .

وكما جرت عليه العادة فى دول الشرق منذ القدم ، فإن فترات الانتقال من حاكم الى حاكم تكون نعمة على البعض ، مثلما هى نكبة على البعض الآخر ممن لا يكون هواهم مع النظام الجديد ، فتعمل الدسائس والمؤامرات عملها فى الايقاع بهم وتصفيتهم جسديا وسياسيا ، وكان القبودان احمد فوزى باشا من هؤلاء الذين يتوقعون الشر من جانب خسرو باشا بسبب (خصومة) قديمة بينهما . لذلك لم يكد فوزى باشا يتلقى امر استدعائه الى الآستانة حتى أوجس فى نفسه خيفة ، وادرك انه إما مقتولاً وإما معزولا . فاشار عليه بعض اعوانه بفكرة اللجوء إلى مصر وتسليم الأسطول التركى الى محمد على غنيمة خالصة فينال حظوته ويضمن لنفسه موقعا اثيرا فى دولة النجم الصاعد ، واستحسن الرجل الفكرة فاقلع بالاسطول الضخم سرا من مياه الدردنيل الى الاسكندرية وعلى ظهره اكثر من ٢١ الف بحار وجندى . واستقبل محمد على الاسطول التركى بالحفاوة والترحاب ، فبانضمامه الى البحرية المصرية اصبحت مصر اقوى دولة بحرية فى البحر الأبيض المتوسط . ولقى فوزى باشا عند سيده الجديد الحظوة التى كان يتوقعها .

ولكن الرياح لم تجر بما كان يشتهى امير البحر التركى ، ولا بما

كان يتمنى محمد على ، فقد لعبت الدول الأوربية ـ بزعامة انجلترا ـ لعبتها المعروفة لإجهاض نهضة محمد على وقصقصة اجنحته التى امتدت الى الحجاز وفلسطين وسوريا والمورة والاناضول ، واسفرت المؤامرة الأوربية عن إبرام معاهدة لندن التى اعادت الجيوش المصرية الى معاقلها الاصلية . وبعدها اصدر السلطان العثماني فرمانا ينظم شكل العلاقة الجديدة بين مصر ودولة الخلافة ، وكان من بين بنوده إعادة الاسطول التركى والعفو عن جميع رجاله باستثناء القبودان احمد فوزى باشا ، فكان لابد من تسليمه حتى يلقى جزاء خيانته .

واسقط فى يد محمد على ، فلا هو يستطيع مقاومة امر السلطان ومن خلفه الدول الأوربية المتحفزة ، ولا هو يستطيع تسليم الرجل الذى التجا إليه فتضيع هيبته امام اتباعه ومعظمهم من الترك ، وشعر السلطان بحرج موقف محمد على واراد ان يسهل عليه الأمر ويخرجه من المازق فبعث إليه بانه ليس من الضرورى تسليم القبودان الخائن حيا .. فالمهم ان يدفع ثمن خيانته سواء فى مصر أو فى الآستانة .. فكلها بلاد السلطان ، وفهم والى مصر مغزى الاشارة فنهض من فوره إلى خزانته الخاصة واخرج منها قنينة سموم صغيرة واستدعى احد خاصته واعطاه القنينة وكلفه بمهمة التفاهم مع فوزى باشا لاخراج والى مصر من ورطته .

وذهب الرسول الى قصر فوزى باشا واخذ يلاطفه ويحدثه حديثا عن متاعب الحياة الدنيا وكيف أن متاعها زائل .. وان النعيم الحقيقى فى الحياة الآخرة وان ماعند الله خير وابقى وانه يحسن بالمرء ان يكون مستعدا لمقابلة وجه ربه الكريم فى اية لحظة يشاء الله فيها ان يستدعيه اليه . وما اسهل الموت إذا جاء للانسان فى جرعة ماء او فنجان قهوة .. !! وفهم القبودان معنى الكلام ، فقام فتوضا وصلى العصر وختم الصلاة بالدعاء والاستغفار .. ثم التفت الى فنجان القهوة المسمومة فتجرعها فى صبر واستسلام وهو يهذى بالتركية : قسمت .. قسمت .. !!

شارع سليمان باشا

لا يُذكر تاريخ « الجهادية » المصرية إلا مقترنا باسم محمد على الكبير مؤسس مصر الحديثة ومعه سليمان باشا الفرنساوى ساعده الأيمن فى بناء اول جيش مصرى صميم منذ انحلت الفيالق المصرية فى اواخر عصر الفراعين وسقوط مصر تحت سنابك الغزاة .

آلفان من السنين عاشها المصريون محرومين من شرف الجندية ، لا يحملون سلاحا يدافعون به عن وطنهم ، فقد اراد لهم حكامهم ان يحملوا ـ فقط ـ الفئوس . حتى باتت كلمة « فلاح » مرادفة لكلمة « مصرى » فى قاموس الشراذم الأجنبية التى تكالبت على مصر كما تتكالب الأكلة على قصعتها .. !

بقى هذا الحال المهين إلى ان ظهر محمد على ، على مسرح الحياة المصرية ليحرك ركودها ، ويدفعَ الدماء الفتية فى عروقها التى تجمدت بفعل القهر والطغيان والجهل والانفلات .. ورأى هذا الثعلب العبقرى ان اول خطوة فى بناء دولة مصر العالمية إنما تبدا من بناء جيش نظامى حديث على نمط الجيوش الاوربية التى تعالى صليلها خلال الحروب النابليونية ، وجَرب محمد على ان يجعل من (الباشبوزق) وهم اخلاط من الارنئؤوط والشركس والدلاة ـ نواة الجيش النظامى ، ولكن هل يستطيع من نشأ على الفوضى والشغب والتمرد والخيانة والغدر ان يخضع لأصول الطاعة و النظام والضبط والربط واحترام القيادة .. ؟

مستحيل ...

وفشلت التجربة فشلا كاد يطيح بمركز محمد على نفسه .. فاتجهت انظاره الى الفلاحين ..

هل استقرأ محمد على نبض التاريخ فتذكر أمجاد الجيش المصرى أيام كان يصول ويجول فى تخوم الشرق تحت رايات احمس وتحوتمس ورمسيس .. ؟ !

لا اظن .. فلم يكن عزيز مصر من اولئك الحكام الذين يحبون الثقافة واستقراء التاريخ ، ولكن من المؤكد انه كان خبيرا فى كشف معادن الرجال .. فادرك بفراسته ان هذا الفلاح الخامل سوف ياتى بالاعاجيب إذا تهيات له الظروف الصالحة ..

وبدأ محمد علي من نقطة الصفر ..

وساقت إليه الأقدار ضابطا فرنسيا من بقايا حروب نابليون اسمه الكولونيل (سيف) فعهد اليه العزيز بمهمة تكوين النواة الأولى من الضباط الذين سوف يعاونونه على تدريب الجنود المصريين . واختار له ٥٠٠ من خاصة مماليكه ليبدأ بهم ، واختار له أسوان لتكون (وكرا) لهذه المهمة العويصة بعيدا عن مؤامرات الباشبوزق ومقاومتهم لكل جديد . واستغرقت عملية التدريب ثلاث سنوات ذاق خلالها (سيف) الأمرّين لتطويع هذه العناصر الفوضوية وتهذيبها .. واعتنق (سيف) الاسلام واصبح اسمه (سليمان) فزال الحاجز النفسي بينه وبين تلاميذه الضباط واظهر لهم من ضروب الشجاعة والصبر وسعة الصدر ماجعل حقدهم عليه ينقلب الى حب واحترام واجلال .

● ● ●

حدث مرة ان دَبّر تلاميذه مؤامرة لاغتياله اثناء التدريب على ضرب النار ، فاطلق احدهم عليه رصاصة مست اذنه واطاحت بقبعته. وبدلا من أن ينتقم سليمان من القاتل ، امسك بالبندقية واتخذ مكان القاتل في الصف وأخذ يصوب الرصاص نحو الهدف وهو يردد : هكذا يكون التصويب ياغبي .. ! وكان من الطبيعي أن تترك هذه التصرفات النبيلة اثرها في تلك النفوس الصخرية ، فاذابت من جمودها وغرورها .

وبعد تكوين الدفعة الأولى من الضباط بدأت عملية البحث عن الجنود ، وكان من الطبيعي أن تلقى دعوة التجنيد نفورا وكراهية من المصريين لبعد المسافة الزمنية بينهم وبين هذا الواجب الوطني ، فضلا عن الطريقة البشعة التي سلكها زبانية محمد علي لجمع الفلاحين . إذ كانوا ينقضون على القرى الآمنة كالوحوش الكاسرة ويأسرون كل من يقع في أيديهم من الرجال والنساء والأطفال ويسوقونهم في الحبال إلى معسكرات التجنيد في المدن .

ولكن المشروع مضى في طريقه المرسوم ، وبقي سليمان باشا الفرنساوي على راس الجيش يعلم ويدرب وينظم وينشىء المدارس الحربية ويستدعي الخبراء من الخارج ويرسل البعوث إلى اوربا لتتخصص في الفنون العسكرية ، ولم يكن سليمان باشا

اقل من سيده اعجابا بالفلاح المصرى . ويؤثَر عنه قوله « إن العرب (يريد المصريين) هم خير من رايتهم من الجنود ، فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب مع انشراح النفس وتوطينها على احتمال صنوف الحرمان . وهم بقليل من الخبز يسيرون طول النهار يَحدوهم الشدو والغناء ، ولقد رايتهم فى معركة (قونية) يبقون ساعات متوالية فى خط النار محتفظين بشجاعة ورباطة جاش تدعوان إلى الاعجاب دون ان تختل صفوفهم او يسرىَ إليهم الملل او يبدو منهم تقصير فى واجباتهم وحركاتهم الحربية » .

وظل سليمان باشا الفرنساوى يواصل مهمته الجليلة حتى عصر سعيد باشا ، ودخل فى نسيج المجتمع المصرى ، فتزوجت إحدى بناته بمحمد شريف باشا (ابو الدستور) فانجب منها فتاة تزوجت عبد الرحيم صبرى باشا واثمر هذا الزواج فتاة هى ملكة مصر السابقة (نازلى) ام الملك الراحل فاروق .

وتقديرا من المصريين لهذا الرجل الذى يرجع اليه الفضل فى بناء اول جيش مصرى صميم ، اقاموا له تمثالا فى الميدان المسمى باسمه واطلقوا اسمه على أحد شوارع القاهرة ، فلما قامت ثورة الجيش فى يوليو ١٩٥٢ اطاحت بالتمثال والقت به فى ساحة المتحف الحربى ، ونزعت اسمه من الميدان والشارع واطلقت عليهما اسم طلعت حرب ، ومع ذلك لا يزال المصريون يفضلون استعمال اسم (شارع سليمان) ربما لانه اسهل .. وربما وفاء منهم لذكرى هذا الرجل العظيم .

قتيل بنها العسل

كان عباس الأول أسوأ ملوك اسرة محمد على . بل اسوأ الحكام الذين توالوا على ملك مصر .. كان يجمع بين الجهل والغباء .. وتنطوى نفسه على شر دفين نحو كل الناس بمن فيهم اهله والمحيطون به ، حتى انفض من حوله معظم افراد الأسرة العلوية هربا برقابهم من ان تنالها سيوف الوالى .

حكم عباس الأول مصر ست سنوات كانت دَيجورا داكنا ليس فيه خيط نور .. وقد تولى الحكم فى حياة جده محمد على ، بعد وفاة عمه البطل المغوار ابراهيم باشا .. ورغم أن عمه سعيدا كان من اولاد محمد على ـ إلا ان نظام الوراثة الذى فرضه الانجليز والعثمانيون على محمد على بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، كان يقضى بان يكون الحكم لأكبر افراد الأسرة سِنا .. وشاء الحظ العاثر ان يكون كبير القوم اجهلَهم واغباهم .. وهذا اكبر دليل على فساد نظام توريث الحكم .. فمن يضمن الا يكون الوريث فاسدا متلافا يبدد ثروة لم يتعب فى جمعها ، ويهدم مابناه اسلافه .. !
وهذا مافعله عباس ، إذ اغلق المدارس والمصانع والمؤسسات التى بناها جده .. واستدعى البعثات التى كانت تتلقى العلم فى أوروبا .. واستدار نحو العلماء الذين رَباهم محمد على .. ومنهم رفاعة الطهطاوى ـ فشتتَ شملهم ونفاهم إلى اقاصى السودان ليامن « علمهم » .. !

■ ■ ■

وكان عباس الأول مثل الخفافيش .. يكره النور .. ويستوحش من الناس ، ولا يتحرك إلا فى الظلام .. فهجر القاهرة واقام لنفسه عدة قصور فى بطون الصحراء ، كان أضخمها قصر فى العباسية ـ وكانت فى ذلك الوقت صحراء موحشة ـ كما بنى قصرا فى صحراء السويس ، وقصرا فى العطف ، وقصرا على النيل فى بنها العسل .. وهو القصر الذى لقىَ فيه مصرعه .. وكان يأوى إلى تلك القصور ليبتعد عن الناس ولا يحيط به الا شرذمة من العبيد والغلمان ..

وقد اختلفت الروايات فى مؤامرة مقتل عباس ، فمن قائل إن

عمته الأميرة زهرة ـ ارملة محمد بك الدفتردار ـ هى التى دبرت المؤامرة من منفاها فى تركيا . وكانت تعرف شغف ابن اخيها بالغلمان فدّست له غلامين جميلين كلفتهما بالسفر الى مصر والتحايل على الالتحاق بخدمته وقتله ، فلما جاء الغلامان الى القاهرة عرضا نفسيهما فى سوق الرقيق ، وكان لعباس وكيل متخصص فى شراء الغلمان المُرد .. فما إن وقع بصره عليهما حتى اشتراهما والحقهما بخاصة الأمير .. وكان من عادة عباس أن ينام فى حراسة غلامين ، فلما جاء الدور على هذين الغلامين انتظرا حتى غط فى النوم ثم دخلا عليه واخمدا انفاسه ثم اسرعا الى الهرب الى الاسكندرية ومنها الى استانبول قبل اكتشاف الجريمة وهناك قَبضا ثمن المهمة من عمة الأمير .

وهناك رواية اخرى تقول ان مقتل عباس كان جزءا من مؤامرة من مؤامرات القصور التى كانت شائعة فى ذلك العصر . وخلاصة القصة ان عباس كان يصطفى بعض عبيده المقربين ويفرق عليهم الرتب العسكرية والاراضى الشاسعة على غير كفاءة يستحقونها ، وكان على راس هذه الشرذمة مملوك اسمه خليل بك درويش ، ولكنه بدافع الغطرسة والغرور أساء معاملة مرؤوسيه فاستطالوا عليه بالغمز واللمز ، وخاصة أنه كان جميلا صغير السن ، فشكاهم الى مولاه فامر بجلدهم وتجريدهم من الوظائف العسكرية والحقهم بخدمة الاسطبلات . ولجا هؤلاء المنبوذون إلى مصطفى باشا امين خزانة الأمير ليتوسط لهم عنده ، فانتهز فرصة قدوم الوالى الى قصر بنها ومعه احمد يكن باشا وابراهيم باشا الألفى محافظ القاهرة ، ورجاهما التوسط لدى الوالى ليعفو عن اتباعه ، فاستجاب عباس لهما وعفا عنهم وإعادهم الى مناصبهم فجاءوا الى بنها ليرفعوا له تشكراتهم وهم يضمرون قتله ، فاتفقوا مع غلامين من خاصة عباس كانا يحرسانه وهو نائم ففتحا لهم الباب ودخلوا غرفة الامير فشعر بهم وحاول المقاومة .. ولكنهم تكالبوا عليه حتى تمكنوا من خنقه ثم لاذوا بالفرار .. فلما كان الصباح ولم يستيقظ الوالى فى موعده دخل عليه يكن باشا والألفى باشا فوجداه مخنوقا فى فراشه ، فكتما الخبر ثم نقلا جثمانه الى القاهرة وهناك اعلن خبر قتله ، فتنفس الناس الصعداء .. واحسوا بارتياح شديد كان كابوسا ثقيلا انزاح من فوق صدورهم .

النبأ السعيد

لما اشتدت وطاة المرض علي والى مصر محمد سعيد باشا ، نصحه اطباء أوروبا بالعودة الى بلاده ليلفظ فيها انفاسه بدلا من البهدلة في بلاد الفرنجة .. واستجاب سعيد لنصيحة اطبائه وعاد إلى قصره بالاسكندرية ينتظر ملك الموت بين لحظة واخرى ، ولم يكن اسماعيل - وريثه علي العرش - اقل استعجالا لنهاية عمه حتى يستريح من الآلام المبرحة ، ويقفز هو إلى عرش المحروسة ، وذاعت اخبار احتضار الوالى فى انحاء البلاد ، وبدات الأنظار تنصرف عن الشمس الغاربة في مياه الاسكندرية وتتجه نحو قلعة القاهرة حيث يقيم الوالى المنتظر ، واخذت زرافات المنتفعين والوصوليين ومحترفى السلطة تتحرك نحو القلعة ترقب النجم الصاعد .. وتحجز لنفسها مكانا فى دولة اسماعيل المقبلة .

● ● ●

وكان من عادة ذلك الزمان ان يتعطف الحاكم الجديد بالإنعام برتبة البكوية على اول شخص يحمل إليه نبأ الولاية ، او برتبة الباشوية إن كان يحمل رتبة البكوية ، فضلا عن صرة من العملات الذهبية ، وكان رئيس مكتب التلغراف بالقاهرة - ويدعى بسى بك - يعرف هذا التقليد فكان أشد الناس تحرقا إلى تلقى نبأ موت الوالى سعيد فيكون أول من يزف (النبأ السعيد) الى اسماعيل .. وظل الرجل مرابطا فى مكتبه لا يغادره ليلا ولا نهارا .. وبين الحين والآخر يتصل بزميله رئيس مكتب تلغراف الاسكندرية يستعجله الخبر ، ومرت الايام والليالى ، والمسكين لا يذوق طعم النوم حتي أوشك على الانهيار ، ثم خطر له ان يتمدد لبضع دقائق يختطف فيها قسطا من الراحة حتى يتمكن من مواصلةالعمل ، فاستدعى معاونه - وكان رجلا خبيثا - وقال له : انت تعرف طبعا ياعزيزى أهمية خبر وفاة الوالى وتعرف انه سيعود علينا بالخير العميم ..

قال المعاون فى بلاهة : اجل اعرف ياسيدى ..

قال بسى بك : وتعلم انني لم أذق طعم النوم منذ أيام ..

قال المعاون : أجل اعلم ..

قال بسى بك : إذن سوف ادخل الى مكتبى لاغفو قليلا .. إذا جاء النبأ السعيد فما عليك إلا ان توقظنى فورا .. وستكون لك عندى مكافاة ٥٠٠ فرنك ..

• • •

وقَبِلَ المعاون العَرض ، ودخل بسى بك الى مكتبه وهو بملابس الشغل فاستلقى على أريكة جلدية قديمة ، وراح فى سبات عميق .. وماهى إلا دقائق حتى تَلَقّى المعاون نبا موت الوالى سعيد ، فامسك بالبرقية وفتح باب غرفة رئيسه فوجده يغط فى النوم واصوات شخيره تزلزل اركان الغرفة ، فاوصد عليه الباب وانطلق من فوره الى القلعة ، وكشف للحراس عن مهمته فذهبوا به الى القصر وادخله رجال البلاط الى القاعة الرئيسية حيث كان اسماعيل يترقب وصول النبا السعيد .. وتقدم الموظف جاثيا على ركبتيه وهو يرفع البرقية الى الوالى الجديد .. فما إن قراها اسماعيل حتى طفرت من عينيه دموع الفرح .. وسقطت البرقية من يده فالتقطها المعاون وهو لا يزال جاثيا فى انتظار المكافاة ـ واقبل رجال البلاط والحاشية يزفون التهانى إلى ولى النعم .. وتلفت اسماعيل فوجد الموظف لا يزال راكعا شاهرا البرقية فى يده .. فتبسم ضاحكا من إصراره وقال له ، انهض يابك ، ونهض المعاون .. وقدم له احد رجال القصر الصرة الذهبية فاخذها .. ثم غادر القصر عائدا الى مكتب التلغراف وتذكر المكافاة الموعودة من رئيسه ، وبلغ به الجشع ان رفض التغاضى عنها بالرغم من انه أصبح من حملة العملات الذهبية ، فدخل على بسى بك وايقظه من نومه وقدم إليه البرقية وكانه تلقاها على التو .. ونهض الرجل وهو يهتز طربا .. وانهال على معاونه تقبيلا ، وهم بالخروج فى طريقه الى القلعة ولكن المعاون ذكره بالمكافاة ، فاخرج المسكين كل ما فى جيبه من نقود مصرية وتركية وفرنسية ، ودَسها فى جيب المعاون ، وانطلق من فوره الى القلعة والبرقية فى يده وهو يمنى نفسه برتبة الباشوية وبالصرة التى سترفعه من زمرة الموظفين التعساء الى صف الموسرين السعداء ، ولكن ما إن بلغ مشارف القلعة حتى سمع دَوِىّ المدافع ابتهاجا بتولية اسماعيل ، وبُهِتَ المسكين واقترب من احد رجال البلاط يستفسره النبا فابلغه بما حدث من معاونه . وصعق الرجل من هَول الخيانة التى ارتكبها

مساعده وقفل عائدا الى مكتبه حزينا كسيفا ناقما على الرجل الذى خدعه مرتين ، مرة عندما انفرد بصرة الذهب ، ومرة عندما سلب منه المكافاة التى لا يستحقها ، فلما بلغ المكتب وحاول تعنيف معاونه الخبيث ، حذره الأخير من التطاول عليه باعتباره (زميل) ويحمل نفس الرتبة التى يحملها هو .. فقد تساوت الرؤوس (ومفيش حد احسن من حد) .. واستفاق الرجل من هول الصدمة .. واخذ يلعن نفسه لانه وضع ثقته بإنسان ليس أهلا للثقة .

حادث على النيل

كانت زيارة السلطان عبدالعزيـز ، خليفة المسلمين وامبراطور الدولة العثمانية لمصر عام ١٨٦٣ حدثا جليـلا لا تزال ذكـراه ماثـــلـة فى

الشارع الذى يحمل اسم « عبد العزيز » والممتد بين ميدان العتبة وميدان عابدين ، وظل احد اهم شرايين الحركة التجارية فى القاهرة حتى منتصف القرن الحالى . وكانت هذه اول زيارة يقوم بها سلطان عثمانى لمصر منذ افتتحها سليم الأول بقائم سيفه عام ١٥١٧ ، وتحولت مصر من يومها الى إيالة تركية يحكمها والٍ قادم من الآستانة ، بعد أن كانت دولة مستقلة ذاتَ نفوذ وسلطان يمتد شمالا إلى حلب ، وجنوبا إلى منابع النيل ، وشرقا الى اليمن والخليج .

وقد اراد الخديو اسماعيل ان يجعل من زيارة سيده الخليفة فرصة يشاهد خلالها معالم الحضارة المصرية الحديثة ، وفى طليعتها قطار السكة الحديدية الذى استقله السلطان هو وحاشيته من الاسكندرية الى القاهرة ، فانبهر به انبهارا عظيما ، إذ كانت المرة الأولى التى يرى فيها السلطان مثل هذه الاعجوبة التى تتحرك على قضبان من الحديد ، وتَختصر المسافات وتطوى الزمن ، فى عصر كانت السيادة فيه للبغال والخيول ، واخذ السلطان هو وامراء البيت العثمانى يتفقدون اجزاء القاطرة ، ويسالون عن كل صغيرة وكبيرة ويستمعون الى شرح مفصل من مهندس القاطرة وسائقها عن كيفية حركتها .. وايقافها . ثم يستمعون فى شغف الى صفارتها الحادة التى تنطلق لتنبه الناس إلى حركتها فيفسحون لها الطريق .

فلما جاء موعد تحرك القطار استقل السلطان صالونه الخاص ، بينما جلس الخديو فى مقعد مجاور ليكون تحت إذنه فى اية لحظة . وركب باقى الأمراء العثمانيين والمصريين فى عربات القطار الذى أخذ يقطع سهول الدلتا الممتدة عبر الافق . واخذ السلطان يرسل الطرف بعيدا بعيدا إلى الحقول الخضراء تتخللها القنوات والترع .. والفلاحون المصريون انصاف عرايا ، وقد انحنت اصلابهم على الطين . انهم نفس الفلاحين الذين اجتاحتهم

جيوش الاسكندر وقمبيز وقيصر ولويس التاسع وسليم الأول .. فما نالت من صلابتهم ووداعتهم وارتباطهم الوثيق بالأرض التى خرجوا منها .. لقد اندثر الطغاة ، والمتجبرون أو ذابوا فى طين مصر بمن فيهم الاتراك . وبقى المصريون يفلحون الأرض ويستخرجون السنابل وينشرون الأمن والسلام على العالم .

■ ■ ■

فلما بلغ القطار كوبرى كفر الزيات ابدى السلطان عبد العزيز هو وحاشيته إعجابهم ببنائه ، واخذوا يعظمون من شانه ، ويبالغون فى تقدير نفقاته ، ولكن اسماعيل قال للسلطان إن تكاليف بنائه لم تتجاوز سبعة ملايين فرنك ، واخذ البرنس حليم ، اصغر انجال محمد على ، يروى للضيوف قصة نجاته من الغرق قبل خمس سنوات ، حين سقطت به العربة من الكوبرى حتى غاصت فى النيل ، وكان يشاركه فيها الأمير احمد رفعت ابن اخيه البطل الشهير ابراهيم باشا ، والوريث الشرعى للعرش بعد الوالى سعيد ، ولكن رفعت لم يتمكن من الافلات من العربة بسبب بدانته المفرطة فمات غريقا . وبذلك انتقلت وراثة العرش تلقائيا إلى اكبر الأمراء سنا : اسماعيل .

ومن المؤكد أن اسماعيل لم يكن مبتهجا ، وهو يستمع إلى تفاصيل هذه المأساة التى كانت تثير الأقاويل حول دور اسماعيل فى تدبيرها كى ينفسح أمامه الطريق إلى العرش ، وقد اختلفت الروايات بشان تفسير هذا الحدث ، فمن قائل ان الكوبرى تُركَ مفتوحا سهوا فلما بلغ القطار بداية الكوبرى لم يتمكن السائق من إيقافه فانزلق بركابه حتى غاص فى قاع النيل ، ولكن إلياس الأيوبى المؤرخ المتخصص فى تاريخ عصر اسماعيل يرفض هذه القصة ، لأن كوبرى كفر الزيات لم يكن قد تم إنجازه نهائيا وقت وقوع الحادث . ويفضل الاخذ برواية بعض الكتاب الغربيين الذين ارخوا لهذا الحادث ومنهم « ماك كون » و« إدون دى ليون » وخلاصة القصة أن القطارات كانت فى ذلك الوقت تجتاز النيل عند كفر الزيات فوق معدية تنقل عرباتها ثلاثا ثلاثا .. وكانت مصلحة السكة الحديدية تترك للركاب حرية الاختيار بين النزول من العربات اثناء نقلها إتقاء للخطر ، او العبور فيها ، ولكن الأميرين : حليم ورفعت ـ وكانا فى عربة واحدة ـ ابَيَا النزول من

العربة وفضّلا البقاء فيها اثناء العبور فوق المعدية ، وبالغ العمال المكلفون بدفع العربة فى دفعها بقوة إظهارا لنشاطهم وشهامتهم وغيرتهم ..فتدحرجت العربة وانزلقت وغرقت بمن فيها . وكان الأمير رفعت بدينا فلم يستطع الوثوب من نافذة العربة الى الماء فاخرج منها ميتا مخنوقا ، واما حليم فكان خفيف الجسم فإنه وثب من النافذة إلى الماء واجتازه سباحة .

■ ■ ■

اما الشبهات التى تثور حول تامر اسماعيل ، فمنشؤها ان اسماعيل كان من المفترض ان يشارك الأميرين مركبةالموت . فقد كان الأمراء الثلاثة يقضون الليلة السابقة فى ضيافة الوالى سعيد باشا بالاسكندرية ، وكان برنامج الرحلة يقضى بان يعودوا معا للقاهرة بالقطار ، ولكن اسماعيل تخلف فجاة عن مصاحبتهما واعرب عن رغبته فى البقاء بالاسكندرية لبضعة ايام .. وكان تخلفه هذا مثيرا للشكوك والظنون . ولم يستطع اسماعيل ان يمحو هذه التهمة التى علقت به وكانت سببا فى حدوث القطيعة بينه وبين عمه حليم ، الذى خسر المعركة والهلح اسماعيل فى نفيه من مصر ، ولا شك ان هذه الشكوك شجعت اسماعيل على تغيير نظام وراثة العرش ، فاستغل وجود السلطان فى ضيافته ، وقدم اليه الرشاوى والهدايا الفاخرة حتى انتزع منه فرمانا يجعل ولاية العهد فى اكبر انجال الخديو .. فكان الحباهم واضعفهم واتعسهم : محمد توفيق .

ثائر من الأزهر

وضع الخديو اسماعيل بعض مشايخ الأزهر ضمن علية المصريين الذين يتشرفون بالمثول أمام السلطان عبدالعزيز خلال زيارته التاريخية لمصر المحروسة ، ووقع الاختيار على أربعة من اكابر العلماء لكى يستقبلهم السلطان فى قصر القلعة ولايتبادر إلى الذهن ان هذا اللقاء يعنى ان يجلس السلطان مع العلماء ويتبادل معهم الحوار فى شئون الاسلام والمسلمين ! لم يكن اللقاء يتضمن شيئا من ذلك لأن خليفة المسلمين لم يكن يعرف كلمة عربية واحدة ، وأن المقابلة لم تكن تتعدى دخول العلماء القاعة السلطانية لإلقاء التحية على السلطان ثم يعودون من حيث اتوا وهم ركوع .. !

وكانت المشكلة التى اقلقت اسماعيل هى كيفية تعليم المشايخ الأربعة أصول وقواعد المثول بين يدى خاقان البَرّين وملك البحرَيْن وخادم الحرمين الشريفين ، وكان البروتوكول التركى من التشدد بحيث يلزم الداخلين على السلطان ـ بمَن فيهم شيوخ الاسلام ـ بالانحناء وتطويح الأيدى حتى تلامسَ الأرض ثم رفعِها الى مستوى الراس .. ثم التقهقر نحو الباب وهم على هذه الحال المهينة ، وطلب الخديو من قاضى القضاة التركى أن يتكفل بتدريب الشيوخ الاربعة على هذه الحركات البهلوانية ، فافهمهم فضيلته ان المقابلة ستكون فى قاعة يقف السلطان فى صدرها على منصة مرتفعة عن الأرض قليلا ، بينها وبين باقى القاعة حاجز مفتوح من وسطه ، وانه ينبغى لهم اذا مابلغوا الباب ووقعت اعينهم على جلالته ان ينحنوا انحناء عظيما ويسلموا بكلتا اليدين حتى تمسا الأرض ، ثم يتقدم كل منهم نحو فتحة الحاجز بخطوات موزونة حتى إذا صار أمامها كرر الانحناء والتسليم ووقف ، ويرد السلطان عليه تحيته ، فيعيد حينئذ الانحناء والتسليم مرة اخرى ، ثم يرجع متقهقرا ووجهه إلى السلطان إلى ان يبلغ باب الخروج فيكرر الانحناء والتسليم ثم ينصرف مثلما دخل حتى يتوارى عن نظر السلطان .

فلما استغرب العلماء أن تقتصر المقابلة على تلك الحركات من الانحناء والتسليم قال لهم القاضى التركى إن الأمر لكذلك . فقالوا

« قد فهمنا » . فلما جاء دورهم فى المقابلات دخل ثلاثة منهم وفعل كل منهم ماعلّمه القاضى أن يفعل ، وكان الخديو واقفا خلف السلطان وعينه تراقب تحركاتهم ويحمد الله انهم ادوا أدوارهم بإتقان .

■ ■ ■

فلما جاء الدور على الشيخ العدوى دخل وانحنى عند الباب مثل السابقين . ولكنه سرعان مارفع قامته واخذ يمشى نحو السلطان بخطى وئيدة . وحذاؤه الثقيل يدك البلاط المرمرى ، ولم يعاود الانحناء او التسليم ، وفزع اسماعيل من تصرف الشيخ الذى خرق البروتوكول واخذ يبحث عمن ينقذ الموقف قبل أن يحدث مايغضب السلطان ، ولكن الشيخ العدوى مضى فى طريقه نحو الخليفة حتى وصل الى الحاجز فجاوزه .. وصعد الى المنصة التى يقف عليها السلطان ـ واسماعيل يتوارى ذعرا ـ ونظر الشيخ العدوى الى عبد العزيز بعَين ثابتة وقال « السلام عليك ياامير المؤمنين ورحمة الله » فوثب قلب الخديو من جراة الشيخ ولولا مهابة السلطان لركل الشيخ وطرده ، ولكن الخليفة ابتسم بلطف ورد على الشيخ السلام ثم انحنى امامه انحناءة خفيفة ، حينئذ انطلق لسان الشيخ من عقاله واخذ يخاطب السلطان فيما يجب عليه نحو رعاياه بصفته كبير الحكام وبصفته مسئولا عن شئون الرعية ، واكد له أن ثوابه عند الله تعالى سيكون بمقدار ثقل المسئولية وحسن ادائه لها ، كما أن عقابه عند الله على قدر إهماله الأمانة .

عندئذ امتقع لون الخديو اسماعيل ، وأخذ يلعن الساعة التى اختار فيها هذا الشيخ (المجذوب) .. ويَسب من اشار عليه باختياره .. واخذ يتوقع ان يحاسبه السلطان على تصرف الشيخ العدوى حسابا عسيرا .. ولكن المفاجاة ان ملامح الارتياح بدت على وجه عبد العزيز .. فلما فرغ الشيخ من خطبته ختمها بالسلام الذى بداها به ، ثم انحنى امام السلطان واقفل عائدا بوجهه لا بظهره كما فعل الآخرون . وسبحته فى يمينه .. فلما خرج الى البهو وجد زملاءه فى انتظاره وهم يتميزون غيظا ويلومونه على فعلته وينذرونه باوخم العواقب فقال لهم : « ولماذا أنتم منزعجون .. ! اما انا فقد قابلت امير المؤمنين ، واما انتم فكانكم

قابلتم صنما ، وكانكم عبدتم وثناً .. » .

ثم التفت السلطان إلى اسماعيل يساله : من الشيخ ؟ فبادر اسماعيل يعتذر ويقول : انه من افاضل العلماء ولكنه أبله ومجذوب !! فقال السلطان « لا .. انه ليس مجذوبا .. وإني لم انشرح لمقابلة احد انشراحي الى مقابلته .. » وامر للشيخ العدوى بخلعة سَنِية والف جنيه جائزة .

■ ■ ■

ولقد كذب اسماعيل ، وصدق عبد العزيز ، فلم يكن الشيخ العدوى مجذوبا ولا مجنونا كما أراد اسماعيل ان يصفه ، ولكنه كان عالما يعرف قدر نفسه وقدر العلم الذى يحمله بين جنبيه ، وقدر الأمانة التى تفرض عليه ان يكون شجاعا فى حضرة أمير المؤمنين .. وهذه القصة التى نقلها المؤرخ إلياس الايوبى عن السيد محمد عاشور الصدفى سبط الشيخ العدوى تؤكد صدق مانزعم .. ولعل الموقف البطولى الذى اتخذه الشيخ العدوى أثناء الثورة العرابية كان اصدق دليل على شجاعته ، لقد جرفته احداث الثورة وشارك فى كل مراحلها مناوئا للظلم والاستبداد . وبعد ضرب الاسكندرية وانحياز الخديو توفيق الى الانجليز كان العدوى احد الشيوخ الذين أصدروا فتوى اعلنوا فيها مروقَ الخديو عن الدين لخروجه على الاجماع الوطنى ، ووقوفه فى صف الأعداء .. وبعد فشل الثورة عانى الشيخ العدوى مثلما عانى كل المخلصين الشجعان السجن والضرب والاهانات .. وعرفته غرف السجون والمعتقلات ثم قدم الى المحاكمة فحكمت إحدى المحاكم بتجريده من جميع الرتب وعلامات الشرف والامتياز . فخلعها الشيخ راضيا .. وبقيت له أعلى المراتب فى نفوس الناس ، وسيظل اسم الشيخ العدوى رمزا لكرامة العلم وشجاعة العلماء فى كل عصر ومصر .

أفراح الأنجال

كان الخديو اسماعيل مصابا بداء الفخفخة وحب الظهور ، وهو داء وبيل له مفعول القمار إذا تمكن من انسان قضى عليه ودفعه الى بيع ثيابه ، وبرغم الأعمال المجيدة التى قام بها هذا العاهل المستنير ، فإن تصرفاته الخرقاء اكلت حسناته كما اكلت عرشه والقت به طريدا منبوذا فى العواصم الأوربية ، مثل أى مدمن بَدّدَ ثروته من اجل المتعة القاتلة .

كان إسماعيل يستدين من الصعاليك والمرابين الأوربيين ليقيم حفلات فاخرة يبهر بها انظار ضيوفه ، ويخدعهم بثرائه الكاذب . وكان الأجانب أعلمَ الناس بحقيقة الوضع المالى للخديو المفلس ، فكانوا ياكلون من خيره ويصبون عليه اللعنات لسفاهته وحمقه ، وكان اسماعيل مشغوفا بإقامة الحفلات الأسطورية التى جعلت من ليالى الف ليلة وليلة حقيقة لا خيالا .. وإذا كانت حفلات افتتاح قناة السويس اشهر مظاهر السَفَه الاسماعيلى .. إلا ان الحفلات التى اقامها بمناسبة « افراح الانجال » كانت أكثر بذخا وإسرافا .. واشد خطرا على المسار الاقتصادى ، فقد اقيمت فى وقت انكشفت فيه الخزانة العامة وأوشكت على الافلاس ، ولكن اسماعيل تجاهل هذه الحقيقة المؤلمة ، وتمكن منه داء حب الظهور ، فاستجاب لرغباته المجنونة واخذ ينثر الأموال ذات اليمين وذات الشمال وكانه قارون فى زمانه .

■ ■ ■

ففى منتصف يناير ١٨٧٣ قرر إسماعيل تزويج اربعة من انجاله هم : توفيق « ولى العهد » وحسين وحسن وفاطمة ، واراد ان يجعل من هذه المناسبة حدثا يتناقله الرواة وتتحدث به الركبان ، ويفوق فى ابهته ونفقاته حادث زواج الأميرة قطر الندى بنت حاكم مصر خمارويه بن احمد بن طولون ، بالخليفة العباسى فى بغداد ، فقد دامت افراح الأنجال اربعين ليلة كاملة بمعدل عشرة ايام لكل فرح ، وطوال هذه الأيام تحولت القاهرة إلى مهرجان كبير تسطع فيه الأنوار حتى اختلط الليل بالنهار ولم يعد الناس يفرقون بين الصباح والمساء .. ! وتحولت القصور الخديوية فى القبة وعابدين وقصر النيل والجزيرة وغيرها إلى مراقص صاخبة

وحانات عامرة تقدم اطايب الطعام والشراب لعشرات الألوف من المدعوين الذين جاءوا يغترفون من نهر الملذات الذى اقامه إسماعيل .. !

ولقد افاض مؤرخو عصر إسماعيل فى وصف البذخ والفخفخة والإسراف الذى حدث فى أفراح الأنجال ، ويكفى أن تقرأ وصف زفة « شوار » الأميرة امينة منذ خروجها من القصر العالى إلى قصر القبة حيث كان يقيم العريس « التعيس » محمد توفيق .. فقد سارت زفة الشوار عبر شوارع القاهرة تخفرها الفرسان بزى عربى بديع ، والاى مشاة باسره بملابس بيضاء ناصعة كالثلج ، تتقدمه جوقة موسيقية من امهر العازفين ، وكانت الهدايا موضوعة فى اسبتة مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس ، يغطيها شاش فاخر يمسك باطرافه اربعة عساكر فى كل عربة ، ويتبعهم ضباط بملابسهم الرسمية والسيوف مشهرة فى أيديهم . وكانت تلك الهدايا عبارة عن مجوهرات سَنية ، وقلائد ماس ساطعة من النوع المعروف باسم « البرلنتى » ومناطق من الذهب الخالص ، واقمشة مطرزة باللؤلؤ عديم المثل ، وزمرد فى حجم البيض ، وملابس بيضاء مطرز عليها رقم الاميرة باللآلىء والحجارة الكريمة ، وآنية متنوعة من الفضة الصب الخالصة بكميات عظيمة ، وكان بين الهدايا المقدمة من « إسماعيل » لأكبر ابنائه سرير من الفضة الصب الخالصة ، شبيه بالذى اهداه الى الامبراطورة أوجينى اثناء اقامتها بمصر ، محلى بماء الذهب الابريز ، وعواميده الفخمة مرصعة بالماس والياقوت الاحمر النادر والزمرد والفيروز .. ولم يختلف شوار الاميرات عين الحياة هانم وخديجة هانم وفاطمة هانم والهدايا المهداة إليهن ، عن شوار امينة هانم .. » إلخ .

ولم يكن احد من اهالى القاهرة الذين شاهدوا افراح الأنجال يعرف من اين اتى حاكمهم الهمام بهذه الأموال الطائلة ! ولم يكن أحد منهم يجرؤ على طرح هذا السؤال .. فقد كان إسماعيل حاكما شرقيا لا يُسأل عما يفعل .. ولكن لم تمض بضعة اعوام حتى كان إسماعيل يقف ذليلا خائرا امام أصحاب الديون الأجانب الذين وقفوا ببابه ، واخذوا بخناقه ، يطالبونه باموالهم مضافا اليها فوائد تبلغ اضعاف ما اخذ.وكانت نهاية إسماعيل المفجعة .. وهى نهاية كل مسرف متلاف .

فرعون الصغير

كان للخديو اسماعيل اخ من الرضاعة اسمه اسماعيل صديق ، لعب فى حياة الخديو وفى حياة مصر كلها دورا خطيرا اثناء الأزمة المالية الطاحنة التى اخذت بخناق البلاد ، وانتهت بضياع استقلال مصر ، وضياع مستقبل الاخوين.فالأول فقد عرشه ، والثانى فقد حياته فى ماساة مرعبة بعد ان تربع على خزائن الارض عشر سنين ، اصبح خلالها الرجل الاول فى الدولة - بعد الخديو - والمتصرف الأوحد فى شئونها المالية والادارية ، حتى خلعوا عليه لقب « الخديو الصغير » او الصدر الأعظم المصرى .

لم يكن اسماعيل صدّيق - كما يتبادر الى الذهن - من ابناء الطبقة الراقية التى كان الوزراء والحكام وقادة الجيش يُختارون منها وتضم بقايا المماليك من ترك وشركس وكرد وارناؤود فضلا عن شراذم الألبان الذين استقدمهم محمد على ، وجعل من هؤلاء واولئك أركان حكمه وانعم عليهم بالأراضى التى صادرها من اصحابها المصريين ، وانما كان اسماعيل صدّيق من ابناء الفلاحين الذين فقدوا ارضهم ، واصبحوا اجَراء يعملون بالسخرة فى الزراعة وحفر الترع وشق المصارف ، فهو - كما وصفه مؤرخ معاصر - إبن فلاح صعلوك الاصل طالما مُدّ اجداده ، بل أبوه ذاته ، تحت الكرباج ، وازرقّت أرجلهم حتى دفقت دما من تعاقب السياط عليها ..

■ ■ ■

والروايات التاريخية لا تقدم لنا تفسيرا معقولا للظروف التى مكنت لهذا الفلاح المصرى المعدم من اختراق حاجز الفقر والصعود الى عالم الجاه والسلطان،فى وقت لم يكن يسمح فيه للمصريين بالخروج على النطاق المرسوم لهم . كل مايذكره المؤرخون ان الوالدة باشا - خوشيار هانم زوجة الوالى ابراهيم باشا - شعرت بجفاف البانها بعد ولادة طفلها اسماعيل ، فساقت إليها الأقدار فلاحة مصرية لتتولى إرضاع الوليد مع ابنها الذى اطلقت عليه اسم الأمير تبركا وتقربا . فنشا الصبى فى دهاليز القصور الخديوية ، يتقلب فى اعطاف النعيم ، وينهل من ينابيع

العز ، وكان من الطبيعى ان تنشا بين الطفلين عاطفة مشتركة امتدت عبر السنين ، فما إن تولى اسماعيل عرش الديار المصرية حتى اطلق يد اخيه يتصرف فى امورها على هواه. ومن حق القارىء العزيز ان يتوقع من هذا الفلاح ان يكون رفيقا باهله وعشيرته ، رحيما بالطبقة التى ينتمى إليها اباؤه واجداده ، وفيّاً للبلد الذى خرج من طينته ، ولكن العكس هو الذى حدث ، فإذا بنا امام فرعون صغير يبطش بالفلاحين ويتفنن فى تعذيبهم ويرغمهم على هجرة الأرض التى يزرعونها لتنتقل ملكيتها إلى اخيه الخديو حينا .. وإلى ملكيته الخاصة حينا آخر .. وكان الرجل يتمتع بقدر هائل من الدهاء حتى وصفه بعضهم بانه لم يكن له مثيل بين رجال الذكاء والتفنن فى مصر ، ولكنه ـ للأسف ـ لم يستخدم قدراته للتخفيف من ويلات الشقاء التى كان يعانيها ابناء وطنه ، وانما تحول الى سوط عذاب،حتى استطاع فى خلال السنوات العشر التى تولى فيها وزارة المالية ان ينافس امراء البيت المالك فى ثرائهم وبذخهم وترفهم وسفههم ، وعندما اوشكت شمس حياته على الغروب كانت ممتلكاته قد بلغت ثلاثين الف فدان من اجود الأراضى العشورية ، وثلاثة قصور فخمة تحيط بها الحدائق الغناء فى ميدان الاسماعيلية (التحرير حاليا) عدا قصر بديع على ترعة المحمودية بالاسكندرية ، تحتوى على افخر الرياش والتحف . اما مجوهراته فقدرت بحوالى ٣٠٠ الف جنيه انجليزى باسعار ذلك الزمن ، وكان يمتلك حوالى ٣٠٠ جارية من مختلف الاصناف والأجناس ، ولكن فى لحظة من لحظات الغضب الملكى .. ضاع كل شىء ..

شيخ المنسر

لم يكن اختيار الخديو اسماعيل لأخيه اسماعيل صديـــق باشا لمنصب وزير المالية مجرد، إرضاء لعاطفة الاخوة التى جمعت بينهما فى مرحلة الرضاع ، وإنما كان الاختيار محسوبا بميزان المنفعة بين رجلين معدومى الضمير ، كان اسماعيل الخديو فى حاجة الى رجل متفنن فى السطو على الاموال وابتزازها بشتى الحيل ، ولا تثريب عليه أن يقتطع لنفسه نصيب الثعلب مادام ان نصيب الأسد مصوناً ومحفوظا . وكان اسماعيل صديق هو ذاك الرجل الذى يتمتع بمواهب جهنمية فى تدبير المال اللازم باخس الوسائل لإرواء عطش الخديو حتى يواصل سياسته البلهاء فى البذخ والسفه والظهور امام الأجانب بمظهر الفخفخة والعظمة .. ولو كانت خزانة البلاد اطهر من قلب المؤمن !

فى ذلك الوقت كانت البنوك الاوروبية قد امسكت يدها عن إمداد الخديو بالقروض بعد ان لاحت عليه تباشير الافلاس ، فلم يعد امامه إلا ان يستدير الى الداخل .. ليفتك بالمصريين ويسطو على ما فى أيديهم من مدخرات قليلة جمعوها من شقاء العمر .. ولكن هذه العملية كانت فى حاجة الى جيش كبير من زبانية السلطة ورجال الادارة ليتعقبوا الفلاحين فى عقر دارهم ويستخرجوا ما لديهم من أموال عن طريق القمع والارهاب ، وكان اسماعيل صديق يملك هذا الجيش بحكم منصبه القديم كمفتش عام على عموم القطر ، من واجبه تعيين المحافظين والمديرين والمامير واتباعهم من العمد والمشايخ .. فلما اصبح وزيرا للمالية وقعت الطامة الكبرى إذ جمع فى يده كل الخيوط التى تمكنه من تنفيذ سياسته الجهنمية ، وبدا (المفتش) ومن ورائه جهازه الادارى مثل (شيخ منسر) يحط على قرى مصر فيسلبها المال والزاد .. ولا يتركها إلا قاعا صفصفا تضج بالأنين .

● ● ●

وفى سبيل ابتزاز اموال الفلاحين تفتق ذهن المفتش عن اساليب لا تقل انحطاطا عن اساليب الحواة ولاعبى الثلاث ورقات .. من ذلك انه كان يبيع المحاصيل الزراعية للمرابين الاجانب وهى لاتزال شجيرات خضراء فى الحقول ويتعهد

بتسليمها لهم بعد جنى المحصول ، فإذا حل الموعد قامت الحكومة ببيع المحصول لتجار آخرين وقبضت الثمن .. فإذا احتج الأجانب إلى قناصلهم تولى (المفتش) تعويضهم بان يشترى منهم المحصول الذى باعه لهم (على الورق) بسعر اعلى من السعر الأول مضافا اليه فائدة ٢٠٪..! كل ذلك من اجل إرضاء نزعة الخديو المدمرة وحاجته المستمرة الى المال .. فلما ضاقت السبل أمام الخديوى للحصول على مصدر جديد للمال ، ابتكر له المفتش وسيلة غريبة تتلخص فى إجبار الفلاحين على دفع ضريبة الاطيان لمدة ست سنوات مقدما مقابل الاعفاء من نصف الضريبة إلى الأبد .. وهو ما يعرف بقانون (المقابلة) وكان الفلاحون يعرفون ان عهود الحكومة حبر على ورق وانها مجرد حيلة لإرغامهم على تقديم الاموال الى الخديو الجشع .. ومن يمتنع يتكفل الزبانية بتاديبه حتى يتعلم ان العين لا تعلو على الحاجب .. وان الماء لا يجرى فى العالى .. وان مشيئة الملوك لا ترد ..

● ● ●

والجرائم التى ارتكبها (المفتش) اكثر من ان تحصى ، ولكن اعظمها من وجهة نظر الوطنيين المصريين هى ايعازه إلى أخيه الخديو ببيع نصيب مصر فى اسهم شركة قناة السويس . وكان هذا النصيب يقارب النصف ، مقابل مبلغ يقل عن أربعة ملايين جنيه ، وهو الذى فاوّض القنصل البريطانى فى الصفقة ، وهو الذى وضع خاتمه على الأسهم قبل أن يتسلمها القنصل ويودعها قاع سفينة كانت فى طريقها الى انجلترا ، وكانت تلك بداية الطريق المشئوم الذى انتهى بضياع استقلال مصر المالى وخضوعها للإشراف المباشر من جانب الحكومة البريطانية ، وكانت صفقة الأسهم اخر سهم فى جعبة الوزير المحتال ، ولكنها كانت آخر مسمار فى نعشه ، فما إن وصل الخبراء الانجليز الى القاهرة لإصلاح مالية مصر ، حتى كان أول مطالبهم اقصاء المفتش عن منصبه الخطير . وتحيّر الخديو اسماعيل ووجد نفسه امام خيارين أحلاهما مُرّ .. ولكن كان عليه ان يضحىَ باخيه كى ينجو بنفسه .

سقوط فرعون

كانت مصر بكل طبقاتها - فقراء واثرياء وامراء - تغلى بالنقمة على اسماعيل صديق باشا (المفتش) ويتحينون الفرصة للفتك بهذا الجبار الذى يتحكم فى مصائر البلاد والعباد ، ويختلس من الاموال ما ينوء بالعصبة اولى القوة .

كان مثل هامان فى طغيانه وسطوته واستهتاره .. وكان اشبه بقارون فى جشعه وطمعه وزهوه .. وكما سقط هامان وقارون وفرعون ، كان لابد أن يسقط المفتش ويَلقَى نفس المصير الذى لاقاه الطغاة والجبابرة ، فلا نفعتهم اموالهم ، ولا هم افادتهم عزتهم ، وإنما مضوا غير ماسوف عليهم ، لم يخلفوا وراءهم إلا أسوأ الذكريات .

ومع أن النصيب الأكبر من اذى المفتش وقع على عاتق الفلاحين المصريين إلا انهم بحكم ضعفهم التاريخى كانوا اقل قدرة على زحزحة الرجل عن موقعه العتيد ، وتكفلت جبهة الأمراء العلويين بالقيام بهذه المهمة العويصة لأسباب لا تمت بصلة الى المظالم التى عاناها المصريون ، وإنما لاستئثاره دونهم بالأسلاب والمغانم ، وجراته على منافسته لهم - وهو الفلاح الجلف - فى حياة البذخ والنعيم ، وتَفَوّقه عليهم فى بناء القصور واقتناء الجوارى والمحظيات ، وكان اكثر الامراء حقدا عليه أبناء الخديو الثلاثة : توفيق وحسين وحسن . الذين ساءهم قرب الرجل من ابيهم وحظوته عنده ، ودلاله عليه ، غافلين عن رسالته العظمى فى النصب والاحتيال والسطو والابتزاز لتوفير المال لأبيهم ، كانوا ينظرون الى قضية المفتش من زاوية ضيقة جدا ، هدفها إقصاء الغرباء عن وَلىّ النِعَم ، أما الخديو فكان يهمل هذه الدسائس الصغيرة ولا يقيم لها اعتبارا .

● ● ●

أما الخطر الأكبر على مصير المفتش ، فقد جاءه من جانب الانجليز الذين بات من حقهم الهيمنة على مالية مصر بمقتضى مرسوم اصدره الخديو اسماعيل لحماية مصالح الدائنين الاجانب ، واعلنت الرقابة الثنائية من انجلترا وفرنسا ، فتولى الرقيب الانجليزى الاشراف على ايرادات الدولة ، وتولى الرقيب

الفرنسى الإشراف على مصروفاتها .. وكان الرقيب الانجليزى « جوشن » يضمر عداء شخصيا للمفتش لاسباب قديمة .. فما إن بدا يقلب فى الدفاتر حتى اكتشف انه ليست هناك ميزانية حقيقية !! وإنما المسالة لا تعدو ان تكون « ضيعة » خاصة يتحكم فيها الخديو واخوه .. وأن الأخوين « اسماعيل » ليسا اكثر من لصين يقتسمان الاسلاب ، ولذلك راى ان يبدا بإزاحة اصغر اللصين . ولم يكن من اليسير على الخديو ان يستجيب لهذا المطلب ، لأنه يعرف جيدا انه شريك اصيل فى كل ما ارتكبه المفتش من جرائم وكوارث ، وإذا كان الانجليز يتغدون بالمفتش عند الظهر ، فسوف يتعشون بالخديو فى المساء .. فامتنع عن طرده ، عندئذ هدد الانجليز بتقديم المفتش الى المحاكمة بتهمة اختلاس ٤٠ مليون جنيه وجدوها فى الدفاتر .. وهنا فقط اقتنع بجدوى اختفاء المفتش من الحياة كلها وليس من الوزارة فحسب . كان يعلم ان اخاه لن يتورع عن كشف كل الاوراق وفضح المستور .. وإظهار حقيقة الخديو الذى تسبب فى تخريب بلده ووضعه فى هاوية الافلاس .

ونسى الخديو كل ما فعله اخوه من اجله .. ولم يفكر إلا فى النجاة بنفسه . ولمعت فى ذهنه على الفور فكرة التخلص من الرجل الذى افنى حياته فى جمع المال الحرام وبنى مجده على اشلاء البؤساء والمعذبين ، ولم يغادر الحياة إلا وقد هوى مجده .. كانه قبض الريح .

ذو الأصابع الفولاذية

كان الخديو اسماعيل قد اتخذ قراره النهائي بالتخلص من اخيه في الرضاع اسماعيل صديق باشا (المفتش) قبل أن يفلت لسانه ويفضح المخازى التى ارتكبها الاثنان وتسببت فى خراب خزانة مصر . وتم ترتيب وسيلة الاعدام على النحو الذى كان متبعا فى ذلك العصر .. ففى صباح اليوم الموعود استدعى الخديو اخاه المفتش الى قصر عابدين ليصحبه في نزهة خلوية على ضفاف النيل ، وركب الاثنان العربة الخديوية المكشوفة على مرأى من الجميع وهما يتضاحكان .. وقد اعتبر المفتش هذا الرضاء السامى اكبر دليل على كذب الشائعات التى ترددت عن قرب نهايته . وعبَرت المركبة كوبرى قصر النيل فى اتجاه قصر الجزيرة (فندق ماريوت حاليا) فلما توقفت أمام بوابة القصر تقدم الحرس فالقوا القبض على المفتش وساقوه الى الداخل وهو يصيح مستغيثا باخيه الذى عاد وحدَه إلى قصر عابدين .

واستدعى الخديو المجلس المخصوص (أشبَه بمجلس الوزراء) واستصدر منه قرارا بإبعاد المفتش الى دنقله بالسودان .

وحمل مصطفى باشا فهمى محافظ القاهرة (والد السيدة صفية زغلول) القرار ومضى الى قصر الجزيرة لإبلاغه الى المفتش وإقناعه بالتزام الهدوء والصمت . ولكن المفتش الذى ترَبّى فى احضان الدسائس والمؤامرات كان يعلم جيدا ان قرار اعدامه على وشك التنفيذ . وعبثا حاول اقناع المحافظ بخطر التخلص منه باعتباره حاملا لرتبة « المشير » العثمانية التى تَحُول دون محاكمة حاملها إلا فى الآستانة . ولكن متى كان الباب العالى يأبَه لمثل هذه المؤامرات التى تجرى كل يوم فى القصور الملكية . وبعد قليل صعد المفتش بصحبة المحافظ الى سفينة نيلية كانت فى انتظارهما، والقى الحرس بالمفتش فى إحدى غرف السفينة التى اقلعت باتجاه الجنوب ، بينما بقى المحافظ على ظهر السفينة فى انتظار تنفيذ عملية الاعدام بواسطة اسحق بك ، وكان رجلا تركيا متخصصا فى الإجهاز على ضحاياه بطريقة فظيعة .. فقد كان يملك قبضتين فولاذيتين فيهجم باليسرى على فم الضحية

ليكتم انفاسه بينما يقبض باليمنى على الخصيتين فيعتصرهما اعتصارا حتى يلفظ انفاسه .

■ ■ ■

وما إن عبرت السفينة مقياس الروضة حتى تقدم اسحق بك لتنفيذ مهمته . فدخل على المفتش وهو قابع في ركن الغرفة كالفار المذعور .. فقام بمهمته خير قيام . ولم يستغرق الامر اكثر من خمس دقائق ظن بعدها اسحق بك ان المفتش قد اسلم الروح ، فمَدّ يده لانتزاع الخاتم الذهبى الذى يضعه المفتش فى سلسلة ذهبية تحيط بعنقه .

ولم يعلم ان فى جسد الرجل بقية من حياة انتهزها للانتقام من قاتله،ففتح فمه كسمك القرش وقضم اصبع إبهام اسحق بك حتى قطعه تماما .. وكانت تلك آخر انتفاضة فى جسد المفتش .. سكن بعدها الى الأبد .. وعندها تقدم بعض الحرس ووضعوا جثته فى جوال غليظ ومعه احجار ثقيلة ثم القوا به فى النيل حتى استقر فى القاع .. عندئذ توقفت السفينة امام ساحل المعادى ونزل المحافظ مصطفى باشا فهمى حيث كانت فى انتظاره عربة خديوية حملته الى قصر عابدين ليحمل الى مولاه خبر نهاية المفتش .. بينما واصلت السفينة طريقها الى السودان . وهى ترسل الى القاهرة كل حين برقيات مكذوبة تنشرها الصحف عن حالة المفتش الذى لا يكف عن البكاء وطلَبِ الصَفح .. وشُربِ الخمر .

وبعد اسبوع من وصولها إلى دنقلة تطوّع طبيب انجليزى أفّاق بكتابة تقرير يزعم فيه أن المفتش قد مات متاثرا من انفجار الزائدة الدودية ، وانه سمح بدفنه بعد ان وقع الكشف الطبى عليه .. ولم تخجل الصحف من نشر هذا الخبر المكذوب ، وكان الناس يقراون الصحف ويبتسمون .. وكان الناس فى ذلك العهد نادرا ما يبتسمون .

نوبار باشا

ربما لا يعلم كثيرون من المصريين أن أول رئيس للوزراء في تاريخ مصر المعاصر كان رجلا ارمنيا مسيحيا هو نوبار باشا الذى لايزال اسمه قائما على احد الشوارع الرئيسية بوسط القاهرة وعلى إحدى الترع الكبيرة بمحافظة البحيرة . وكان نوبار احد ثلاثة « رجال دولة » برزوا فى عصر الخديو اسماعيل ، وكان لهم دور مؤثر فى مجرى الأحداث طوال النصف الثانى من القرن الماضى ، والآخران هما : شريف باشا « أبو الدستور » ورياض باشا « نصير الاستبداد » . وسوف اتحدث عن الثلاثة بدءا بنوبار لأنه كان أسبقهم ظهورا على مسرح السياسة والحكم ، واكثرهم إثارة للدهشة والتساؤل : إذ كيف تَسَنى لمثله ان يكون اول رئيس للوزراء رغم الفروق الدينية والجنسية ، وفى وقت كان الاعتبار الدينى يوضع فى المقام الأول . ولكن الدهشة تزول إذا عرفنا انه من مواليد « ازمير » بتركيا .. أى انه كان عثمانى الجنسية،الأمر الذى فتح أمامه الباب للدخول فى نسيج الحياة المصرية والصعود الى القمة من خلال نظام لا يعترف للعناصر الوطنية المصرية بحق المشاركة فى شئون الحكم أو تولى المناصب القيادية فى الدولة .

● ● ●

كان محمد على - برغم الخدمات الجليلة التى اداها لمصر - تركى النزعة ، وينطوى على ازدراء لكل مايمت الى المصرية الصميمة بصلة ، وورث عن قومه كرهَ اللغة العربية - لغة الفلاحين - فحكم مصر ولم يكلف خاطره تعَلم العربية أو جعلها لغة الدواوين أو تعليمها أحدا من ابنائه ، وعاش ومات وهو يتكلم بالتركية . وحاكم هذا وصفه كان من الطبيعى أن يغض النظر عن العناصر المصرية ويحتضن العناصر التركية حتى لو كانت غير تركية أصلا ، ويكفى أن تتكلم التركية وتنتمى ولو شكلا الى الدولة العلية ، وكان (بوغوص بك) أحد هذه العناصر التى استفادت من التقاليد التى وضعها محمد على لشغل مناصب الدولة المصرية ، فهو من الأرمن الذين يكرهون العثمانيين كراهة

التحريم ، ولكن إتقانه للغة التركية فتح امامه السبيل للترقى فى مناصب الدولة حتى اصبح الوزير المقرب من ولى النعم .

وكان نوبار - ابن اخت بوغوص بك - قد تخطى مرحلة الصبا فى أزمير وذهب الى فرنسا ليستكمل تعليمه ، واعتزم الانخراط فى الجيش الفرنسى ، ولكن خاله نصحه بالمجىء الى مصر ليجرب حظه فيها بشرط ان يتعلم التركية . فاستجاب لنصيحة خاله ثم جاء الى مصر فالحقه بقلم الترجمة ، وما هى إلا عشية وضحاها حتى كان ضمن حاشية محمد على الذى عينه سكرتيرا خاصا لابنه ابراهيم فلازمه فى كل جولاته ، واكتسب ثقته وثقة بقية الحكام من اسرة محمد على ، الذين عمل فى خدمتهم الى ان مات عام ١٨٩٩ فى عهد عباس حلمى الثانى .

● ● ●

والمؤرخون الذين تحدثوا عن نوبار يقولون إنه كان يتمتع بصفات مميزة ، اهمها الجدية والجَلَد والكبرياء والأنَفة والعزوف عن اللهو والمجون ، والامتناع عن نفاق الحكام وإرضاء نزعاتهم بالغش والخداع .

هذه صفات يصعب على صاحبها ان يحافظ على موقعه فى ظل حكام شرقيين يتصفون بالمزاجية والتقلب والبطش باقرب معاونيهم ، فكيف استطاع نوبار ان يحافظ على وجوده فى موقع الصدارة دون أن يفقد راسه ؟

البعض يفسر ذلك بان نوبار كان يعرف اتجاهات الريح ، فلما ادرك ان شمس اسماعيل توشك على الغروب ، وان خيوط الحكم سوف تنتقل حتما الى ايدى الانجليز ، تخلى عن سيده ولجا الى لندن يحرض الحكومة البريطانية على تاديب اسماعيل وتقييد سلطاته المطلقة عن طريق وزارة مسئولة متحررة من سيطرة الخديو وكانت وجهة نظر نوبار انه لا امل فى إصلاح الخراب الذى تسبب فيه اسماعيل إلا بالحجر عليه وتقييد حكمه المطلق . وتلاقت افكار نوبار مع رغبات انجلترا التى كانت تعمل على توطيد وجودها فى مصر عن طريق المشاركة فى الحكم وبسط نفوذها على الشئون المالية .

● ● ●

ولم يكن نوبار يمانع فى مشاركة الانجليز فى الوزارة المصرية

المقترحة ، بل كان يؤيدها .ويبرر ذلك بان المشاركة هى السبيل الوحيد لضمان استقلال مصر .. ومن الطبيعى أن يستفز هذا التبرير المشاعر الوطنية ، ولكن نوبار كان يعيش العصر الذى لا يعترف بحق المصريين ويرى انهم غير اكفاء فى تحَمل المسئولية أو - على ابسط الفروض غير قادرين على مواجهة الحكم المطلق الذى يمثله اسماعيل . فكان عليه ان يؤدب اسماعيل بالعصا الانجليزية . وخضع الخديو لأوامر الانجليز واصدر أول « دكريتو » بتشكيل الوزارة المصرية برئاسة نوبار باشا وتضم خمسة وزراء . منهم وزير انجليزى للمالية ويراقب الايرادات ووزير فرنسى للأشغال ويراقب المصروفات .. وبعد عشرة شهور فقط كان الخديو يغادر مصر طريدا منفيا .. وبقىَ نوبار ليواصل المشوار الذى اختطه لنفسه منذ كان صبيا يلعب فى حوارى أزمير ..

نيللى .. وتوابعها

لا يكتمل الحديث عن نوبار باشا دون الحديث عن الأرمن ، وخاصة الجالية الأرمنية التى استوطنت مصر ، واصبح لها وجود بارز فى بعض نواحى الحياة المصرية الحديثة .

والأرمن شعب عريق ، كان لهم فى التاريخ القديم دولة كبرى تسمى مملكة آسيا الصغرى ، تنسب الاساطير تاسيسها الى (حايك) من سلالة نوح . ولكن دولة الأرمن لم تستمر طويلا بسبب الحروب والهجمات التى طوقتها من كل جانب ، واذا كانت بعض الدول قد تفسخت وذهبت ضحية موقعها ، ووقوعها فى بؤرة الصراع بين القوى العظمى ـ فإن دولة الأرمن كانت من هذه الدول التى ادركتها لعنة الموقع ، فتناوبت عليها جيوش الاشوريين والميديين والفرس واليونان والرومان ، وجعلوا منها ساحة للصدام ، حتى إذا بلغ الأتراك العثمانيون اوج قوتهم اجهزوا عليها وضموها الى امبراطوريتهم ، وبعد الثورة البلشفية وضع الروس ايديهم على ماتبقى من بلاد الارمن وجعلوا منها إحدى الجمهوريات السوفيتية التى لا تزال تحمل إسم « ارمينيا » .

وكان من الطبيعى ان تؤدى هذه الكوارث الى هجرة الارمن من ديارهم ليبدأوا عصر الشتات والانتشار فى العالم . ولكنهم ظلوا دائما محافظين على قوميتهم ولغتهم وديانتهم ومذهبهم ، يحملون معهم اينما ذهبوا ذكريات العز القديم ، والتطلع الى اليوم الذى يستعيدون فيه مجدهم الغابر . فهم يعيشون فى المجتمعات الجديدة حياة (الغربة) بكل ماتعنيه من لوعة القلق والخوف من المجهول .. يختلطون ولكن لا يمتزجون .. ويعملون بجد ونشاط دون الدخول فى نسيج الحياة الجديدة أو التورط فى تعقيداتها الاجتماعية والسياسية .

● ● ●

وكانت مصر إحدى الدول التى اجتذبت الارمن منذ أواخر القرن الماضى .. ولكن افواجهم زادت بعد المذبحة الرهيبةالتى شنها الاتراك ضدهم عام ١٩١٥ وراح ضحيتها مليون ونصف المليون ارمنى (وهذا يفسر لك سر العمليات الانتقامية التى تقوم بها منظمات ارمنية ضد السفارات التركية) وشق الارمن طريقهم فى

المجتمع المصرى فى وقت ارتفع فيه شعار « مصر للمصريين » بعد ثورة ١٩١٩ ، ولذلك حرص الأرمن على عدم مزاحمة المصريين فى الوظائف الحكومية أو تملك الأرض الزراعية ، واتجهوا الى الأعمال الحرة التى تعتمد على القدارت الخاصة والمواهب المتميزة كالموسيقى والرسم والتصوير فاتقنوا صناعة الآلات الموسيقية وتكوين فرق الجاز وكتابة النوت . وكلنا يذكر « أندريه رايدر » الذى تخصص فى توزيع الموسيقى لكبار الملحنين كعبد الوهاب ، وفى مجال الرسم كان لهم باع طويل فى تطوير فن الكاريكاتير ، ومن يطالع صحف الثلاثينات سيجد رواد هذا الفن من الأرمن وأبرزهم « صاروخان » الذى يحمل اسم مدينة ارمنية شهيرة .

وعلى اكتاف الارمن نهضت بعض الصناعات المحلية ، ليس اهمها البسطرمة والسجق كما يحلو للبعض ان يتندر ، ولاننسى صناعة الزيوت والسجائر والدخان التى انشاها ماتوسيان وكوتاريللى وكاسيمس ، وفى وقت ما كان اشهر الترزية ومصممى الأزياء ومصففى الشعر من الأرمن ، وكذلك محلات بيع الأدوات الكهربائية مثل نرسيس تشاكجيان الذى يقع فى ميدان العتبة .

● ● ●

وتتركز الجالية الأرمنية فى حى الظاهر بالقاهرة ولهم نواديهم الرياضية النشطة ولهم كنيستهم الخاصة على المذهب الأرثوذكسى ، ولهم مدارسهم التى تعنى بتعليم ابنائهم لغتهم ، وهى لغة عريقة من فصيلة اللغات الهندو أوروبية ، ولا يتحدث بها غيرهم ، فهى عامل من عوامل الحفاظ على الشخصية القومية وحمايتها من الذوبان رغم توالى العصور وتنائى الديار .

ولكن هذا الاستقلال الباطنى لم يمنعهم من التغلغل فى المجتمع المصرى ، والتاثر بالروح المصرية والتعبير عنها بالرسم والموسيقى والأغنية والتمثيل ، خصوصا عند الأجيال الحديثة التى ولدت فى مصر وتشربت روحها واكتسبت عاداتها وتقاليدها .. ولعل أوضح مثال لذلك مجموعة الفنانات : نيللى وتوابعها (اختها الكبرى فيروز وبنات خالاتها لبلبة وميمى جمال) وكل منهن برعت فى التعبير عن الروح المصرية بدرجة يصعب معها اكتشاف الحاجز الرقيق بين القومية المستكنة فى الأعماق ،

والروح المصرية المكتسبة ، وهذا الكلام ينطبق بالطبع على السلالات الأرمنية الجديدة التى امتصت الواقع المصرى وتطبعت به .

وإذا كان نوبار باشا ـ راس الشجرة الارمنية فى مصر ـ قد عاش طيلة حياته فى مصر غريبا عن روحها ، يجهل لغتها ويانف من الاختلاط باهلها ـ فإن الأجيال الارمنية الجديدة اندمجت فى الحياة المصرية عن طريق الزواج والتعليم والمعايشة اليومية ، وباتت جزءا من المجتمع المصرى الذى توافدت عليه عناصر متنوعة من شتى الأجناس على مختلف العصور ، فلم يلفظها مادامت قد امتزجت به ، وإنما يهضمها ، ثم يعيد تشكيلها على نسق فريد .. وذلك أحد أسرار الروح المصرية الأصيلة .

ميرابو .. مصر

اشتهر « ميرابو » في تاريخ الثورة الفرنسية بصيحته الجريئة التى القى بها فى وجه جنود الملك حين اقتحموا مجلس طبقات الأمة لطرد النواب دون أن يناقشوا القضايا المصيرية التى كانت بين ايديهم . عندئذ صاح ميرابو : إننا هنا بإرادة الشعب .. ولن نخرج إلا على اسنة الرماح .. !! واصبحت هذه العبارة من مفجرات الثورة .. فبعدها تعاقبت الأحداث الدرامية التى شهدتها فرنسا خلال ثورتها الكبرى .

● ● ●

وبعد ٩٠ عاما من هذه الواقعة ، كان فى القاهرة نائب شجاع قال نفس العبارة فى موقف مشابه تماما .. كانت البداية التى توالت بعدها فصول الثورة العرابية . اما النائب - واسمه عبد السلام المويلحى - فقد كان يمثل طليعة المعارضة الوطنية التى برزت في مجلس شورى النواب الذى انشاه الخديو اسماعيل عام ١٨٦٦ ضمن خطته الرامية الى إشراك المصريين فى المسئولية ، وكانت الحكومة المصرية برئاسة نوبار باشا ، وتضم وزيرين احدهما انجليزى والآخر فرنسى ، تعد العدة لاعلان إفلاس مصر كحل اخير لأزمة الديون الأجنبية ، وعلمت العناصر الوطنية فى مجلس النواب بما تدبره الحكومة فى الخفاء فاعدوا مشروعا مضادا ، يلتزم بمقتضاه المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومى ، بشرط تنظيم الشئون المالية ، وإصلاح مفاسد الادارة بعيدا عن تدخل الوزيرين الأجنبيين ، وشعرت الحكومة بما تعده المعارضة الوطنية فبيتت النية على إجهاض المشروع ، واستصدرت مرسوما خديويا بفض المجلس قبل موعده .

وفى صباح الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩ توجه رياض باشا ، وهو منتفخ الصدر ، الى قاعة مجلس النواب بالقلعة ، وماكاد يفرغ من تلاوة قرار فض الدورة ، حتى انبرى له النائب الجرىء عبد السلام المويلحى قائلا : كيف ينفض المجلس وهو لم ينظر بعد فى القانون الخاص بالشئون المالية .. ؟ ! إن الأهالى قد انابوا عن انفسهم نوابا للمحاماة عن حقوقهم .. فمن الواجب ان يعرض جميع ما يتعلق بالأهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه .. ومن

المستحيل ان ينفض المجلس .. وبهت رياض باشا لهذه اللهجة التي لم يتعود سماعها من مصري ينتمي أبوه الي طائفة التجار .. فقال متسائلا : ماذا تقول حظرتكم .. ؟ مستحيل فض المجلس .. ؟ كيف يكون فض المجلس مستحيلا بعد امر خديوينا المعظم .. هل حظرتكم فاهم قيمة مسئولية ماتقوله ؟

واتجه رياض باشا الى بقية الاعضاء لتخويفهم حى لا ينضموا الى هذا النائب الجرىء وقال : ماظن حظرات اخوانك يوافقون علي ماتقول ..

● ● ●

وكانت المفاجاة الثانية عندما اندفع الاعضاء الوطنيون لشد ازر زميلهم واعلنوا تضامنهم معه في كل مايقول .. وهمّ رياض باشا بالقيام ايذانا بانهاء الجلسة .. وعندئذ صاح عبد السلام المويلحي قائلا : اننا هنا سلطة الأمة .. ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب .. !!

عندئذ وجم رياض باشا لدي سماعه هذه العبارة التاريخية التي اعادت الى ذهنه احداث الثورة الفرنسية فعاد الى مقعده صائحا : يعني حظرتكم تقلدون نواب فرنسا الذين ثاروا على حكومتهم .. ؟ يعني حظراتكم الآن بعمائمكم وجببكم مثل نواب اوربا وامريكا .. ؟

ورد النواب الاهانة بعشرة امثالها .. وصاح احمد العويسي : ياباشا انت الآن تشتم نواب امتك التي تعطيك انت وغيرك مرتباتكم الشهرية ، وقال عبد الشهيد بطرس : إن كلامك هذا وقاحة .. والمجلس لا يقبل هذه الوقاحة من ناظر الداخلية بل يردها عليه . وقال احمد الصوفاني : اوافق العضو على رد الاهانة للناظر حتى يعلم ان في البلاد أمة حية ولها نواب يدافعون عن كرامتها . وهنا قال عبد السلام المويلحي : اسمعت ياباشا .. ؟ ارايت عاقبة تسرعك في الكلام ؟ اعلم ان المسالة ليست مسالة زى وثياب . بل مسالة نواب لهم عقول تفهم جيدا رغبات الأمة التي انابتهم عنها اليس من العيب وانت وزير في وزارة يزاملك فيها وزير انجليزى وآخر فرنسوى ، وهما في الحقيقة خفيران عليكم وعلى الحكومة ، ثم تجمع امس ـ امام الوزيرين الاجنبيين ـ اصحاب الجرائد وتقول لهم : إن الحكومة عزمت على فض مجلس

شورى النواب غدا ، فالحذر كل الحذر من أن تنشروا كلمة واحدة عن هؤلاء النواب فى جرائدكم لانهم ناس جهلاء وهمج .. تقول ذلك عن نواب بلادك ، مصر العزيزة ، ونحن جميعا درسنا فى الأزهر الشريف ،

فقال الشيخ حسن عبد الرازق : إن ماقاله المويلحى يعبر عن افكارنا جميعا .. فصاح النواب : موافقون .. موافقون .. فلم يملك رياض باشا إلا ان يغادر قاعة المجلس وهو يهذى : إذن انا منسحب .. أنتم عصاة .. انتم ثوار .. فقال المويلحى موجها كلامه إلى كاتب الجلسة : لا تحذف حرفا واحدا مما قيل فى جلسة اليوم ، حتى إذا نقلته الجرائد غدا ، علمت الأمة جيمعا من هم الهمج : النظار .. ام النواب .. !!

واستجاب النواب لطلب المويلحى باعتبار المجلس فى حالة انعقاد دائم .. وتناوب الأعضاء على المبيت فى القاعة .. حتى اهتزت أركان الحكومة فاستقالت .. ثم توالت الأحداث التى افضت الى الثورة .

مجزرة همجية

في الساعة السابعة من صبيحة الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ أعطى الأميرال سيمور إشارة الضرب ، فانهالت قذائف الأسطول البريطاني على مدينة الاسكندرية كانت القنابل تنطلق بدقة وإحكام ، فتصيب أهدافها اصابات مباشرة ، أما مدافع الحصون والطوابي المصرية فكانت ضعيفة خائرة متراخية ، فتسقط قنابلها في مياه البحر دون ان تصل إلى البوارج الانجليزية ، واستمر إطلاق الحمم حتى قبيل غروب الشمس ، وهي فترة كانت كافية لتدمير المدينة ، وتحويل احيائها الآهلة إلى اطلال تتراكم فيها الجثث وتنعق البوم بعد ان فر سكانها وهاموا على وجوههم نحو الريف بحثا عن ماوى يقيهم نار الجحيم .

كانت مجزرة بشرية رهيبة ارتكبتها بريطانيا العظمى عقابا للشعب المصرى لأنه رفض الاستسلام للنفوذ الأوربى الذى تغلغل في انحاء الديار المصرية ، وبات يشكل خطرا على روحها وشخصيتها واخلاقها واستقلالها الوطني ، كان حكام مصر من سلالة محمد على قد فتحوا ابواب البلاد على مصاريعها امام الأجانب ومنحوهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمنأى عن المساءلة إذا ارتكبوا احط الجرائم ، ولم يكن هؤلاء الأجانب في مستوى الطبيب الشهير كلوت بك ، أو القائد العسكرى الكولونيل سيف ، وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكدسين في الموانيء الأوربية من الأفاقين والمرابين وتجار الأعراض ، فلما تسامعوا عن الخير الوفير في مصر المحروسة شدوا اليها الرحال طمعا في الثراء الرخيص ، وامتهنوا احقر المهن وانتشروا في خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة ، فلما كثرت النقود في أيديهم وظفوها في الربا ، واستطاعوا تملك الأراضي الشاسعة والعقارات الثمينة ، واستغلوا الامتيازات الممنوحة لهم في إذلال المصريين في عقر دارهم ، وكانت المحاكم القنصلية الأجنبية هي المختصة بنظر جميع انواع المنازعات الخاصة بالأطيان ، ومنها الرهن ونزع الملكية . ولك ان تعجب اشد العجب إذا عرفت أن هذه المنازعات كان يطبق عليها ١٧ قانونا اجنبيا تطبقها ١٧ قنصلية ، ويقف وراءها وكلاء شداد غلاظ القلوب ماتت ضمائرهم

بفعل الطمع والجشع ، فكان على المصرى المسكين إذا خسر دعواه ضد الأجنبى أن يستانفها أمام محاكم البلد التابع له هذا الخصم ، وإذا صدر على الأجنبى حكم بإخلاء أرض او عقار لأحد المواطنين ـ كان الأجنبى يحتال على ذلك الحكم بالتنازل عن هذه الأرض لأجنبى آخر ، ويصبح على المصرى أن يقيم دعوى جديدة على الخصم الجديد .. وإزاء هذه الدورة الجهنمية كان المصرى يضطر إلى ترك حقه .. وبهذه الطريقة الخسيسة انتقلت الملكيات إلى الأجانب .. واصبح المصريون كالأيتام على موائد اللئام .

■ ■ ■

فلما افاق المصريون على هذا الخطر الداهم ، وقامت الحركة العرابية للحد من سطوة النفوذ الأجنبى ، انتفضت بريطانيا لتجهض الثورة بقوة السلاح ، واوفدت اسطولها لتاديب المصريين حتى لا تقوم لهم قائمة ولا تراود خيالهم فكرة التحرر ، وجاء سيمور ليصبها حمما على رؤوس اهل الاسكندرية فى ذاك اليوم المشئوم . ولقد وصف المسيو جون نينيه ـ عميد الجالية السويسرية وصديق المصريين ـ المجزرة بهذه الكلمات : « كانت البوارج الانجليزية تتقدم للضرب مثنى مثنى ، فى بطء ، ثم تصطف فى هوادة تجاه كل طابية مصرية ، وتصب عليها قنابلها حتى تدكها دكا ، وعندئذ تقترب منها تدريجيا وتنسف البطاريات والمدافع التى تكون قد انقلبت عن موضعها تحت تاثير قنابل الأسطول ، ثم تنثنى على الرماة المصريين فتحصدهم حصدا بقذائف المتراليوزات المركبة على ساريات البوارج . ويجب أن نعترف بان هذه مجزرة همجية لم يكن لها اى مسوغ ، وليس الباعث عليها سوى الشهوة الوحشية المتعطشة إلى القتل وسفك الدماء ، ولقد كان بودى ان اسائل اولئك الضباط الذين كانوا يباشرون الضرب ويقذفون قنابل المتراليوزات : هل يستطيعون حينما يعودون إلى بلادهم ويجلسون حول موائد الشاى فى بيوتهم ان يتحدثوا إلى ذويهم عن آثار القتل والتدمير ، التى خلفتها تلك المجازر البشرية ؟ إننى اشك فى ذلك ، فليت شعرى اى إهانة لحقت بالأمة البريطانية من جراء هذا الجرم الفظيع .. » .

■ ■ ■

وإذا كانت المجزرة قد حركت ضمير هذا السويسرى الشريف ،

فإنها لم تحرك ضمير العالم الأوربى الذى كان يتشدق بالحرية ، ويرطن بشعارات الإخاء والمساواة . فقد وقفت كل الدول الأوربية تتفرج على المشهد وكأنها تتلهى برؤية إحدى حلبات المصارعة بين الأسود والعبيد فى العصر الرومانى ، حتى فرنسا الحرة تخلت عن شعاراتها ، ولم تجرؤ على أن تقول لغريمتها المتعجرفة « عيب » . وهرب الأسطول الفرنسى الذى كان يرابط فى مياه الاسكندرية قبيل الضرب ، هرب إلى بورسعيد بعد أن كشر له سيمور عن أنيابه ، وخابت آمال المصريين فى فرنسا نصيرة الحرية والعدالة . بل حدث ما هو أدهى وأمرّ .. فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية مجزرة الاسكندرية وماتبعها من احتلال عسكرى ، عملا من أعمال البطولة تستحق عليه بريطانيا التهنئة الحارة ، وكان جواب حكومة لندن على التهنئة : « إن انتصارنا هو انتصار أوروبى ، ولو انهزم الجيش الانجليزى لكان ذلك كارثة على كل الدول التى تحسب حسابا للتعصب الاسلامى » .

التعصب الاسلامى .. !!

أنعم النظر فى هذه العبارة الغريبة حتى يتملكك الغيظ .. !

بريطانيا العظمى تحرك فى نفس شريكاتها النعرة الصليبية المقيتة ، وترى فى دفاع أمة صغيرة عن حريتها واستقلالها وكرامتها مظهرا للتعصب الدينى .. !! أما امتصاص دماء المصريين ونهب ثرواتهم ، وإذلال كرامتهم ، فهو عين التسامح الدينى الذى تريده الدول العظمى !

منطق غريب جدا .. ولكنه منطق الذئاب الضارية مع الحمل الوديع فى كل عصر .

حرق الاسكندرية

كانت الاستحكامات العسكرية في مدينة الاسكندرية قبيل ضربها فى يوليو ١٨٨٢ قد بلغت درجة سيئة من التهالك والقدم ، فالحكام الذين استدانوا وأنفقوا الملايين على بنـــاء القصور وإقامة الحفلات وشراء الجوارى ، لم يفكروا فى تجديد الحصون والطوابى وشراء المدافع الحديثة القادرة على مواجهة العدوان الخارجي . وبسبب هذا الضعف والاهمال لم تصمد الطوابى امام النيران الهائلة التي صبتها قذائف الاسطول الانجليزى ، ولم يبق امام الجنود المصريين الرابضين خلف المدافع الخائرة سوى الاستبسال والدفاع عن شرفهم وشرف بلادهم حتى الرمق الأخير . وكان الثمن غاليا .

يصف شاهد العيان جون نينيه صمود الجنود المصريين وكانه يرسم لوحة زيتية رائعة لماساة دامية فيقول : « ماكان ابدع هذا المنظر .. منظر الرماة المصريين الذين كانوا قائمين على مدافعهم وهي مكشوفة في العراء وكانما هم في استعراض حربى لا يرهبون الموت الذى يكتنفهم ، إذ لم يكن لهم دروع واقية ولا متاريس ، وكانت معظم الحصون بلا سواتر ، ومع ذلك فهؤلاء الشجعان من ابناء النيل كنا نلمحهم وسط الدخان الكثيف كانهم ارواح الأبطال الذين سقطوا فى حومة الوغى ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد ويستهدفوا لنيران مدافعه ، وكان الائمة يزورون الحصون ويشجعون المقاومة ، وقام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار ، ولم يكن ثمة اوسمة ولا مكافات تستحث أولئك الفلاحين على اداء واجبهم ، بل ان عاطفة الوطنية والثورة على الفظائع التى استهدفوا لها كانت تستثير الحماسة فى صدورهم ، وهم اولئك الشجعان المجهولون الذين لم يفكر احد فى آلامهم . »

■ ■ ■

وفي اليوم التالى استانف الاسطول البريطانى قصف المدينة الباسلة رغم ان الطوابى قد سكتت تماما بعد تخريبها ، ورفعت الرايات البيضاء ، وظهر جليا عزم الانجليز على احتلال المدينة بعد ان دكوا حصونها وحطموا كل وسائل دفاعها . وبينما كانت

طلائع قوات الغزو تطأ أرض الساحل السكندرى ، اندلعت النيران فجأة فى حى المنشية ، وماهى إلا ساعة أو بعض الساعة حتى انتشرت النيران فى بقية الاحياء الشعبية والأجنبية ، وما إن حل المساء حتى كانت المدينة قد تحولت إلى شعلة من الوهج .

●● من الذى امر بحرق الاسكندرية .. ؟

لايزال هذا اللغز موضع اهتمام الباحثين . وكان من الطبيعى أن ينصب الاتهام على راس العرابيين الذين ابوا ان يتركوا المدينة موطئا سهلا للغزاة ، ففعلوا مافعله الروس فى موسكو عندما تقدمت إليها جحافل جيش نابليون فحرموه نعمة الايواء فى مدينة أمنة ، وقال بعض الشهود إنهم رأوا عبد الله النديم ـ بعد الحادث ـ فى محطة سيدى جابر راكبا فى صهريج القطار وفى يده طبنجة وسمعوه يقول إنه قتل بها ثلاثة اشخاص وإن حرق المدينة كان بواسطة غاز احضر بمعرفتهم وصُبَّ على الدكاكين والمنازل حتى يتم الحرق بسرعة .

وتكاد معظم المراجع التاريخية تجمع على أن الذى امر بإحراق المدينة هو القائمقام سليمان سامى داود قائد الآلاى السادس الذى كان متمركزا فى المدينة ولم يشترك فى القتال ، فقد امر جنوده بإضرام النار فى المدينة على امل ان يحول الحريق دون نزول الانجليز بها واتخاذها قاعدة حربية لزحفهم . ويصف الرافعى هذا العمل بانه كان عملا عقيما يدل على الجهل بالخطط الحربية ، لانه لم يعطل نزول الجنود الانجليز الى البر صبيحة اليوم التالى (الخميس ١٣ يوليو) كما يصف ذاك الضابط الكبير بانه كان مشهورا بالحمق والتهور وكان يعتبر نفسه « عرابى » آخر بالاسكندرية ، وقد صمم على الا ينسحب الجيش من الاسكندرية إلا بعد ان يجعلها خرابا . ويتخذ الرافعى من هذا التصرف دليلا على انعدام وحدة القرار بين القادة العرابيين وينفى عن عرابى تهمة إصدار مثل هذا القرار الخطير .

ولقد اثبتت التحقيقات ان مسئولية إحراق المدينة وماتعرضت له من اعمال السلب والنهب لا تقع على عاتق القائمقام سليمان سامى داود وحده ، وإنما كانت هناك قوى أخرى اشتركت فى تخريب المدينة ، وفى ذلك يقول الإمام محمد عبده إن تهمة حرق الاسكندرية ينبغى أن توجه لأكثر من طرف ، فقد عثر على جثث

اروام بلباس عرب اثناء الحريق ، كما اشترك فيه عربان من أولاد على ، ممن كانوا على صلة بالخديو توفيق ، ومنهم اهالى الاسكندرية ومنهم اوربيون بقصد المبالغة فى طلب التعويضات .
ويقول شاهد العيان جون نينيه إن الحرائق الأولى شبت فى الأحياء الشعبية من قنابل الاسطول الانجليزى يوم الضرب ، ومن فعل بعض الاوربيين الذين بقوا فى المدينة بقصد النهب ، وبعض الأشقياء الذين أطلق سراحهم من السجون ، اما حرائق الأحياء الأوربية فهى من فعل عربان « اولاد على » الذين كانوا مجتمعين حول البلد يعاونهم بعض عساكر الرديف وبعض الاروام ، ثم بعض اصحاب الدكاكين من الأجانب ممن قصدوا الحصول على تعويضات .

■ ■ ■

ورغم توزع المسئولية على كل هذه العناصر ، إلا أن المسئولية وضعت فى رقبة القائمقام سليمان سامى الذى نجح فى الفرار على ظهر قارب إلى جزيرة كريت وكانت تابعة للسلطان العثمانى ، وبعثت سلطات الاحتلال البريطانى الى حكومة استانبول تطلب القبض عليه وتسليمه إليها ، ولم يكن من حكومة استانبول سوى الإذعان ، فالقت القبض عليه وبعثت به مخفورا إلى مصر ، حيث قدم إلى المحاكمة العسكرية وحكم عليه بالاعدام .
وكان سليمان سامى داود احد ضابطين اثنين حكم عليهما بالاعدام ، ونفذ فيهما الحكم بالرغم من تخفيف احكام الاعدام عن قادة الثورة العرابية ، اما الضابط الثانى فله قصة اخرى .

الشهيد البرىء

كان من الطبيعي ان تسود الشارع المصرى روح الكراهية والعداء للأجانب بعد ضرب الاسكندرية واحتلال الانجليز لها . وكان المهاجرون من أبنــاء الاسكندرية قد انتشروا فى انحاء الدلتا يحكون للناس عن الفظائع التي وقعت لهم ، فثارت خواطر العامة ، وامتلأت نفوسهم حقدا وغيظا ونقمة علي الاوربيين الذين كان تواطؤهم مع الانجليز امرا واضحا منذ بداية الأزمة ، وقامت جماعات من المتحَمسين فى طنطا والمحلة الكبرى ومنوف تطارد الأجانب فى الشوارع وتعتدى على محلاتهم ، ولم تكن هذه التصرفات الهوجاء تحظى برضاء عقلاء القوم ، لما يعرفونه عن مخاطرها فى المستقبل ، فضلا عن منافاتها لروح السماحة المعروفة عند المصريين ، ونهض كبار الأعيان يفتحون بيوتهم لإيواء الأجانب وحمايتهم من الاعتداء ، وانفتح بيت احمد المنشاوى باشا فى طنطا لاستقبال أكثر من ٣٠٠ شخص من الاوروبيين فوجدوا فيه الحماية والامان .

فى ذلك الوقت كانت المعارك دائرة بين الجيش البريطانى والجيش المصرى بقيادة احمد عرابى باشا فى كفر الدوار ، وكان اللواء عبد العال حلمى باشا قائداً لجبهة دمياط ، فاوفد ياوره الخاص اليوزباشى يوسف ابو دية فى مهمة عاجلة إلى عرابى باشا فى كفر الدوار ، واثناء توقف الضابط الشاب فى طنطا وجد شوارع المدينة قد تحولت إلى ساحة للشغب والفوضى ، فالأهالى يطاردون الأجانب فى غيبة من رجال الأمن . ولم يشأ الضابط الشهم ان يترك المدينة وهى على هذه الحال من الفوضى ويواصل مشواره إلى كفر الدوار ، وابى عليه حسه الوطنى وإدراكه للمسئولية أن يقف متفرجا ويقول (وانا مالى) فمضى لتوه إلى مبنى المديرية فلم يجد مدير الغربية ابراهيم باشا أدهم فى مكتبه فى هذا الوقت العصيب . وقيل له إنه مريض وملازم الفراش فى بيته ، فمضى إليه فى بيته فوجده سليما وصحته زى البمب. فما كان من الضابط الشاب إلا ان انهال على الباشا المدير تقريعا وتوبيخا ، وغادر طنطا من فوره إلى كفر الدوار ، حيث حكى

لعرابى باشا عن قصة المدير المتمارض الذى لزم بيته تاركا الفوضى تضرب اطنابها فى مدن الغربية ، وابلغه ماسمعه عن وقوع احداث مشابهة فى المنوفية ، فانزعج عرابى انزعاجا شديدا ، وامر بالقبض على مدير الغربية ومدير المنوفية ، وتقديمهما إلى محاكمة فورية أمام المجلس العسكرى المنعقد فى القاهرة ، وامر بإرسال اورطة من الجيش بقيادة الفريق راشد باشا حسنى لإعادة النظام إلى مدن الغربية والمنوفية ، واصدر تعليماته إلى مصلحة السكة الحديدية بإرسال قطار خاص إلى طنطا لنقل الأجانب الذين يرغبون فى السفر إلى الاسماعيلية وبورسعيد بالمجان .

■ ■ ■

فلما انقلب الميزان ، وانهزم الجيش المصرى أمام جحافل الاحتلال البريطانى ، خرجت الأفاعى من جحورها ، واستأسدت الثعالب والذئاب ، وبدأت الحملة المضادة للانتقام من العناصر الوطنية التى وقفت إلى جانب عرابى دفاعا عن استقلال الوطن ، وفى إطار الانهيار الأخلاقى الذى عم البلاد تحول الخونة إلى ابطال ، وانزوى الابطال فى غياهب السجون ، وانقلبت قضية المدير المهمل ابراهيم ادهم على أعقابها ، وخرج من سجنه ليوجه الاتهام الى الضابط الشاب يوسف ابو دية بانه كان يحرض اهالى طنطا على قتل الأجانب !! ولم يعدم المدير الهمام العثور على بعض الساقطين من ذوى الذمم الخربة ليشهدوا زورا امام المحكمة العسكرية بالاسكندرية بأن اليوزباشى ابو دية كان يحرضهم على الفوضى والشغب .. ولم يكن لدى المحكمة العسكرية وقت لتفنيد هذه الدعاوى والتأكد من بطلانها ، فلم يكن الوقت يسمح بمثل هذه الاجراءات القضائية . كان المطلوب سرعة البت فى محاكمة العرابيين حتى يتفرغ الانجليز لتنظيم شئون الاحتلال .. وذهبت عبثا محاولات الضابط الشهم لإثبات كذب الادعاءات التى افتراها عليه المدير ، فحكمت عليه المحكمة بالإعدام شنقا ، وسيق إلى السجن انتظارا لتنفيذ الحكم .

■ ■ ■

ومضت الأيام ثقيلة كئيبة حتى نشرت الصحف نبأ الحكم بالإعدام على الضابط البرىء يوسف ابو دية ، وثارت ضمائر

بعض أهالى طنطا ، فقد أزعجهم ان يساق إلى حبل المشنقة ضابط بتهمة التحريض على قتل الأجانب ، بينما شاهدوه باعينهم وهو يبذل قصارى جهده لوقف عمليات الاعتداء ، فتطوعوا بالذهاب إلى مكاتب التحقيق بالاسكندرية ، وشهدوا بالحقيقة التى لمسوها باعينهم ، واستطاعوا إثبات كذب الشهادات المزورة التى قدمها المدير ، واعادت هيئة التحقيق فتح ملف القضية واقتنعت بصحة الوقائع الجديدة وكذب الأدلة التى استند إليها حكم الإعدام . واعدت هيئة المحكمة تقريرها وانتهت فيه الى براءة اليوزباشى يوسف ابو دية ، ورفعت تقريرها إلى وزير الحقانية طالبة استصدار مرسوم من الخديو بالعفو على الضابط البرىء واصدر الخديو توفيق مرسوم العفو الذى حمله رسول خاص إلى الاسكندرية . وشاء القدر العاثر ان يصل المرسوم إلى السجن بعد خمس دقائق فقط من تنفيذ حكم الإعدام فى الضابط البرىء ، وقرأ مامور السجن مرسوم العفو ، بينما كانت جثة الضابط الشهيد يوسف ابو دية تتدلى فى بئر المشنقة . ولم يتمالك الحاضرون انفسهم ، فاجهشوا بالبكاء بمن فيهم عشماوى نفسه .

أبو الدستور

كان قاضي قضاة مصر عام ١٨٢٦ رجلا تركيا اسمه محمد شريف افندى الشركسى ، وكان منصب قاضي القضاة من المناصب العليا التى تستاثر بها حكومة الخلافة العثمانية بحكم سيادتها على مصر رغم استقلال محمد على بمصر استقلالا فعليا ، وفى اثناء السنة التى قضاها الشركسى افندى بمصر انجب طفلا اسماه (شريف) ، ولم يلبث ان عاد به إلى الآستانة بعد انتهاء فترة خدمته بمصر ، وبعد سنوات عين الرجل قاضيا على الحجاز وفى اثناء ذهابه إليها عرج على مصر ليحظى ببركات ولى النعم محمد على الذى ما إن شاهد الصبى (شريف) حتى توسم فيه النجابة والذكاء وادرك انه سيكون له شان وكان محمد على يتمتع بخاصية الفراسة فطلب من الأب إبقاء ابنه فى مصر ليتلقى تربية ملوكية مع ابناء الوالى ، ووافق الأب وترك الصبى وديعة فى كنف عزيز مصر ، والتحق شريف بالمدرسة العسكرية التى انشاها محمد على فى الخانكة لتعليم اولاده أصول الضبط والربط ، وكان زملاؤه من ابناء العزيز : سعيد وحليم وحسين ، ومن الأحفاد اسماعيل ، فلما اتموا تعليمهم سافروا الى باريس ليلحقوا بمدرسة (الرسالة) التى اقامها محمد على لاستكمال تعليم المتفوقين من خريجى مدرسة الخانكة ، وهنا ظهرت ميول شريف لتعلم الفنون الحربية فالتحق بمدرسة (سان سير) وهى يومئذ ارقى المعاهد العسكرية الفرنسية وبعد تخرجه خدم فى الجيش الفرنسى سنتين فلما مات محمد على عاد إلى مصر وهو برتبة نقيب فدخل الجيش المصرى معاونا للكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) وتوطدت الصداقة بينهما حتى انتهت بالمصاهرة فتزوج الضابط الشاب ابنة سليمان .

وفى عهد الوالى سعيد تفتحت ابواب الترقى امام شريف باشا فعينه رئيسا للحرس الخصوصى برتبة لواء ، وبعدها ترك الخدمة العسكرية وتفرغ للنشاط الدبلوماسى وساعدته على ذلك ثقافته الفرنسية فاصبح سفيرا متجولا وممثلا شخصيا للوالى فى المهام الخارجية فلما تولى اسماعيل ازدادت فرص الترقى امام شريف حتى اضحى وزيره الأكبر وموضع ثقته لدرجة ان عَيّنَه (قائمقام

مصر) أثناء غيابه فى الخارج ، وكانت المرة الأولى التى يعين فيها نائب عن خديوى مصر من خارج الأسرة العلوية .

هذا هو شريف باشا الذى ارتبط اسمه بكل الأحداث الجسام التى شهدتها مصر طوال ثلاثين عاما ، كان اجلها نشوب الثورة العرابية ، وافدحها وقوع الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، ولكن الشهرة الكبرى التى علقت باسم شريف إنما جاءت من ارتباطه بالدستور وبالحياة النيابية وكلاهما خرج من اعطافه وبفضل مثابرته وإيمانه بالديمقراطية وبغضه للاستبداد .. والحكم الأتوقراطى وإصراره على حق المصريين فى ممارسة الأساليب الحديثة فى شئون الحكم .

• • •

كان من ثمرات هذا الكفاح النبيل ان شهدت مصر فى عام ١٨٧٩ تدوين اول دستور على احدث المبادىء العصرية واخذ شريف مسودة الدستور وذهب بها الى مجلس النواب الذى حاولت حكومة رياض الإطاحة به فاعاد شريف للمجلس اعتباره وطلب منه الاستمرار فى ممارسة مهامه النيابية احتراما للقرار الذى اتخذته المعارضة الوطنية برفض حل المجلس ، وأعلن شريف انه لن يوضع قانون ولن يعدل قانون ـ بما فيها القوانين الأساسية التى تقرر النظام الدستورى ـ إلا بقرار من المجلس ، وزيادة فى تكريم مجلس النواب وإضفاء صفة (اللجنة التاسيسية) عليه ، طلبت الحكومة من المجلس إقرار الدستور قبل عرضه على الخديو اسماعيل حتى لا يبدو وكانه منحة من ولى النعم ومن المآثر التى سوف تذكر لشريف باشا ابد الدهر انه ضمن هذا الدستور نصا يخول لأبناء السودان حق انتخاب ممثليهم فى مجلس النواب تاكيدا للروابط التاريخية بين شطرى الوادى .

• • •

بعد كل هذا الا ترى ان شريف باشا يستحق عن جدارة لقب (ابو الدستور) .. ! إن النهج الذى نهجه هذا الرجل لا يزال مثار دهشة المؤرخين الذين سجلوا إصراره وصبره وانتزاعه حقوق المصريين السياسية من براثن اسماعيل وتزداد الدهشة إذا تذكرنا ان شريف باشا لم يكن مصريا اصيلا ولا تربطه بالتراب المصرى وشيجة قديمة ، ولا تجرى فى عروقه قطرة واحدة من دماء

الفلاحين .. ! فما الذى دفعه الى سلوك هذا المسلك الوعر ليقف الى جانب الحقوق الدستورية للمصريين فى مواجهة السلطات الاتوقراطية التى كان يتمتع بها حكام مصر ومن يلوذ بهم من بقايا الترك والشركس والالبان .. وهو الذى ينتمى إليهم .. ؟ !

قصة مزعومة

قبل أن امضى فى الحديث عن شريف باشا ، أبى الدستور وراعي الحياة النيابية فى مصر الحديثة ، استأذن القارىء فى عرض هذه الحكاية التى تتصل بشريف نفسه ، وتلقى بعض الظلال على عملية ميلاد أول برلمان مصرى فى عام ١٨٦٦ وهو مجلس شورى النواب الذى انشاه الخديو اسماعيل ليستكمل به ديكور الحضارة الأوربية فى مصر .

تقول القصة إنه قبيل انعقاد المجلس . لأول مرة ، اجتمع شريف باشا مع النواب (٧٥ نائبا) بالقلعة ، والقى عليهم درسا فى اصول الاجراءات البرلمانية ، ومنها ان يشكلوا من بينهم حزبين : احدهما يؤيد الحكومة ويجلس على مقاعد اليمين ، والثانى يمثل المعارضة ويجلس على اليسار ، وتظاهر النواب بانهم استوعبوا الدرس ، فلما دخلوا القاعة جلسوا جميعا على اليمين ، فثار شريف باشا وافهمهم انهم بذلك يخرقون التقاليد ، ولكن النواب استنكروا طلبه وقالو له : كيف يخطر ببالك ياباشا ان يكون بيننا معارض لحكومة افندينا وولى نعمتنا .. !! وتمضى القصة ـ امعانا فى السخرية ـ فتزعم بأن شريف باشا اصر على أن يجلس بعضهم فى مقاعد اليسار ، فما كان منهم إلا ان تحولوا جميعا الى مقاعد اليسار .. !!

● ● ●

فما رأيك ـ عزيزى القارىء ـ فى هذه النكتة التى يرددها بعض كتابنا حين يريدون التدليل على عظمة التطور البرلمانى المصرى المعاصر ، فلا يجدون امامهم من سبيل سوى التحقير من شان اباء الديمقراطية المصرية ، والتهكم على الرعيل البرلمانى الأول ، واظهاره بصورة الجاهل الذى لا يعرف الفرق بين مقاعد اليمين ومقاعد اليسار ولا يتخيل أن تكون هناك معارضة لحكومة ولى النعم .. !!

إنك لو عرضت هذه القصة على ميزان العقل ـ قبل عرضها على ادوات البحث التاريخى ـ فلن يستسيغها ، فمهما قيل عن وداعة المصريين وطيبتهم وصبرهم العريق وتمسكهم بالشرعية ـ وهو

قول فيه نظر ـ الا ان الامر لا يبلغ بهم حد البلاهة ، واستهجان قيام معارضة برلمانية ، ولو مصطنعة ، بل المعقول ان تنشا بينهم « خميرة » معارضة ولو على سبيل التقليد للغرب ، كما يشاع على لسان شريف باشا فى القصة المزعومة ، فضلا عن ذلك فإن المجتمعات الانسانية عرفت المعارضة فى كل الشرائع والنظم ، فلماذا يصر بعض الكتاب على استثناء الشعب المصرى من هذه المزية التى عرفتها كل الشعوب .. !!

● ● ●

اما لو عرضت القصة على ميزان البحث التاريخى فسوف تكتشف انها قصة مختلقة ليس لها أصل فى مصادر التاريخ الموثوق بها ، وإنما هى من مخترعات الكتاب الأوربيين حين يطيب لهم السخرية من المصريين الذين لا يصلحون ـ فى رايهم ـ لممارسة مبتكرات الحضارة الغربية ..

وهذه النتيجة هى التى انتهى اليها المؤرخ عبد الرحمن الرافعى بعد ان فنّد القصة ومحصها فلم يجد لها سندا من اقوال شهود العيان الذين عاصروانشاة المجلس ، ولا جاء ذكرها ولو تلميحا فى مضابط المجلس ، ويضيف الى ذلك قوله بان الرواية لا يسيغها المنطق لأن نظام المجلس واختصاصه لا يدع مجالا لتاليف حزب للحكومة وحزب للمعارضة ، فالاحزاب الموالية والمعارضة إنما توجد حيث يكون للمجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة (وهو مايعرف بمبدا المسئولية الوزارية) ولم يكن مجلس شورى النواب يملك هذا الحق اصلا .. مما يقطع ببطلان القصة من اساسها ..

● ● ●

ولكن بعض كتابنا لا يتحرزون من ترديد هذه القصة المختلقة ، والترويج لها بحسن نية ، دون ادراك منهم لما تنطوى عليه من افتراء وتجريح وتهكم .. !! .

مسرحية متقنَة الصُنع

بعد هزيمة العرابيين فى التل الكبير (١٣ سبتمبر ١٨٨٢) ايقن احمد عرابى أنه لا أمل فى الصمود ، فهرع الى القاهرة ، وسلم نفسه الى سلطات الاحتلال البريطاني التى اصبحت - منذ هذا اليوم المشئوم - صاحبة الكلمة الأولى فى ادارة شئون مصر ، واضحى الخديو توفيق مثل خيال الماتة .. لا تتعدى سلطاته حدود قصره ، وبدات اجراءات التحقيق مع عرابى وزملائه الستة تمهيدا لمحاكمتهم ، ورأى الانجليز ان تقتصر قائمة الاتهام على تهمة واحدة فقط هى : عصيان الخديو وان يصدر الحكم على عرابى وزملائه بالاعدام متضمنا التخفيف الى النفى المؤبد خارج مصر .

وكان توفيق الخائن لا يرى بديلا عن اعدام عرابى ، ولو كانت توجد عقوبة اشد فتكا وتنكيلا من الاعدام لما تورع عن استعمالها ، ولو ترك توفيق وهواه .. لاستخدم مع عرابى ابشع فنون التعذيب التى تعودها حكام الشرق وسودوا بها صحائف التاريخ ، ولكن الانجليز .. وقد استقرت لهم الأمور .. وقفوا فى وجه توفيق .. وحالوا بينه وبين رقبة عرابى ..

وبدا الأمر فى غاية الغرابة .. !!

● ● حاكم البلاد الشرعى يطالب برقبة الزعيم الوطنى الذى وقف فى وجه الغزو الانجليزى ، ثم انكسر بفعل الخيانة والعجز والتردد ..

● ● وسلطات الاحتلال ترى الابقاء على حياته !!

● ● ●

وكان هذا الموقف المحير - ولا يزال - مثار دهشة الباحثين ونقاد التاريخ ، وقد حاول المؤرخ عبدالرحمن الرافعى ان يلقى ظلالا من الشك حول قيام علاقة مشبوهة بين عرابى والانجليز ، مستعينا فى ذلك بمزاعم الساسة الفرنسيين ، وقد بلغ بهم الشطط

أن ادعوا وجود اتفاق مسبق بين عرابى والانجليز على احتلال مصر !!

ومع ان الرافعى وصف اقوال المسئولين بانها (اسراف فى الاتهام) الا انه لم يكلف نفسه مسئولية مناقشة هذا الاتهام الفظيع ودحضه ، وكشف ما ينطوى عليه من تهافت وسطحية ، واى ناقد للتاريخ يعرف دوافع المزاعم الفرنسية ، فقد خرجت فرنسا من سباق احتلال مصر خاسرة ، واستطاعت انجلترا ان تنفرد بمصر وتفترسها بعد ان خدعت الذئاب الأوروبية الأخرى وابعدتها خارج الحلبة ، فلم تجد هذه الذئاب من وسيلة للتعبير عن حنقها وخيبتها سوى التشنيع والتشكيك فى وطنية عرابى واتهامه بالتواطؤ مع اعدائه . وظل هذا الاتهام معلقا برقبة العرابيين سنين طويلة ، والمؤسف ان تاثرت به بعض العناصر الوطنية مثل مصطفى كامل والشاعر احمد شوقى وبدا هذا التاثر واضحا فى كتابات الرافعى التى تزخر بالتحامل والتجنى على الحركة العرابية

● ● ●

ولكن السؤال الأهم الذى لايزال قائما هو : لماذا اظهر الانجليز هذا القدر الكبير من التسامح مع عرابى — ولماذا اصروا على الابقاء عليه حيا ، وهم الذين جردوا الأساطيل للقضاء عليه ؟

لقد ظهر عطف الانجليز على عرابى منذ وقع فى ايديهم ، وهددوا الخديو اذا اصابه مكروه ، وامروا بان يعامل معاملة انسانية فى سجنه ولا يتعرض لأى تعذيب ، بينما كان الخديو الخائن يبعث تابعه ابراهيم اغا فى منتصف الليل ليفتح الزنزانة على البطل الاسير ويوقظه من نومه ثم يبصق فى وجهه وينهال عليه باقذع الشتائم ، وعين الانجليز مندوبا خاصا (تشارلس ويلسون) لحضور مراحل التحقيق مع عرابى ، وتدخلوا فى توجيه التحقيق بحيث يقتصر على تهمة العصيان وتبرئته من تهمة تدبير مذبحة الاسكندرية التى وقعت قبل شهر من ضرب الاسكندرية

وفى نفس الوقت كانت هناك اتصالات تجرى وراء الكواليس عبر القاهرة ولندن هدفها انقاذ عرابى من حبل المشنقة ، وكان محور هذه المساعى الكاتب الحر والسياسى الانجليزى الشهير

مستر (بلنت) صديق العرابيين الحميم وكاتم اسرارهم منذ فجر الحركة الوطنية ، وقاد بلنت حملة اعلامية من أحرار الانجليز لتحريك الراى العام الانجليزى ليرغم حكومته على انقاذ البطل القومى المصرى الذى ثار على الظلم والطغيان والسخرة وحكم الفرد ، وتطلع مع شعبه الى حياة جديدة تناسب روح العصر ويتحقق فيها قدر معقول من العدل والمساواة والمشاركة فى ادارة البلاد .

وبينما كان عرابى عاجزا عن توكيل محام مصرى يتولى الدفاع عنه امام المحكمة المصرية (!!) كان بلنت قد نجح فى تكليف محام انجليزى للدفاع عن عرابى واخوانه .. وجاء الرجل الى القاهرة وقام بمهمته الجليلة .. وتم الاتفاق مع سلطات الاحتلال على صيغة الاتهام ومنطوق الحكم .. حتى اذا وقف عرابى امام قضاته كان كل شىء قد تم اعداده مسبقا .. وبدت المحاكمة مثل مسرحية متقنة الصنع .

مذنب .. أم غير مذنب ؟

لم تستغرق محاكمة زعيم الثورة العرابية اكثر من خمس دقائق ، كانت كافية لان يؤدى كل طرف من اطراف المسرحية دوره المرسوم بإتقان . وشهدت قاعة مجلس النواب القديم (قاعة مجلس الشورى حاليا) ستار الختام وهو ينسدل على تلك الملحمة الاسطورية الباسلة التي خاضها الشعب المصرى ضد الاستبداد والظلم والتدخل الأجنبي .. ولكن .. هاهو ذا الحلم الذى راود قلوب المصريين في الحرية والعدل .. يخبو ويذبل . وهاهو ذا البطل القومي المهزوم يقف أسيرا بين براثن اعدائه ليؤدى الدور الذى كتبوه له .. ولم يكن مطلوبا منه ان يتكلم او يدافع عن نفسه .. حتى اذا سالته المحكمة عما إذا كان مذنبا او غير مذنب ـ اشار إلى محاميه الانجليزى ، مستر برودلى ، فيقف ليتلو بالفرنسية اعترافا من زعيم الثورة بانه مذنب ، ثم يقدم الى هيئة المحكمة نص الوثيقة التى وقعها عرابى في صبيحة ذلك اليوم ونصها « بمحض ارادتي الحرة وبناء على مشورة محاميّ اقر بانني مذنب فى التهمة التى تليت علىّ الآن » .

والمقصود تهمة التمرد على الجناب الخديو .

وتنفض المحكمة لمداولة صورية تستغرق ست ساعات ، اغلب الظن ان اعضاء المحكمة التسعة قضوها في تدخين الشيشة ، فلم يكن هناك شيء يستحق المداولة ، لأن رئيس المحكمة ـ الفريق رؤوف باشا ـ كان يحمل في جيبه نص الحكم الذى كان محكوم عليه بان ينطق به امام جمهور معظمه من الصحفيين الاجانب الذين كانوا يعرفون التطور الدرامي للمحاكمة .. !

■ ■ ■

هل كان عرابى مخطئا حين قبل الاشتراك فى هذه المسرحية التى انتهت بتخليص رقبته من حبل المشنقة ومعه رقاب ستة من اكبر اعوانه وإبعادهم جميعا خارج البلاد .. ؟ ؟

من السهل على قارىء التاريخ المعاصر أن يصدر حكما تعسفيا على هؤلاء الرجال ، مدفوعا بعاطفة الحماسة ، ولكن من الصعب على الباحث المنصف ان يصدر مثل هذا الحكم قبل أن يلم إلمـ

كافيا بالظروف والملابسات التى احاطت بالحدث ، وبشرط أن يتجرد من مشاعر الحب والبغض ، وبذلك يكون حكمه اقرب الى الانصاف والعدل ..

اما خصوم الثورة العرابية فيأخذون على زعيمها قبوله توكيل محام انجليزى للدفاع عنه أمام محكمة مصرية ، ويتخذون من ذلك ذريعة لاتهام عرابى بالتواطؤ مع الانجليز ..

والواقع أن عرابى لم يقصر فى توكيل محام مصرى عنه ، ولكن الذى حدث أن هذا المحامى المصرى تنصل من القيام بواجبه خوفا من بطش الخديو .. بينما كان مستر بلنت ـ صديق العرابيين ـ قد نجح مع اصدقائه الاحرار الانجليز ، فى الاتفاق مع مستر برودلى وزميله نيبير للدفاع عن عرابى واخوانه ، وعندما جاء المحاميان الانجليزيان الى مصر وجدا سلطات الاحتلال قد شددت قبضتها على شئون مصر ، وآل إليها زمام الأمر كله ، فكان لابد من « تسوية » ترضى جميع الأطراف .

■ ■ ■

كان لورد دوفرين ، سفير انجلترا فى الاستانة واحد اساطين الاستعمار البريطانى ـ قد جاء الى القاهرة عقب الاحتلال ليرسم مستقبل مصر فى ظل الاحتلال ، ويضع البرنامج الاستعمارى طويل الأجل الذى سيقوم بتنفيذه تلميذه النجيب لورد كرومر ، وكان من رأى دوفرين الفراغ بسرعة من قضية العرابيين واغلاق هذا الملف الثورى الى الأبد ، حتى تتفرغ انجلترا لمهمتها الاستيطانية فى مصر ، ولذلك وضع دوفرين الخطوط الرئيسية لمسرحية محاكمة العرابيين ، واشرف بنفسه على اخراجها وتوزيع الادوار على كل طرف من اطرافها ، فلما كشف افندينا توفيق الخائن عن نواياه الانتقامية من عرابى واخوانه ، تصدى له دوفرين ، واظهر له يدا حديدية ملفوفة فى قفاز من المخمل ، فتراجع افندينا ورضى بالأمر الواقع ..

كان دوفرين يعارض إعدام عرابى ، ليس لانه لا يستحق الموت ، ولكن لأن الرأى العام الانجليزى ، ومن خلفه احرار اوروبا وامريكا كانوا يعتبرون الثورة العرابية حركة شعبية وطنية ، وان عرابى وزمرته ابطال يستحقون التمجيد ، ولم تكن حكومة جلادستون فى لندن على استعداد لتجاهل هذا التيار المستنير المؤثر .

هذه واحدة .. اما الثانية فترجع الى نوايا الاحتلال فى مصر وعزمه على البقاء فيها لاطول فترة ممكنة بدون ازعاج ، وبدون هبّات شعبية تهدد وجود الاحتلال ، الأمر الذى يتطلب الابقاء على حياة عرابى حتى لا يصبح مصدر إلهام لثورات متجددة ، وكان لابد من اغلاق ملف البطولات الشعبية حتى تموت بذور الثورة بموت ابطالها فى جزيرة نائية غارقة فى مياه المحيط الهندى .

واثمرت خطة الاستعمارى العريق دوفرين ، وعاشت مصر اقسى فترات حياتها فسادا وانحلالا .. وغلب اليأس على النفوس حتى فقد الناس الأمل فى صبح جديد ، ولكن مصر الولود المعطاء لم تلبث ان افاقت من غشيتها ونهضت تفك قيودها وتسترد روحها .. وظهر مصطفى كامل صوتا جهيرا عم صداه انحاء البلاد فأيقظ النيام بعد طول رقاد ، وتفجرت ثورة ١٩١٩ لتمحو عار الهزيمة بعد ٣٧ سنة من وقوعها وتثبت ان فى السويداء رجالا يأبون الضيم والخنوع والاستعباد ..

أمراء .. لكن شرفاء

في تاريخ الثورة صفحة مجهولة تتعلق بموقف امراء الأسرة العلوية من هذه الثورة ، خاصة عندما تطورت الأحداث الى ذروة الصدام المباشر بين عرابى باشا من جهة ، وتوفيق خديو مصر وعميد الأسرة العلوية من جهة اخرى .. وكان على افراد الأسرة ان يحددوا موقفهم من المعسكرين .. وهو الاختيار الصعب .

ومن الحقائق المعروفة ان توفيق هذا .. لم يكن يتمتع باحترام او تاييد اقاربه لاسباب كثيرة بعضها يرجع إلى تكوينه الخلقى الذى كان من ابرز مميزاته الجهل والغباء والتردد والغدر ، وبعضها الآخر يتعلق بالصراعات داخل الأسرة نفسها ، وهى صراعات كان يقودها امراء اقوياء يرون انفسهم احق بالملك من توفيق ، لولا اللعبة التى دبرها والده اسماعيل لتغيير نظام وراثة العرش ، وبمقتضاها اصبح الحكم من نصيب اكبر ابناء الوالى بعد ان كان من حق اكبر افراد الأسرة ، وكانت تلك غلطة اسماعيل القاتلة ، ولعله هو نفسه كان اول ضحاياها .. فلم يكن ابنه توفيق ـ وهو ولي للعهد ـ ببعيد عن مؤامرة عزل ابيه ، وكان اقوى المناوئين الأمير عبدالحليم اصغر اولاد محمد على الذى نحاه اسماعيل ونفاه إلى الاستانة .. ومن هناك كان يحيك الدسائس لاستعادة عرشه السليب ، وكان هناك ايضا الأمير مصطفى فاضل شقيق اسماعيل الذى ابعد عن العرش ليحل محله توفيق الغبى الجهول .

ولكن هذه الصراعات العائلية تضاءلت امام الحدث الاكبر حين تعرضت مصر للغزو الانجليزى ، وانهالت قنابل الأسطول على الاسكندرية في يوليو ١٨٨٢ وكشف توفيق عن وجهه القبيح بانحيازه العلنى الى جيش الاحتلال . وبينما كان الجيش المصرى يصنع المستحيل لصد الهجوم ، اجتمع قادة الأمة من كل الفئات والطبقات والأديان واصدروا قرارا تاريخيا بالوقوف خلف الجيش المصرى بقيادة عرابى وعدم الاعتراف بالأوامر التى يصدرها توفيق الخائن من مكمنه فى الاسكندرية ، « حيث أن

الخديو خرج على الشرع الحنيف والقانون المنيف ، وكان فى طليعة الموقعين على هذه الوثيقة التاريخية ثلاثة من أمراء الأسرة العلوية .

وفى اثناء معركة كفر الدوار ظهرت حاجة الجيش المصرى الى المال والعتاد والمؤن ، بعد ان استولى السير « كالفن » المراقب المالي الانجليزى على اموال الخزانة المصرية وحملها فى الأسطول الانجليزى المرابط فى الاسكندرية . وهنا ظهرت معادن المصريين الأصيلة ، فجادوا بما لديهم من نفس ومال وغلال وعتاد وخيول ودواب .. ولم تتخلف اميرات الأسرة العلوية عن المساهمة فى هذا الواجب المقدس ، وفى طليعتهن الاميرة خوشيار ام الخديو اسماعيل التي تبرعت بجميع خيول عرباتها، واقتدى بها بقية افراد العائلة ، على النحو الذى يرويه عرابى فى مذكراته ..

على أن الجانب المثير فى موقف اميرات الأسرة العلوية إنما يتجلى رائعا بعد فشل الثورة وانفضاض الذباب من حولها . ففى هذا الوقت العصيب الذى تنكر فيه الانتهازيون للثورة وتبراوا منها .. ظلت الأميرات على مبداهن المؤيد للثورة وقائدها ، ولم يمنعهن الخوف من بطش الخديو من الوقوف الى جانب عرابى فى محنته ، وبقين معه حتى اللحظة التى غادر فيها مصر الى منفاه السحيق ، وبينما كان عرابى يستقل القطار من قصر النيل الى السويس انهالت عليه هداياهن الثمينة اعترافا بمجده وبطولته ، فبعثت اليه واحدة بمعطف ثمين ، وارسلت اخرى مصحفا كبيرا وثالثة سجادة صلاة .. الخ .

ويكشف مستر برودلى ـ محامى عرابى الانجليزى ـ عن هذه الصفحة المضيئة فيقول : ان عرابى وجد فى سيدات مصر اكبر عون فى ثورته فقد ساعدنه منذ اللحظات الأولى مساعدات لها قيمتها ، وظللن يقدمن هذه المساعدة حتى بعد ان فقد اخر امل فى النصر ، بل إن أميرات الأسرة الخديوية ـ باستثناء ام الخديو وزوجته ـ كن يعطفن عطفا كبيرا على عرابى باشا ، وألفنّ عدة جمعيات مهمتها مساعدة ومواساة الجرحى فى موقعة كفر الدوار ، والاستعداد لمواجهة مصاعب القتال القادمة الى حد الاشتراك فى الصفوف ذاتها ، وتلقى برودلى من أرملة الوالى سعيد باشا خطابا

تشكره فيه على دفاعه عن عرابى .

ويعلق برودلى على ذلك بقوله : ولاشك ان هذا خير رد على اولئك الذين يزعمون أن حركة عرابى لم تكن إلا حركة فردية ، فهى فى الحقيقة حركة شعبية اسهم فيها المصريون جميعا .

وكشف برودلى فى مذكراته التى ترجمها محمود كامل المحامى عن لقاء مثير تم بينه وبين إحدى الأميرات ، لم يفصح عن اسمها خوفا عليها من انتقام الخديو ، قالت الأميرة : كانت كل واحدة منا ـ نحن الاميرات ـ تعطف على عرابى منذ البداية ، لاننا نعرف انه كان يرغب اصلا فى تحقيق أمانى المصريين جميعهم ، وكنا جميعا ننظر الى عرابى نظرة الرجل المدافع عن البلاد إزاء الانجليز الذين التجأ اليهم الخديو ، فعقدت مجالس كثيرة من رجالات مصر فى القاهرة ، اشترك فى بعضها الأمير ابراهيم والأمير كامل والأمير احمد ، وقررت هذه المجالس مساعدة عرابى حتى يسير بالحرب الى النهاية ، لقد راينا فيه القائد . وكانت لدينا كل الثقة به ، فكتبنا له الرسائل والبرقيات مشجعات مهنئات ، بل ان احدى الاميرات كتبت له خطابا غريبا تطلب منه الزواج بها لأنه منقذ مصر ، فلما علمنا بهزيمته استولى الحزن علينا جميعا ، وقد عوقبت الأميرة التى طلبت الزواج بعرابى شر عقاب بالرغم من ان والدتها اعترفت بانها هى التى كتبت الخطاب ووقعته باسم ابنتها ، ولكن الأميرة خوشيار عرفت كيف تؤدب الشخص الذى وشى بسر الخطاب الى الخديو ، فضربته بمقعد على راسه ، واخيرا صدرت الينا الاوامر بالذهاب الى القصر ، وكنا نبكى من الخوف والذعر ، وبعد ان وبختنا والدة الخديو قالت لنا ان الانجليز سوف يسلمون عرابى الى الخديو ليقتله شر قتلة ، وامسكت بكشف طويل فيه كثير من اسمائنا مع العقوبات الموقعة علينا . وعندما علمنا بان حياة عرابى مهددة ساد الوجوم والحزن فى دوائر القصر كان احدا من الأسرة نفسها قد مات .. !

واختتمت الأميرة حديثها الى المحامى الانجليزى قائلة « بعد كل ماحدث .. لا يمكن ان يستتب امن فى البلاد .. لا لنا .. ولا لكم .. ولا لمصر .. »

كيرلس الخامس

كان البطريرك كيرلس الخامس من اطول آباء الكنيسة المصرية عمرا .. فقد تولى قيادة الكنيسة في عصر الخديو اسماعيل ، ومات في ١٧ اغسطس ١٩٢٧ قبل اسبوع من وفاة سعد زغلول ، وعاصر خمسة من ملوك مصر : اسماعيل وتوفيق وعباس الثاني وحسين كامل واحمد فؤاد ، وعايش خلال فترة كرازته ـ التي بلغت ٥٣ عاما ـ احداثا جساما من تاريخ مصر الحديث : الثورة العرابية ثم الاحتلال البريطاني والحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ ثم استقلال مصر وظهور اول حكومة شعبية في ١٩٢٤ .

وكان كيرلس الخامس شخصية فريدة تجمع بين المهابة والوقار والحزم الى جانب الزهد والورع ، ولكن المدهش في شخصية هذا البطريرك هو مشاركته الايجابية في كل الأحداث الخطيرة التي تعرضت لها مصر خلال عمره المديد . منها موقفه المساند للثورة العرابية حتى النهاية ، فكان في مقدمة الذين وقعوا عريضة خلع الخديو توفيق الذى استعان بالانجليز لضرب الثورة ، فلما وقع الاحتلال تصدى البطريرك لكل المحاولات التي بذلها الانجليز لوضع الكنيسة المصرية تحت الحماية البريطانية ، ورفض العروض التي قدمها اللورد كرومر لمنح المدارس القبطية معونات مالية .. وبعد ثورة ١٩١٩ وقف الى جانب الثورة مؤيدا ومباركا تآلف المسلمين والقبط تحت علم الوحدة الوطنية ، ولما حاول الانجليز إجهاض الثورة والتلويح بحماية الاقباط رد عليهم قائلا : ان المصريين شعب واحد وحمايته موكولة لله وحده .

كتب عنه عباس محمود العقاد : كان كيرلس الخامس ناسكا متعبدا مؤمنا برسالته الدينية اشد الايمان ، وكان ـ مع رعايته لفرائض الدين ـ لا ينسى فرائض الكرامة الدنيوية في معاملته لأصحاب السلطان ولو كانوا من الملوك أو في حكم الملوك ، وقد خطر لعميد الاحتلال ـ لورد كيتشنر ـ ان يلقاه كيرلس على غير موعد ، فذهب الى دار البطريركية وامر الحجاب ان يبلغوا صاحب الغبطة ان فخامته موجود في الدار .. وهرول الحاجب وهو يلهث

صائحا : اللورد يا ابانا .. اللورد يا ابانا .. فسأله فى اناة : من اللورد ياهذا ؟ وعلم جلية الأمر فلم يزد على أن قال : اذهب ياولد وقل لفخامته ان البابا لا يقابل احدا بغير ميعاد . وطلب منه الملك فؤاد ان يبارك وزارة زيور باشا كما بارك وزارة سعد زغلول ، فلم يجبه ولم يزد على ان قال : ان البركة لا تمنح باليمين لتسلب باليسار .

وقد أهلته هذه السجايا والمواقف ـ كما يقول طارق البشرى ـ فى مؤلفه « المسلمون والأقباط » ـ لأن يكون موضع التجلة والاحترام بين المصريين جميعا ، وأن ينظر اليه رجال الحركة الوطنية بكثير من الامتنان لمباركته حركتهم ..

ومع ذلك فلم يسلم كيرلس الخامس من تدخل مناوئيه الذين افلحوا فى استصدار قرار بتجريده من سلطاته ونفيه الى دير البراموس بوادى النطرون فى أول سبتمبر ١٨٩٢ .. وتلك قصة اخرى ..

الكنيسة المصرية

في اخريات القرن الماضي اشتد تيار الاصلاح الديني - بجناحيه الاسلامي والمسيحي - وإن اختلفت المنطلقات والنتائج ، فعلى المستوى الاسلامي قاد الشيخ محمد عبده تيار التمرد على الجمود في الفقه ومناهج التعليم الأزهري فاصطدم بقوة السلفيين الذين يريدون إبقاء الحال على ماهو عليه .

اما على المستوى المسيحي فقد تبلوّرت دعوة الاصلاح في قيام هيئة علمانية تقف الى جانب الكنيسة وتشاركها الاشراف على الأوقاف والمدارس القبطية والمطبعة والنظر في قضايا الاحوال الشخصية للأقباط .. الخ . وتمخضت الفكرة عن ظهور (المجلس الملي) بالانتخاب الجزئي من جانب الأقباط ، ومن الواضح ان دعاة الاصلاح كانوا متاثرين بموضة المجالس النيابية والمشاركة في الحكم التي باتت صيحة العصر ، ولكنهم اخطاوا إذ تصوروا امكانية الانتقاص من سلطان الكنيسة القبطية ذات التقاليد الراسخة في احترام السلطات الموروثة للبطارقة منذ بشارة مرقس الرسول ، واخطاوا مرة ثانية حين لجاوا الى الحكومة لتنصرهم على البابا كيرلس الخامس الذى اتخذ موقفا عنيدا ضد تداخلات المجلس الملي . صحيح انهم نجحوا في اصدار فرمان من الخديو بنفي البابا الى وادى النطرون ، ولكنه عاد بعد خمسة شهور الى كنيسته اقوى مما كان .

ولم يكن موقف البابا ضد المجلس الملي نابعا من عناد شخصي ، ولكنه كان يرى ان دعوة الاصلاح (العلماني) تخفي وراءها دعوة مشبوهة الى تذويب الكنيسة المصرية الأرثوذوكسية في تيار التبشير الذى هلّ على مصر مع الاحتلال البريطاني ، وبالتالي اخضاع الكنيسة القبطية للكنيسة الاسقفية البروتستانتينية . وقضية التدخل المذهبي في شئون الكنيسة المصرية قضية قديمة ترجع الى عصور المسيحية الأولى .. ولكن كل محاولات التدخل فشلت وبقيت الكنيسة محافظة على استقلالها الديني والمذهبي .

● ● ●

وهناك شبهة اخرى دفعت البابا كيرلس الخامس الى معارضته

القوية لدعوة الاصلاح ، وهي ارتباطها بالاحتلال البريطاني نفسه . وإذا عرفت أن رائد حركة الاصلاح كان بطرس غالى باشا ، لأدركت على الفور سر عناد البابا ، وتمسكه باستقلال الكنيسة والحفاظ على طابعها الوطنى ، استمرارا لموقفها العنيد من حركات الاستعمار منذ العصر الرومانى . حيث امتزجت العقيدة الدينية بالحماسة الوطنية ، وباتت الكنيسة المصرية ندا مصاولا للدولة الرومانية ، الأمر الذى جعلها هدفا لاضطهاد الأباطرة . وفى ذلك يقول عباس محمود العقاد : لم يكن اضطهاد الرومان للأقباط خلوا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية ، وقد اعتصم المصريون بكنيستهم ، وتجسدت فيها عناصر الدين والدولة ، والتفت الأمة حول زعامتها لإثبات كيانها ومشيئتها فى وجه القوة القاهرة .. وذلك سر مصدر القوة الكبرى التى اشتهرت بها المسيحية المصرية ..

أغا خان فى مصر

فى اضابير التاريخ المصرى المعاصر قصة مشهورة تقول إن سلطات الاحتلال البريطانى كانت تعتزم تعيين « اغاخان » سلطانا على مصر ، وذلك فى غضون الفترة القصيرة التى خلا فيها عرش مصر بعد نفى الخديو عباس حلمى الثانى ، وتمنّع عمه الأمير حسين كامل عن الجلوس على عرش ابن اخيه ، وبلغ من شيوع هذه القصة أن الدكتور محمد حسين هيكل باشا اوردها فى مذكراته فى معرض حديثه عن ظروف قبول السلطان حسين عرش مصر ، وكيف أن هذا الأمير ما قبل العرش الا انقاذا له من ان يجلس عليه حاكم اجنبى ، ثم يقول هيكل « ان الأكثرين صدقوا هذه القصة ، واعتقد انها صادقة لأن الانجليز دعوا بالفعل سمو الأمير أغا خان الهندى قبيل ارتقاء السلطان حسين العرش ، وتناقل الناس انهم ـ اى الانجليز ـ يريدون ان يجعلوا اغا خان سلطانا على مصر ، والجزء الأول من تلك الرواية ـ وهو عزم الانجليز تعيين حاكم اجنبى لمصر ـ صحيح مائة فى المائة ، اما غير الصحيح فهو أن يكون اغا خان هو السلطان المرتقب .

■ ■ ■

وترجع فكرة تعيين حاكم اجنبى لمصر الى قرار بريطانيا اجراء تغييرات جذرية على وضعها الاستعمارى فى مصر بعد نشوب الحرب العالمية الأولى ، وانضمام تركيا الى صف عدوتها اللدود ـ المانيا ـ فقررت بريطانيا ان يكون وجودها فى مصر ابديا ، وان تقطع خيوط الشرعية التى كانت تربط مصر بدولة الخلافة ، وكان شكل العلاقة الجديدة يتراوح بين فكرتين لا ثالثة لهما ، الأولى : « ضم » مصر نهائيا الى التاج البريطانى فيصبح المصريون رعايا بريطانيين ، وتنمحى الجنسية المصرية ، ويرتفع العلم الانجليزى ذو الصليب الأزرق على الديار المصرية ، ويتولى الحكم حاكم عام بريطانى مثلما كان الحال فى الهند واستراليا ونيوزيلندا ، وكان هذا المشروع بمثابة حكم بالاعدام على الشخصية المصرية ، وإنهاء للوجود الشرعى والقانونى للدولة المصرية العتيدة .

اما الفكرة الثانية فكانت اخف وطأة وهى اعلان « الحماية »

على مصر ، بحيث تحل بريطانيا محل تركيا فى السيادة على مصر مع بقاء الحكم فى يد حاكم مصرى يعاونه وزراء مصريون ، وبعد بحث مستفيض اخذت الحكومة البريطانية بفكرة « الضم » واعدت بالفعل مسودات الأمر الملكى ليوقعه الملك جورج الخامس ، وطلب من كيتشنر - بحكم خبرته السابقة فى مصر - ترشيح احد كبار الانجليز ليكون حاكما على مصر ، ولكن حكومة لندن تراجعت فجاة عن قرارها بسبب معارضة رجال الوكالة البريطانية فى مصر ، الذين حذروا حكومتهم من التهاب الشعور الدينى واحتمال نشوب ثورة وطنية فى صفوف المصريين ، الذين كان بعضهم - حتى هذه اللحظة - يثق بوعود بريطانيا فى الجلاء عن مصر .. فما بالك بضمها نهائيا إلى ممتلكات التاج !!

لقد اجتمع هؤلاء المستشارون وكتبوا مذكرة الى وزارة الخارجية البريطانية قالوا فيها : كيف ننتزع من دولة صغيرة آخر مظهر للكيان الفردى ؟ ان قرار الضم سيكون نهاية لصدق كلمتنا .. فلن يصدقنا أحد .. وستكون لهذا القرار عواقب وخيمة .. ولم يعد مقبولا فى القرن العشرين أن نقضى على قومية الأجناس أو نحاول ابتلاعها - وحتى لو كان ذلك ممكنا فى اى مكان آخر - فلن يكون ممكنا فى مصر .. إن طمى النيل الذى امتصه العبريون والفرس والاغريق والرومان والأتراك امتصاصا كاملا - بحيث محا كل اثر لهم - هذا الطمى ليس بالبيئة المناسبة لأية تجربة اخرى .. !!

وتراجعت الحكومة البريطانية عن قرار الضم .. واخذت بفكرة الحماية ، وخففت حكم الاعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة .. وفى يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ أعلنت الحماية المشئومة على مصر ، وفى اليوم التالى أعلنت دار المعتمد البريطانى فى القاهرة قرار عزل الخديو عباس وتعيين الأمير حسين كامل سلطانا على مصر .. او تعيينه موظفا فى دار المعتمد البريطانى بدرجة سلطان .. وبذلك تلاشت فكرة تعيين حاكم اجنبى على مصر ..

■ ■ ■

اما مقولة تعيين اغا خان سلطانا على مصر ، فقد كشفت عنها الدكتورة لطيفة سالم (كلية الآداب - بنها) فى كتابها (مصر فى الحرب العالمية الأولى) ويتبين منها انها مقولة تفتقر الى السند التاريخى

فبالرجوع إلى مذكرات اغا خان نفسه نجد ان انجلترا قد احضرته إلى مصر - لا ليحكمها - ولكن ليهدىء من روح المصريين المتذمرة . يقول اغا خان « كان الوضع السياسى مضطربا ودقيقا ، كان عباس بالأستانة ومصر بدون حاكم ، وكانت النتيجة في مصر شيئا يقارب الفوضى » .. لقد ذهبت الى مصر مع زميل لى وانصرفنا فورا الى اداء مهمتنا الدقيقة الشاقة المتشعبة الى طبقات كثيرة من المجتمع المصرى ، فكان علينا أولا أن نكسب القصر والعلماء رؤساء جامعة الأزهر ، كما كان هناك عامة الشعب المصرى منهم المتعلمون الذين يجلسون فى المقاهى يطالعون ويناقشون الى مالا نهاية اخبار الحرب .. والفلاحون الذين كانوا ولايزالون المصدر الحقيقى لقوة مصر .. كان علينا أن نقنع هؤلاء بان يؤازروا قضية الحلفاء »

إذن فلم يحضر اغا خان الى مصر كامير ليقفز إلى عرشها .. ولكنه جاء اليها كعميل مهمته كسب ولاء المصريين للتاج البريطانى . فكان شانه شان جميع العملاء الذين اطلقتهم بريطانيا طابورا خامسا لإخماد الثورة فى نفوس الشعوب المقهورة .

ولكن من هو هذا العميل الذى يعمل برتبة امير ؟

قاطع طريق

اكتسب «اغاخان» صيتا عالميا فاق شهرة نجوم السينما ولاعبى الكرة، وعلماء الذرة وزعماء الدول وكبار المصلحين، مع انه لم يكن شيئا من هؤلاء، ولكنه جمع في شخصيته الغريبة شيئا من كل هؤلاء.

وعندما يذكر اسم «اغاخان» تتبادر الى الذهن صورة ذلك الرجل الذى عاش حياته في العواصم الاوروبية مفتونا بملكات الجمال، وعارضات الازياء، مشغولا بكل متع الحياة. وكان اتباعه يزنونه كل عشر سنوات بسبائك الذهب والبلاتين وقطع الماس النادرة إجلالا وتعظيما لمكانته عندهم، ولا غرابة في ذلك فقد اضفوا عليه صفة الالوهية، فلما مات اختاروا اسوان لتكون مثواه الاخير.

والحديث عن اغاخان لا يكتمل إلا بالحديث عن طائفة (الاسماعيلية) التى تولى زعامتها على مدى ستين عاما، فجدد شبابها، وانتقل بها من غياهب الخمول والضعف والفقر، إلى دائرة الضوء والشهرة والمال والنفوذ.

والاسماعيلية هي إحدى فرق الشيعة التى تتفق جميعها على احقية الإمام على بن ابى طالب، بالخلافة ممن سبقه من الخلفاء الراشدين الثلاثة. رضوان الله عليهم اجمعين، ولكن الاسماعيلية تختلف عن غيرها بانها سلكت طريقا شططا، وقالت في على بن ابى طالب قولا فظيعا، اولئك هم الغلاة الذين اختلطوا بالمذاهب والمعتقدات التى كانت سائدة منذ القدم في الهند والعراق وفارس واليونان، واخذوا من كل مذهب بطرف، وبقدر ما اخذوا وتوغلوا.. بقدر ما بعدوا عن تيار الاسلام المصفى، وصنعوا من كل ذلك نسيجا يناقض المقرر الثابت من الاحكام والعقائد الاسلامية.

وتَعَرّضَ «الاسماعيلية» كغيرهم من طوائف الشيعة، للاضطهاد والقهر، فهاجروا من الشرق إلى الغرب وكونوا تنظيمات بالغة السرية والتعقيد، واثاروا القلاقل والاضطرابات داخل الدويلات الاسلامية المفككة، ونجح الانقلاب الذى دبروه في المغرب، فاقاموا دولة الفواطم التى لم تلبث أن انتقلت إلى

مصر عن طريق الغزو العسكرى ، فبنوا مدينة القاهرة ، واقاموا الدولة الفاطمية التى حكمت مصر زهاء قرنين دون ان تفلح فى استمالة المصريين المسلمين الى عقيدتها الشاذة . فالمصريون الذين عرف عنهم التوسط والاعتدال فى التدين والبعد عن الغلو والشطط ، رفضوا اعتناق مذهب الدولة الرسمى حتى اندثر بزوال الدولة الفاطمية ، فلا تجد مصريا واحدا يعتنق مذهبا شيعيا بالرغم من حب المصريين لأهل البيت .

■ ■ ■

وفى عصر الخليفة الفاطمي المستنصر ، تعرضت الحركة الاسماعيلية للانشقاق بين ولديه : المستعلى ونزار ، ففريق تمسك بإمامة المستعلى ، ولكنهم تفككوا عبر القرون ولم يبق منهم الآن سوى طائفة (البهرة) الذين ينتشرون فى الهند واليمن ، ومعظمهم من اثرياء التجار ، وهم الذين نجحوا فى إقناع الرئيس الراحل انور السادات بالسماح لهم بتجديد مسجد الحاكم بأمر الله الملاصق لباب الفتوح ، وأنفقوا على عملية التجديد عشرات الملايين من الجنيهات كى يجعلوا منه تحفة معمارية رائعة ، وهم لم يفعلوا ذلك إلا تمجيدا لإمامهم المتاله الحاكم بامر الله ، مدفوعين بالحنين إلى استعادة مجدهم القديم فى عاصمة المعز .

اما اتباع نزار فقد تعرضوا للاضطهاد من جانب الحكومة الفاطمية ، ففروا من مصر ، ونجح احد زعمائهم - وهو الحسن الصباح - فى إقامة دولة الحشاشين فى شمال ايران ، وهى الدولة التى كانت تتسلل منها جحافل الفدائيين لاغتيال زعماء وقادة العالم السُنى ، حتى اثاروا الفزع والرعب فى قلوب الملوك والسلاطين ، إلى ان قضى عليهم خاقان المغول هولاكو ، فلم تقم للنزارية قائمة إلى ان ظهرت بعض بقاياهم فى ايران فى أواسط القرن التاسع عشر تحت اسم « الاغاخانية » الذين ينتمى إليهم اغا خان الثالث موضوع هذا الحديث .

■ ■ ■

والاسم الصحيح لاغا خان الثالث هو : محمد الحسينى شاه ،

اما جده اغا خان الأول واسمه (حسن شاه على) فقد كان قاطع طريق ظهر فى ايران فى منتصف القرن الماضى واستطاع ان يجمع حوله عددا من الفتوات من الاسماعيلية وغير الاسماعيلية وكون منهم عصابات كانت تنقض على القرى والقوافل حتى ذاع صيته فى جميع انحاء ايران ، واصبح له نفوذ واسع على اتباعه وبات مصدر قلق للأسرة الحاكمة .

وفى ذلك الوقت كان الانجليز يعملون على بسط نفوذهم فى ايران . وكعادة الانجليز فى بث الدسائس والفتن ، وصنع العملاء ، واستمالة كل طامع فى الجاه والثروة ، فقد وجدوا ضالتهم فى هذا « اللص الشريف » فاتصلوا به ، وزينوا له القيام بانقلاب ضد الشاه ، على ان يتولى هو حكم فارس تحت رعايتهم ، وتمت المؤامرة الانجليزية ، واعلن قاطع الطريق حسن شاه الثورة ، ولكنها فشلت ، وقبضت عليه السلطات الايرانية وزج به فى السجن ، عندئذ تدخل الانجليز واقنعوا الشاه بالعفو عن الثائر الهمام على ان يغادر ايران ، وبالفعل خرج حسن شاه على من السجن تحيط به هالات البطولة المصطنعة ، فدفع به الانجليز إلى افغانستان ليلعبوا به كورقة فى صراعهم هناك مع روسيا ، ولكن الأفغان تصدوا له فرحل الى الهند واتخذ من مدينة بومباى قاعدة لنفوذه الجديد . واراد الانجليز أن يلعبوا به مرة ثالثة فى السيطرة على درة التاج البريطانى ، فجعلوا منه إماما لطائفة الاسماعيلية النزارية ، وخلعوا عليه لقب (اغاخان) ومنحوه السلطة المطلقة على اتباعه الاسماعيلية الذين فرحوا بعلو شانهم ، بعد أن ظلوا مغمورين طوال عدة قرون . وبظهور إمامهم الذى ظل فى الستر والكتمان مئات السنين ، بدأ اغا خان ينظم صفوف الاسماعيلية تحت العلم البريطانى حتى مات سنة ١٨٨١ فخلفه ابنه (اغا على شاه) وكان على درجة عالية من الثقافة ويجيد عدة لغات افادته فى نشر التعليم بين طائفته ، ووضع الأساس المادى والثقافى الذى بنى عليه ابنه اغا خان الثالث مجده المرموق .

عابد البقرة

جمع اغاخان في شخصيته متناقضات عديدة ، كان زعيما دينيا لأتباع يضعونه في مرتبة الألوهية انسياقا وراء الفكر الاسماعيلي الباطني الذى يتبنى هذه الخزعبلات منذ عصر الحاكم بامر الله ، والى جانب هذه الصورة المقدسة لاغاخان في نظر اتباعه . كان نجما من نجوم المجتمع الاوربي يخلب قلوب العذارى ويتسع قلبه الكبير جدا للفاتنات والغانيات وملكات الجمال ، وكان في نفس الوقت رائدا من رواد الاصلاح الثقافي والاجتماعي .. يقيم الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث ، والاندية ، حتى انتقل بطائفته من حضيض التخلف والرجعية الى عالم القرن العشرين ، وكان يحثهم على أن يغترفوا من منهل الحضارة الغربية كما شرب هو منه ، ويتسلحوا بالعلم والمدنية ولا يتخلفوا عن المجتمعات الأخرى ، ولم تمنعه زعامته الطائفية من ان يكون مسلما عالميا يخلع رداء الطائفية عند الملمات ويقف الى جانب قضايا الاسلام والمسلمين في كل مكان من العالم ، كان ينظر الى المسلمين عامة في الهند نظرةخالية من التعصب الطائفي وينادى بان ياخذوا مكانهم الطبيعي في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فاشترك مع غيره من زعماء المسلمين عام ١٩٠٧ في تاسيس « الرابطة الاسلامية » وانتخب رئيسا لها عام ١٩١٤ وكانت هذه الرابطة تجمع كلمة المسلمين جميعا على اختلاف مذاهبهم وتعمل على النهوض بمستواهم ، وهذه الرابطة تطورت الى حزب سياسي كان له خطره في تاريخ الهند الحديث ، وترتب على اعماله نشوء دولة باكستان .

● ● ●

وربما لا يعلم الكثيرون ان (محمد علي جناح) مؤسس دولة باكستان كان من اتباع الطائفة الاسماعيلية ، ومع ذلك فقد كان اغاخان من المعارضين لقيام دولة اسلامية مستقلة في الهند ، ويقف الى جانب الراى الذى يامل في تحقيق الوحدة الوطنية بين المسلمين والهندوس ، ويعارض تقسيم الهند الى كيانات طائفية .

والمؤرخون الذين كتبوا عن اغاخان يرصدون له عديدا من

المواقف التى تخلى فيها عن صبغته الطائفية ، ولعل ابرز هذه المواقف دفاعه المجيد عن بقاء الخلافة الاسلامية فى تركيا بالرغم من العداء التقليدى بين الاتراك « السنة » والاسماعيلية « الشيعة » وكان اغاخان يعزز العثمانيين بالاموال الطائلة ليظلوا رمزا لقوة الاسلام والمسلمين .

وتزوج اغاخان اربع مرات دون ان يجمع بين زوجتين ، وكانت اولى زوجاته اميرة ايرانية هى البيجوم اى السيدة (شاه زادى) ولكنها توفيت بعد سنوات قليلة ، فتزوج فتاة ايطالية هى (تريزا ماجليانو) وانجب منها ابنه الاكبر (على خان) الذى تزوج نجمة هوليود العالمية ريتا هيوارث وانجب منها فتاة اسمها ياسمين ثم تزوج على فتاة انجليزية ، انجبت له كريم الذى تولى إمامة الاسماعيلية بعد وفاة جده .

وفى سنة ١٩٢٧ اعجب اغاخان بفتاة فرنسية كانت تبيع السجائر والشيكولاته فى كشك بجوار مقهى الدوم بحى مونبارناس بباريس هى (اندريه كارون) وانجب منها ابنه الثانى صدر الدين ، وفى عام ١٩٤٤ تزوج عارضة أزياء انتخبت ملكة جمال العالم هى (لابروس) التى اعتنقت دينه وعقيدته الاسماعيلية وبقيت معه الى ان مات عام ١٩٥٧ وهى التى تعرف باسم البيجوم « ام حبيبة » ولاتزال تحرص على الحضور الى اسوان لقضاء فصل الشتاء فى قصرها الذى يقع فى سفح التل الذى يعلوه قبر زوجها ، ولاتزال رحلتها اليومية معروفة حيث تصعد كل صباح لتضع وردة حمراء على ضريح اغاخان .

● ● ●

ولا ينبغى انهاء الحديث عن اغاخان دون توضيح مسالة « الالوهية » التى خلعها عليه اتباعه ، وكان الظن ان هذه المسالة من قبيل المبالغة او التشنيع الذى يتعرض له الاسماعيلية من جانب خصومهم ، ولكن الدكتور محمد كامل حسين ــ وهو من ادق الباحثين فى تاريخ الاسماعيلية وعقائدهم يروى لنا قصة غريبة تؤكد ان اغاخان كان سعيدا بمعتقدات اتباعه فيه ، وله فيها تبرير غريب .

يقول الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه (طائفة الاسماعيلية : تاريخها ، نظمها ، عقائدها) : ومن ذكرياتى معه

رحمة الله عليه ، انى كنت اناقشه فى بعض المسائل الفلسفية الخاصة بتطور عقيدة الاسماعيلية ، وطالت المناقشة وتفرعت من موضوع الى موضوع مما جعلنى اعجب اشد الاعجاب بعقليته وثقافته وسعة اطلاعه ، واحاطته بكل ما يتعلق بالاسماعيلية احاطة تامة ، فاستأذنته فى توجيه سؤال اليه ربما اغضبه ، فلما وعدنى بعدم الغضب قلت له : لقد ادهشتنى بثقافتك وعقليتك ، فكيف تسمح لاتباعك بان يدعوك آلها ؟

فضحك أغاخان طويلا جدا ، وعلت قهقهاته ، ودمعت عيناه لكثرة الضحك ثم قال :

- هل تريد الاجابة عن هذا السؤال : ان القوم فى الهند يعبدون البقرة .. ألست خيرا من البقرة !!

ويعقب الدكتور محمد كامل حسين على هذا التبرير العجيب قائلا : فلم احر جوابا بعد ذلك ، وخرجت من عنده وانا افكر فى هذا الرجل الذى اعتقد فيه اتباعه الالوهية ، او على الأقل أن نور الله حل به ، وكان هو يعلم انه ليس بإله ولم يمسسه نور الله ، ومع ذلك ترك اتباعه فى اعتقادهم دون ان يرشدهم الى الحقيقة ، وترك الناس يتقولون فيها الاقاويل ، وهو يسخر من هؤلاء وهؤلاء ، ويستمر فى حياته التى اختارها لنفسه دون ان يجعل لاحاديث الناس عنه اثرا ، او يقيم لهم وزنا .

أولاد تيمور

عجيب امر العائلة التيمورية ..! لم يكن يجرى في عروق ابنائها قطرة دماء مصرية، ومع ذلك احبوا مصر حبا صادقا، وارتبطوا بشعبها ارتباطا وثيقا. خالطوا أولاد الحوارى في حى الازهر، وعايشوا الفلاحين في عين شمس، وتشربوا الروح المصرية الخالصة ثم عبروا عنها بارقى وسائل التعبير : الفن والادب، ولا عجب ان تصدر اول صيحة لإبداع ادب مصرى صميم في مطلع القرن من الاخوين : محمد ومحمود تيمور.

بم نفسر هذه الظاهرة. توهج العاطفة الوطنية عند بعض الاتراك المتمصرين، شريف باشا والبارودى وشوقى وقاسم امين واولاد تيمور؟ اديبنا الكبير يحيى حقى يفسرها بأن العرق الحديث أشد العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباها لفضله وجماله .. فليست العبرة في أن يولد الكاتب في أحضان الطبقات الشعبية، بل في قدرته على الاحساس بها وفهمها بفضل حب وتجاوب روحى.

وهذا على أى حال تفسير مقبول، وتشهد على صحته حوادث التاريخ، وينطبق على الأستاذ يحيى حقى نفسه صاحب قنديل أم هاشم، والبوسطجي وخليها على الله، وغيرها من الأعمال الادبية ذات النكهة الشعبية.

● ● ●

أما رأس الأسرة التيمورية - محمد تيمور كاشف - فقد هبط مصر ضمن الحملة العثمانية التى جاءت لتهدئة الاحوال بعد خروج الحملة الفرنسية، وكان بين افرادها محمد على. وكان تيمور احد الاعمدة التى ساندت محمد على في تاسيس ملكه وتولى بعض الوظائف الادارية الكبرى وبنى لنفسه قصرا منيفا في درب سعادة، وانجب ولدا وحيدا اسمه اسماعيل لم يسلك نهج ابيه في حقل الادارة العليا، فقد شغله العلم عن وهج السلطة، وجعل من قصره مجمعا للعلماء والادباء والفقهاء، وفي هذا المناخ الادبى تفتحت مدارك ابنته عائشة فاصبحت شاعرة مرموقة، وابنه احمد باشا تيمور الذى لم يعرف تاريخ مصر

الحديث نظيرا له فى حب العلم وعشق البحث واقتناء المخطوطات النادرة وتحقيقها حتى بلغ مجموع نفائسه ٧١٣٤ مجلدا بين مطبوع ومخطوط اهداها كلها الى دار الكتب . كما خلف للادب والفن ولديه الاديبين الكبيرين محمد ومحمود .

فى هذا القصر الذى يشبه دار الحكمة فى عصر المامون ، تنفس الصبيان عبيرا ثقافيا معتقا . وجالسا زمرة عجيبة من البشر الذين لا يمتون بصلة الى الطبقة الارستقراطية التى ينتمى اليها صاحب البيت . وإنما هم خليط من رجال العلم والفقه والادب . ومعظمهم من الفقراء وكلهم من طبقة الشعب . فلم تكن مجالس احمد تيمور باشا ـ فيما يسجل الناقد الكبير عباس خضر ـ تضم ابناء الذوات . بل كان روادها ممن تجمعهم بصاحب البيت الصلات الفكرية المشتركة . ومن هذا العالم السحرى الاصيل انطلق الصبى محمد تيمور لايلوى على شىء . ولا على احد من طبقته الارستقراطية فينزل من قصره يبحث عن الادباء والفنانين

ويذهب محمد تيمور الى باريس لينهل من علمها وثقافتها كعادة ابناء الذوات فى ذلك العصر . ولكن مصر لا تفارق خياله . فلا يكف عن المقارنة بين حال مصر وحال باريس . ثم يعود من هناك وقد تشبعت نفسه بمشاعر التمرد على القديم والرغبة فى التجديد . ويقود نهضة ادبية قوامها ابراز الشخصية المصرية المستقلة عن الشرق والغرب ..وايجاد فن شعبى صادق الاحساس وهو يعبر عن افكاره عن طريق المقالة الصحفية والمسرحية الاجتماعية بل يقف على خشبة الاوبرا يمثل فيراه السلطان حسين فيعجب بشجاعته وتمرده ويأمر بتعيينه امينا فى القصر . وهى وظيفة يتمناها ابناء الذوات . ولكن فتانا يضيق بها ويراها قفصا من ذهب . فما إن يموت السلطان حتى يستقيل تيمور ويتحرر من رق الوظيفة ويعود الى عمله الرحب المنطلق . ويتسلطن فؤاد وقد اتى به الانجليز من الكباريه الى العرش فيستقبله تيمور وسيد درويش بمسرحية « العشرة الطيبة » التى يسخر فيها تيمور من فساد الحكم . ويوجه الى السلطان رسالة على لسان الأغوات يقول فيها : عشان مانعلى ونعلى ونعلى .. لازم نطاطى نطاطى .. نطاطى . ويفهم فؤاد الاشارة فيوعز بوقف المسرحية .. ولا يمضى تيمور فى مشوار التمرد .. فقد اختطفه الموت وهو فى شرخ الشباب .. وودع الحياة قبل ان يبلغ الثلاثين من عمره

العفريت ..!

في اليوم الأول من أغسطس ١٨٩٦ خلت بيوت القاهرة من سكانها ، وهرع الناس - رجالا ونساء وأطفالا الى الشوارع ، واحتشدوا على طول الطريق الممـــتد من بولاق الى القلعة عبر ميدان العتبة الخضراء ، ليشهدوا مخلوقا غريبا يزحف على قضبان ملساء ، والأولاد من خلفه يركضون ويتصايحون "العفريت .. العفريت"

ولم يكن ذلك العفريت سوى أول عربة ترام تشق شوارع القاهرة في أول رحلة تجريبية لهذا الكائن الحضاري الذى سيغير وجه المجتمع القاهرى تغييرا شاملا . وفي العربة كان يجلس ناظر (وزير) الأشغال حسين فخرى باشا ومعه كبار موظفيه ، وقد تملكهم الزهو والخيلاء . وكانت المركبة - كما وصفها مندوب " المقطم " - " تسرع حتى تسابق الرياح متى خلت لها الطريق . وتارة تسير رويدا رويدا ، او تقف بغتة عند اعتراض الأولاد والسابلة طريقها . وقد وقف سائقها ووضع يده على ميزان تسييرها وإيقافها . ويصل بينها وبين السلك فوقها عمود من الحديد لتمام الدورة الكهربائية .

وبعد ايام من تلك المرحلة التجريبية المثيرة ، احتفلت الشركة البلجيكية رسميا بتسيير الترام على الخطوط الثمانية التى كانت تتجمع في ميدان " العتبة " وتمتد إلى اطراف القاهرة . ووصفت الصحف هذا الحادث الفريد بقولها "شهد اهل العاصمة امس مشهدا قلما شهد مثله اهالي المشرق ، ولم يخطر على قلب بشر منذ مائة عام ، وهو ان تجرى مركبات كبيرة تقل المئات من الناس ، لا بقوة الخيل ولا بقوة البخار ، بل بقوة الطبيعة التى تسبب البروق . هذا هو الترامواى الكهربائى

وفي الكتاب البديع الذى وضعه محمد سيد كيلاني عن " ترام القاهرة " معلومات طريفة عن عملية تنظيم ركوب الترام . . فقد كان يحظر ركوبه على كل محدث غوغاء او سكران ، او مصاب بعاهة تشمئز منها النفس ، ولا يجوز تسلق العواميد المعدة للحركة الكهربائية ، أو تعليق شيء عليها او اقامة اشارات كاذبة .

ونستخلص من دراسة محمد سيد كيلانى ان تسيير الترام كان حدا فاصلا في تاريخ المجتمع القاهرى ، انتقل فيه من طور

البداوة والتأخر ، الذى يتمثل فى استخدام الحمير والبغال ، إلى طور الحضارة والمدنية الذى يتمثل فى استخدام القوة الكهربية ، وكان سواد الشعب فى القاهرة يعانى مشقات هائلة فى الانتقال من جراء استبداد أصحاب الحمير والعربات وتحكمهم فى الناس وما يوجهونه إلى الجمهور من الفاظ نابية فلما انشىء الترام ، حدثت ثورة هائلة فى جميع نواحى الحياة القاهرية ، فتلاشت العزلة بين أحياء المدينة ، وسهلت عملية الانتقال وطاب السهر ، واصبح فى متناول الشبان قضاء الليل فى الملاهى والمراقص ، وبدأت الروابط العائلية فى التفكك ، وضعفت رقابة الآباء على الابناء ، كما ساعد وجود الترام على اتساع حركة العمران ، ونشطت الحركة التجارية ونشأت المحلات الكبرى فى منطقة العتبة . ولما سهل على الناس الانتقال عظم امتزاجهم واشتد اختلاطهم ، وبدا الرأى العام يتبلور ويصبح خطرا على الجهات الحاكمة ، وكثرت الأندية الثقافية والرياضية والصحف والمجلات وكان من الطبيعى ان ينعكس هذا كله على الادب .. فظهر « الأدب الترامى .. » الذى يسجل معالم الحياة الجديدة بما فيها من خير وشر ، وخلاعة ومجون ، وتقدم وتأخر .. وخصوصا بعد ان أصبح الترام سببا فى وقوع حوادث لم يألفها جمهور القاهرة من قبل وفى ذلك يقول شاعر خفيف الظل اسمه إلياس حنيكاتى

إن الترامواى على القاهرة مصيبة يالقومنا قاهرة
فكم قلوب هالها رهبة وكم نفوس غالها طاهرة
يجرى وعزرائيل من خلفه يمد للقبض يدا غادرة
فيارجال الضبط ما ضبطكم واين الأعين الساهرة

وبمرور السنين ، يضحى الترام وسيلة متخلفة بالقياس إلى وسائل النقل الأكثر حداثة وسرعة ، وانطبقت عليه سنة الحياة التى لا ترحم العاجزين عن مواكبة ايقاع العصر ، فكاد يختفى من شوارع العاصمة ، ترى .. ماذا سيقول سكان القاهرة بعد عامين عندما يشاهدون مركبات المترو وهى تشق بطن الأرض ؟؟ وهل سيصيحون كما صاح اسلافهم : العفريت .. العفريت ؟؟ اغلب الظن انهم لن يفعلوا .. لأن كلمة عفريت نفسها قد اختفت من قاموس الألفاظ الدارجة عند اطفالنا .

غرام الشيوخ

أصبح من الواجب ان نتحدث عن الشيخ على يوسف ، وقد انتقل الوفد - حزبا وجريدة - الى المقر الجديد الذى يقع فى شارع يحمل اسم هـــــذا العلم الذى خفــق فى سماء مصــــر فى مطلع القرن ، فكان ملء الاسماع والابصار ، والبطل المغوار فى حقل السياسة والأدب والصحافة ، والنجم الساطع فى دنيا العشق والغرام . واكتسب من كل اولئك مجدا رفعه الى مصاف العلية المرموقين . وحقق ما كان يصبو اليه من جاه وثراء ونفوذ .. ثم إذا به - فجاة - يبدد كل هذا المجد ، ويعتزل الأضواء والشهرة والصخب ، ويسعى إلى وظيفة شيخ طريقة صوفية !! فكان مثله كمثل الرابح الذى خسر كل شيء وهو لم يزل فى حلبة الصراع ، فيلقى سلاحه وهو فى يوج انتصاره ويدير ظهره الى خصومه قبل ان ينقشع غبار المعارك ، ثم يتركهم وهم فى ذهول من امره لياوى الى ركن ظليل فى تكية صوفية متعلقا بأهداب الانتساب الى بيت من بيوت السادة الاشراف .. عساه يجد فى الشرف المصطنع ما يرضى كبرياءه الجريح ، ويعالج العقدة التى دمرت سعادته ونغصت حياته - عقدة النسب الوضيع - وحرمته لذة الاستمتاع بثمار النصر التى اجتناها بيظافره فى مجتمع كان يقيم اعتبارا كبيرا لعوامل الحسب والنسب .

• • •

جاء على يوسف من اعماق الصعيد شابا يافعا الى رحاب الأزهر مثل ملايين من ابناء الفقراء سبقوه على الدرب بحثا عن اثارة من علم تؤهلهم لشغل وظيفة متواضعة العائد . ولكن شيخنا الشاب كان يحمل بين جنبيه روحا وثابة ، وهمة عالية ، وارادة حديدية وعنادا فطريا ضد عناصر المقاومة التى تحول بينه وبين ما يريد ، كانت نفسه تجيش برغبة عارمة فى ان يكون شيئا مذكورا ، فكان عليه ان يقتحم العالم الفوقى الذى يمسك فى يده زمام السلطة والنفوذ والجاه والثراء ، ولم يكن شيخنا يملك المفاتيح التى تمكنه من دخول ذاك العالم الصاخب ولكنه كان يملك من القدرات الذاتية والملكات العقلية والخلقية ما يعوضه عن عراقة النسب وفخامة الحسب وكان عليه ان يوظف هذه القدرات ليصل الى

مبتغاه .. فكان ذئبا بين الذئاب يناطح اضرابه المتكالبين على مائدة السلطان وكل يحاول الزلفى الى صاحب العرش ، وكان عليه ان يكون ثعلبا شديد الدهاء ، يراوغ ويناور حتى يفوز بقلب الامير .. وكان ما اراد ، فإذا به بين عشية وضحاها جليس الخديو ونديمه ومكمن سره ولسانه الناطق ، واصبحت صحيفته (المؤيد) كبرى صحف الشرق في آخريات القرن الماضي هي صوت السلطة الشرعية في مقابل (المقطم) صوت السلطة الفعلية والناطقة باسم الاحتلال ، وفي مواجهة (اللواء) صوت الشعب النابض بالحرارة الوطنية .

وتنشا بين الصحف الثلاث او قل بين السلطات الثلاث معارك طاحنة يخوضها الشيخ شاهرا قلمه الفتاك في وجه خصوم الخديو غير عابئ بسخط الجماهير عليه وعلى سيده ، وكان يردد : والله ما يعنيني أن يكون الناس جميعا في صف واحد ، وانا والحق الذى اعتقده بإزائهم في صف واحد .

● ● ●

وتشهد الحياة السياسية المصرية في مطلع القرن طفرة انتقالية تتمخض عن ظهور الاحزاب السياسية لاول مرة في تاريخ البلاد ، ولم يكن من الغريب أن تولد هذه الاحزاب في حجر الصحافة التى كان لها دور الريادة في ايقاظ الحس الوطنى وتحريك الجماهير بعد فترة الركود التى رانت على مصر منذ ابتليت بالاحتلال البريطانى ففى احضان (اللواء) ولد الحزب الوطنى بين يدى زعيمه الشاب مصطفى كامل وهو يومئذ عند آخر عهده بالدنيا واول عهده بالاخرة ، وفي احضان (الجريدة) ولد حزب الأمة ليعبر عن مصالح اثرياء مصر في مواجهة فلول التركية البائدة والعائدة في شخص عباس الثانى ، وينهض الفيلسوف احمد لطفى السيد ليتكلم باسم (اصحاب المصالح الحقيقية) وينشر بذور الفكر الليبرالى على صفحات الجريدة ، ومن حوله الجناح المثقف في معسكر الارستقراطية المصرية الناشئة .

ولم يكن للخديو الشاب ان يقف متفرجا في الساحة التى تفور بالأفكار والمصالح المتضاربة ، كان عليه أن ينشئ حزبا يتحدث باسمه ويدافع عن مبادئه التى تقف عند الحد الفاصل بين وطنية مصطفى كامل الجامحة ، وعقلانية أحمد لطفى السيد المتهادنة مع

الاحتلال ، وكان على الشيخ على يوسف ان يلبى رغبة الأمير ويصنع له حزبا .. اسماه حزب (الاصلاح على المبادىء الدستورية) ، وكاى حزب يولد فى حجر السلطة فيكتب شهادة وفاته مع شهادة ميلاده ، كان مصير هذا الحزب الأميرى ، فكان معدوم التاثير والفعالية فى الشارع المصرى ، بينما ظل صوت (المؤيد) اقوى تاثيرا واكثر فعالية حتى خلع البعض على صاحبه لقب (اعظم صحفى فى العالم) ووصفوا صحيفته بأنها (تايمز الشرق) ومع ذلك لم تشبع هذه الامجاد طموحات على يوسف .. فراح يبحث عن المجد فى دنيا الحب .. فلم يجد إلا الجحود والعذاب والحرمان .

عاشقان جريئان

كان مكتب الشيخ علي باشا يوسف في صحيفة « المؤيد » اشبه بمنتدى فكرى يتردد عليه وجوه القوم من رجال الدين والسياسة والأدب ، وكان من ابرز هؤلاء : السيد عبدالخالق السادات عميد بيت السادة الوفائية ، وهو من اعرق البيوت المصرية وينتهى نسبهم الى الحسن السبط ابن الامام علي كرم الله وجهه ، واعتاد السادات أن يصحب معه الى المؤيد صغرى كريماته (صفية) وكانت صبية مليحة على شيء من البدانة التى كانت من سمات الجمال في ذلك العصر ، وراقت الصبية في عين الشيخ علي وصادفت من نفسه هوى ، فخطبها من ابيها الذى رحب بمصاهرة رجل ذائع الصيت ، كبير الجاه لقرب موقعه من الخديو عباس ، وتجاهل الاب فرق السن بين الشيخ والفتاة ، كما تجاهل انعدام الكفاءة الاجتماعية بين رجل مجهول النسب ، وأسرة تحظى بشرف الانتساب الى البيت النبوى ، وقبض الأب مهر ابنته وسافر الجميع لقضاء الصيف في ربوع تركيا كعادة الوجهاء في ذلك العصر ، على ان يتم الزواج بعد العودة الى مصر .. ولكن ..

بعد العودة شعر الشيخ علي يوسف بأن السادات يماطل في إتمام العقد . بل صرح بانه لن يصاهر رجلا لا يضارعه حسبا ونسبا . ولما كان الشيخ العاشق واثقا من تعلق الصبية به ، واستعدادها لإتمام الزواج رغم معارضة ابيها ـ فقد اقدم العاشقان على خطوة جريئة في عرف العصر ، وهي إبرام عقد القران في بيت آخر خارج بيت الوالي الشرعي ، ووقع اختيارهما على سراى البكرى بالخرنفش محلا مختارا لإتمام العقد .

● ● ●

وكان السيد توفيق البكرى ـ نقيب الاشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ـ على رأس البيت الآخر من بيوت العلية الاشراف هو بيت السادة البكريين الذين ينتهي نسبهم الى ابى بكر الصديق رضى الله عنه . وكان البيتان الكريمان ـ البكرى والوفائي ـ يتناوبان زعامة نقابة الأشراف ، وهو منصب كان له

جليل الخطر وعظيم الأثر فى نفوس المصريين لما عرف عنهم من تعظيم وإجلال لكل من ينتمى لأهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه الأبرار.

وأراد السيد توفيق البكرى أن يجمع البيتين تحت لواء واحد عن طريق النسب حتى تظل له نقابة الأشراف، خاصة أن السيد عبد الخالق السادات لم ينجب غير ثلاث بنات، فتزوج توفيق من كبراهن (حفيظة) وزوج الوسطى (أسماء) من ابن أخيه عبد الحميد البكرى حتى تتوافر له وراثة الزعامة إذا حرم العم من إنجاب الولد، وبقيت الصغير (صفية) لتكون من نصيب على يوسف، ولتكون بطلة هذه القصة التى هزت المجتمع المصرى من إعماقه، وانقسم بسببها الرأى العام بين مناصر للتقاليد والآداب الاجتماعية، ومؤيد للتحرر والخروج على الأعراف الموروثة، ولم يكن غريبا أن تكون هذه القصة مجالا للصراع بين القوى السياسية الكبرى: المعتمد البريطانى كرومر والخديو عباس والزعيم الشاب مصطفى كامل وكل الأحزاب السياسية فضلا عن المؤسسات الدينية التى هبت للدفاع عن حرمة الشرع.

● ● ●

لقد فوجيء السيد توفيق البكرى بصديقه الحميم على يوسف باشا وشقيقة زوجته ـ صفية ـ يدقان عليه باب قصره المنيف بالخرنفش ـ الذى كان يوما مقرا وسكنا لوالى مصر عباس الأول ومن بعده سعيد باشا ـ ويضعانه أمام الأمر الواقع ويطلبان منه إتمام عقد الزواج على سنة الله ورسوله، وأسقط فى يد الرجل، فقد كان يعلم جيدا مخاطر هذا التصرف الذى يتنافى مع تقاليد السادة الأشراف، فضلا عن منافاته للآداب العامة التى لا تقبل بحال ان تعقد فتاة زواجها دون رغبة أبيها، ولكنه وجد نفسه أمام عاشقين مصممين على تنفيذ عزمهما، ويهددان بتنفيذ غرضهما فى مكان آخر إذا أصر على الرفض، فما كان منه إلا الخضوع والاستسلام، وبعث يستدعى الشيخ حسن السقا إمام وخطيب الجامع الأزهر فتولى الوكالة عن الفتاة، وشهد على العقد زوجا أختيها توفيق وعبد الحميد البكرى وشرب الجميع الشربات.

● ● ●

وبعد ٤٨ ساعة، وفى يوم السبت ١٦ يولية ١٩٠٤ خرجت

صحيفة (المقطم) تزف الى قرائها نبا ، عقد قران السيد على يوسف على إحدى كريمات السيد عبد الخالق السادات فى حفلة ضمت الكثير من العلماء ، ثم قصدت العروس بعد ذلك الى المنزل الذى اعده لها بناحية الظاهر ، وتعمدت المقطم إغفال ذكر المكان الذى عقد فيه القران إمعانا فى تضليل الاب الذى جرح فى كرامته امام اتباعه ومريديه ، وإذلاله امام الراى العام الذى يضع بيت السادات حيث هو من التكريم .. وبعث السادات بخطاب الى الصحف ينفى فيه علمه بالزواج ، ويؤكد أن الزواج - إن وقع - فعلى غير رضاه ، وانه ابلغ الأمر الى جهات الاختصاص ، وكان من الطبيعى ان تمتنع (المؤيد) عن نشر الرسالة ، ولكن المريب كان امتناع (المقطم) عن نشرها بعد ان نشرت الخبر وخرجت (اللواء) وفى صدر صفحتها الأولى رسالة الاب الجريح ، فكانت اشبه بقنبلة انفجرت فتطايرت شظاياها فى رقعة واسعة من الأرض .. هى كل ارض مصر .

أبوخطوة يقلب المائدة

بعد عشرة ايام فقط من اعلان زواج الشيخ على يوسف وصفية السادات ، بدأت محكمة مصر الشرعية في نظر الدعوى التى رفعها السيد عبدالخالق السادات طالبا فســـخ العقد لانعدام شرط الكفاءة بين الزوجين ، واستند الأب إلى ان الشيخ على يوسف ـ وإن كان صحفيا مرموقا وأديبا مشهورا وزعيما لحزب سياسى واحد المقربين من أمير البلاد ـ فإنه يفتقر إلى النسب الرفيع الذى يؤهله للزواج من إحدى سليلات البيت النبوى .. فكل هذه المكتسبات مستحدثة ولا تغير من الواقع شيئا ، وهو ان الشيخ على من « العامة » الذين لا يحق لهم التطلع الى مصاهرة الأشراف .

وفى يوم نظر القضية غصت ساحة المحكمة الشرعية بباب الخلق باشتات من البشر من شتى الطبقات والثقافات .. جاءوا من كل فج عميق ليشهدوا وقائع هذه القضية التى تمس بعض مقدسات المصريين فى احترام العلاقات الأسرية ، ومراعاة الآداب الاجتماعية والتقاليد الموروثة ، وكانت الكثرة الغالبة من الرأى العام تقف فى صف الأب المنكوب ضد الشيخ الذى اغوى فتاة شريفة وحرضها على التمرد والخروج على الآداب فتزوجت بغير رضاء والدها ، بينما كانت القلة المثقفة المتحررة من التقاليد تناصر الشيخ على يوسف الذى صنع مجدا لم يستمده من عراقة الحسب والنسب ، ولكن من شرف العمل والجهد والكفاح .. ولا ترى هذه الفئة عيبا فى خروج فتاة على ولاية أبيها لتتزوج الرجل الذى احبته .

● ● ●

تلك كانت عناصر الصراع بين جبهة التقاليد والأخلاق ، وجبهة التحرر والانفلات ، ولكن هذا التمايز الأخلاقى الظاهرى كان يخفى وراءه صراعا اشد واعتى بين القوى السياسية الجبارة التى وقفت وراء الكواليس كل منها تؤيد طرفا من أطراف القضية ، وتسعى لتصفية حسابات سياسية لا علاقة لها بجوهر القضية . فمصطفى كامل وجدها فرصة ذهبية للانتقام من غريمه اللدود على يوسف ، الذى كان دائم التهجم على الزعيم الشاب واتهامه

بالرعونة والتطرف ، وانهالت معاول مصطفى كامل فى (اللواء) على رأس صاحب (المؤيد) وزعيم حزب الإصلاح ، ولكنه فى الحقيقة كان يقصد رأس الأفعى - عباس الثانى - الذى نفض يده من معسكر الحركة الوطنية وانحاز نهائيا إلى صف الاحتلال بعد توقيع الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فى ابريل ١٩٠٤ أى قبل اربعة شهور فقط من انفجار قضية الزوجية .

وكان عباس يعى جيدا ابعاد الهجوم الشرس الذى شنه مصطفى كامل على نديمه على يوسف ، ويعرف أنه المقصود بالهجوم حتى لو تذرع صاحب اللواء بحجة الدفاع عن آداب الشرع وحرمة التقاليد ، ووجد الخديو نفسه مضطرا إلى الوقوف الى جانب رجله فى محنته ، ومحاولة إنقاذه من الورطة الغرامية التى تطورت إلى محنة سياسية ، وضعت القصر فى دائرة الاتهام ، فعباس نفسه كان متهما بأنه هو الذى أوحى الى الشيخ على بفكرة الزواج من بنت السادات وانتحل له نسبا شريفا مزيفا حتى تتاح له فرصة رئاسة مشيخة السادات الوفائية ، فيضمن ولاء هذه الفرقة الدينية الثرية بوضعها تحت رئاسة احد رجاله الأصفياء ، وكان عباس يسعى دائما للاستيلاء على مناصب الرئاسات الدينية فى مصر ، ولا سيما الرئاسات التى لها إشراف على الطرق الصوفية وأوقافها ذات الايراد المالى الوفير ، وكانت هذه الرغبة محلا لصراع تاريخى معروف بين الأمير ومفتى الديار الإمام العظيم محمد عبده الذى رفض بإباء وضع الأوقاف الخيرية تحت سيطرة الخديو .

● ● ●

ولم يتخلف جبار الاحتلال - اللورد كرومر - عن المشاركة فى إذكاء حمى الصراع بين اطراف قضية الزوجية ، فاختار الوقوف إلى جانب على يوسف تسديدا لحسابات قديمة اتخذ فيها الشيخ موقف المؤيد للانجليز ، وليقطع بينه وبين الحركة الوطنية التى اتخذت موقف الشماتة من الشيخ العاشق ، ولتكون مناصرة الانجليز لرجل القصر القوى أولى ثمار المصالحة بين كرومر وعباس ، وإغراء الأمير بمزيد من التورط فى مهادنة الاحتلال .

تلك كانت طبيعة القوى العظمى التى تخفت وراء القوى الصغرى استعدادا للجولة الحاسمة فى ساحة القضاء . وكانت

كل منها تظن انها سوف تكسب الجولة ، ولم يخطر ببال هذه القوى الجبارة ان كل ما حاكته من مؤامرات وحيل سوف ينهار امام جبروت شيخ ازهرى ضئيل الحجم قوى الشكيمة صلب الراى .. لا يكاد يظهر من خلف منصة القضاء التى يجلس عليها .. إسمه الشيخ احمد ابو خطوة فلم يكد ينفرج الستار عن الفصل الأول من القضية حتى اهتزت مصر من اقصاها إلى اقصاها بسبب الحكم الذى اصدره .. وقلب به المائدة على رؤوس اصحابها .

إضراب القضاة

كان نظر قضية الزوجية امتحانا رائعا لاستقلال القضاء الشرعي ، فالسلطة ـ ممثلة فى الخديو عباس واللورد كرومر ـ كانت تساند الشيخ علي يوسف وتسعى جهدها لكي يصدر الحكم فى مصلحته ، ويرد له اعتباره الذى اطاح به تهجم صحف الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل . وكان الرأى العام الذى يقدس التقاليد والآداب الاجتماعية يساند السيد عبد الخالق السادات والد الفتاة التي هجرت بيت ابيها لتعيش تحت سقف واحد مع زوجها على سنة الله ورسوله ، إلا ان هذا الزوج كان فى رأى الناس مغتصبا اغار على النسب الأنجب !

وفى الجلسة الأولى لنظر القضية امام محكمة مصر الشرعية طلب محامى الزوج حسن صبرى باشا (رئيس الوزراء فيما بعد والذى مات اثناء إلقائه خطاب العرش سنة ١٩٤٠) التاجيل حتى يتمكن من الاطلاع على جوانب القضية ، فانبرى له الشيخ عثمان الفندى محامى السادات قائلا : إذا رأت المحكمة التاجيل فلتأمر بالحيلولة بين الزوجين إلى ان يبدا النظر فى الموضوع . فما كان من القاضى الشيخ احمد ابو خطوة إلا ان امر باقامة الحيلولة بين الزوجين وإخراج السيدة صفية من بيت زوجها بالقوة الجبرية واعادتها الى بيت ابيها . ومعنى ذلك انه اخذ بوجهة النظر التى ترى ان الزواج قام على اسلس باطل ، وان استمرار العشرة بينهما هو اعتراف بدوام الخطيئة بينهما ، الأمر الذى يستوجب التفريق بينهما لحين البت فى الطلب الأصلى وهو فسخ عقد الزواج .

وتقبلت الجماهير المكتظة فى ساحة المحكمة قرار القاضى بالهتاف والتهليل ، اما الشيخ على يوسف فقد وقع عليه القرار وقوع الصاعقة وسافر لتوه الى الاسكندرية ليدبر الأمر مع ولاة الأمر الذين كانوا يقضون هناك شهور الصيف لعلهم يساعدونه فى الخروج من هذه المحنة خاصة ان زوجته اخبرته بانها لن تعود الى بيت والدها إلا جثة هامدة وساعد على تأزم الموقف ان صحيفة (المقطم) الناطقة باسم الاحتلال قالت بعد اجتماع الشيخ على مع بطرس غالى باشا وزير الحقانية (العدل) ان امر الحيلولة لن ينفذ ، فانبرت لها (اللواء) بسيل من المقالات تحذر

فيها من تدخل السلطات فى شئون القضاء ، وتستنفر الراى العام للدفاع عن حرمة الشرع وكرامة التقاليد واستقلال القضاء .

● ● ●

وفى الساعة السابعة من صباح ٢٧ يوليو ١٩٠٤ اتصل الشيخ عبدالرحمن الأفندى قاضى قضاة مصر بمحافظ القاهرة ، وساله عما تم بشان تنفيذ امر الحيلولة ؟ فاجابه المحافظ بان الاوراق لا تزال معروضة على رئيس الوزراء ووزير الداخلية ـ مصطفى باشا فهمى ـ بالاسكندرية . عندئذ ادرك قاضى القضاة ان الحكومة ماضية فى تعويق احكام القضاء وتعطيل قرار الحيلولة ، فاتصل على الفور بالقاضى الشيخ أحمد ابو خطوة وطلب منه ان يذهب الى قاعة المحكمة وينتظر منه كتابا يقرؤه فى الجلسة عند افتتاحها ، واتفق الرجلان على ان يتخذا مع الحكومة إجراء يهذبها ويعلمها ان حكم القاضى واجب الاحترام ، وان القضاء يجب ان يكون بمناى عن تدخلات السياسة وشئون الحكم .

وعند بدء الجلسة اتخذ الشيخ ابو خطوة موقعه على المنصة دون ان يتكلم .

وظلت الجماهير تترقب بلهفة انجلاء الموقف ، ولم يكن يسمع سوى وجيب القلوب يتردد فى القاعة وقد خيم عليها صمت رهيب . ومرت فترة كانها دهر حتى تلقى الشيخ ابو خطوة ظرفا يحتوى على رسالة قاضى القضاة ففض الظرف وقرا الرسالة على الجمهور ، وكانت تتضمن قرارا صريحا بان تتوقف جميع محاكم مصر الشرعية عن نظر القضايا المعروضة عليها إذا لم تلتزم الحكومة بتنفيذ حكم القضاء واحترام قراراته ، فكانت اول دعوة الى الاضراب العام فى تاريخ القضاء المصرى ، ولم يكد الشيخ ابو خطوة يعلن قرار الاضراب العام ، حتى ضجت القاعة بالهتاف بحياة القضاء واستقلاله ، وخرجت الجماهير الى ميدان باب الخلق وقد اشتعلت حماستها ، فأحاطت بمبنى المحافظة الملاصق لمبنى المحكمة تعبيرا عن سخطها لتدخل السلطات الحاكمة فى شئون القضاء ، وطيرت وكالات الأنباء الخبر إلى كل اركان الدنيا .. وتكهرب الجو فى جميع انحاء مصر ، ودب الفزع الى نفس الخديو عباس حلمى الثانى ومعه اللورد كرومر ، واجتمع مجلس الوزراء على الفور واصدر بيانا اعلن فيه التزامه بتنفيذ

قرار الحيلولة ، واضطرت الدولة بكل هيلمانها إلى أن تتراجع امام سطوة شيخين ازهريين لا يملكان من مظاهر القوة سوى شجاعة القلب ، ويقظة الضمير ، واحترام النفس ، والترفع عن تملق الحكومة ، والتمسك بكرامة القضاء .

وبعدها دخلت قضية الزوجية منعطفا جديدا .

نهاية المأساة

أصرّت السيدة صفية السادات على عدم العودة الى بيت ابيها تنفيذا لقرار المحكمة الشرعية باقامة الحيلولة وعدم المخالطة بينها وبين زوجها الشيخ على يوسف الى ان تفرغ المحكمة من البت فى الموضوع الاصلى ، وهو طلب فسخ عقد الزواج لانعدام شرط الكفاءة بين الزوجين ، وازاء اصرار الشيخ ابو خطوة على تنفيذ امر الحيلولة ، تم الاتفاق على أن تغادر صفية بيت الزوجية لتقيم عند رجل مشهود له بالتقوى والصلاح وحسن السيرة هو الشيخ الرافعى ، وقبلت صفية هذا الحل ، وانتقلت بالفعل الى بيت الرافعى ولكنها لم تنفذ أمر الحيلولة بالدقة التى ينتظرها الشيخ ابو خطوة ، فقد ظلت الاتصالات مستمرة بينها وبين زوجها عبر رسائل تفوح عشقا وهياما .. وتصرخ بلوعة الحبيبين اللذين فرقت بينهما التقاليد العاتية ، بعد أن جمعت بينهما الشريعة السمحاء .

وكانت لدى الشيخ على خادمة اوربية تتولى نقل الرسائل بين الزوجين العاشقين ، وتسربت انباء الخادمة والرسائل الى الصحف المعادية للشيخ على ، فلم تتحرج من نشرها فى اطار الحملة المسعورة لتجريح الزوجين واحراج الشيخ الرافعى ، وزادت الصحف بان الشيخ على نفسه يتسلل فى الهزيع الاخير من الليل الى بيت الرافعى ويختلى بزوجته صفية ثم ينسحب عائدا الى بيته قبل ان يبزغ الفجر ، وثار الشيخ الرافعى لهذه الانباء المثيرة التى تمس كرامته وتهز امانته كحارس على الزوجة ومنع اى مخالطة بينها وبين زوجها حتى لو كانت مخالطة شاعرية عبر رسائل الغرام الملتهبة ، وكتب الشيخ الرافعى الى قاضى القضاة طالبا اخراج صفية من بيته وايداعها بيت مفتى الديار المصرية الشيخ حسونة النواوى ـ والد الاستاذ عبدالخالق حسونة الامين العام السابق للجامعة العربية ـ الذى اسقط فى يده خوفامن ان تنتقل المشكلة الى بيته ، فتدخل بين الاطراف المتنازعة وتمكن من اعادة الأمور الى نصابها بعد أن تعهدت

صفية بعدم استقبال الخادمة الاوربية وتعهد الشيخ على بالكف عن بث هيامه عن طريق الرسائل .

وبدات المحكمة فى نظر الدعوى وتحدث الشيخ الفندى محامي السادات فطالب ببطلان الزواج على اساس ان الزوج كان فى شبابه من الفقراء ومن غمار الناس الذين لا يعرف لهم نسب رفيع يؤهله لمصاهرة بيوت الاشراف وكانت « تهمة » النسب الوضيع هى التهمة الاولى فى حق الرجل ، اما التهمة الثانية فكانت .. حرفته .. إذ قال المحامى إن الشيخ على يحترف « مهنة دنيئة » هى مهنة الصحافة التى تقوم على التجسس والتلصص على اسرار الناس .. وهى امور ينهى عنها الشرع .!!

واستمعت المحكمة الى اقوال الشهود الذين جاءوا ليقرأوا عن ظهر قلب شجرة الأسرة التى ينتمى اليها السادات والتى تنتهى الى الدوحة النبوية ، فاذا سئلوا عن نسب الشيخ على قالوا انهم لا يعرفون له اصلا ! وكانت الصحف خارج اسوار المحكمة تردد نفس الدعاوى التى ترد على السنة الشهود ، ويعترف الاستاذ عباس محمود العقاد بانه لفق للشيخ على لقبا حقيرا مستمدا من حساب الحروف والطوالع ، فاختار له لقب (نورى) الذى يعرف به الغجر وشذاذ الافاق ، ويبرر ذلك بان الشيخ على كان متهما بالانتساب الى هذه الطائفة ، كما كان يقال بانه من (المسلمانية) الدخلاء على الاسلام من ناحية جده الاول .

إلى هذا الحد بلغت قسوة المثقفين فى الطعن على الرجل لأنه خرج على التقاليد ، ولم يشفع له عندهم انه صنع مَجدَه بيده ، وشق طريقه فى الصخر ، وتربع على القمة التى ترنو اليها الابصار دون اعتماد على الحسب الموروث .. ولكنها طبيعة المناخ الذى كان يسود الحياة الاجتماعية والثقافية فى اخريات القرن الماضى وبدايات القرن العشرين وكان الشيخ ابو خطوة من اشد القضاة تزمتا ومغالاة فى الحرص على التقاليد ومقاومة نزعات التحرر التى بزغت ريحها فى كتابات قاسم أمين ولطفى السيد ومحمد حسين هيكل وغيرهم من دعاة الحرية والمساواة .

وبعد الفراغ من التحقق من نسب الطرفين ، انتقلت المحكمة للتحقيق فى « شرف » المهنة التى ينتمى اليها الشيخ على ، فلذا

بالشيخ الفندى يصول ويجول طعنا وتحقيرا من شان الصحافة .. وانتهى الى أن الشيخ على يوسف - صاحب اكبر جريدة فى الشرق - ليس مشتغلا بالصحافة ، قائما بها ، « وإنما هو مشتغل بشيء يشبهها لاغراضه ، وهذا اشتغال باخس الحرف وادنئها »

وعبثا حاول « المتهم » أن يدافع عن نفسه مالحق به من عار وشنار .. وبعد الفراغ من نظر وقائع الدعوى ، اعتكف الشيخ ابو خطوه عن الناس لاعداد الحكم الذى اعلنه وسط تهليل العامة وتصفيقهم ويقضى بفسخ عقد الزواج .. ونظر الناس الى هذا الحكم على انه انتصار للاخلاق والتقاليد وهزيمة للتبرج والفساد .. اما رجال السياسة فقد اعتبروه انتصارا للحركة الوطنية وهزيمة للخديو عباس واللورد كرومر .. وهكذا نظر كل منهم بالمنظار الذى يخصه ، اما ابطال القصة الاصليون فقد انسحبوا خلف الكواليس بعد ان انفض السامر وانصرف الجمهور ، وعكفوا على معالجة قضيتهم بعيدا عن صخب العامة وضجيج السياسة وتزمت القضاء ، وتدخل اهل الخير ودعاة الصلح بين الطرفين ، فوافق الشيخ السادات على تزويج ابنته ممن أحبت بعقد جديد ، وظن الشيخ العاشق انه قد بلغ المرام بهذا الاعتراف ، وانه سينهل من بحر العسل فى عش الزوجية الجديد ، ولكن حياته انقلبت جحيما على يد زوجته الشابة التى كانت فى سن إحدى بناته . واضطر الشيخ وهو فى سن الكهولة إلى ان يهرب من البيت لينسى همومه فى دوامة العمل فكان يقضى معظم ساعات النهار والليل داخل (المؤيد) يصول ويجول فى دنيا السياسة بعد ان خسر معركة الحب ، حتى اذا بلغ قمة المجد الصحفى والسياسى خرج على الناس بقرار غريب هو اعتزال الصحافة والسياسة معا ليتفرغ لوظيفة شيخ الطريقة الوفائية الصوفية ، عساه ان يؤاسى الجرح الذى حطم كبرياءه وينتسب - ولو زورا وبهتانا - الى الشجرة التى لفظته وهو فى قمة المجد والسؤدد . وما هى الاسنوات قليلة حتى ودع الشيخ على يوسف باشا الدنيا بعد أن انهكه المرض وهدته معارك الحب والحرب وخلف وراءه زوجة شابة لم تحقق له ما كان يطمح اليه من سعادة زوجية . ولقد عبر شاعر النيل حافظ ابراهيم عن ماساة الشيخ على يوسف ضمن قصيدته الرائعة التى انتقد فيها علل المجتمع

المصرى فى ذلك العصر ومطلعها :

حطمت اليراع فلا تعجبى   وعفت البيـان فـلا تعتبى
فما أنت يا مصر دار الأديب   ولا انت بـالبلـد الطـيب
وكم ذا بمصر من المضحكات   كمـا قال فيهـا أبـوالطيب

●●●

وقـال (المؤيد) فى غمـرة   رماه بها الطمـع الأشعبى
دعاه الغرام بسن الكهول   فجن جنـونـا ببنت النبى
فنـادى رجـال بـإسقـاطـه   وقالوا تلـون فى المشرب
وزكى (ابوخطوة) قولـهم   بحكم اشـد من المضـرب

فيا امة ضاق، عن وصفها   جنـان المفـوه والأخطـب
تضيـع الحقيقة مـا بيننا   ويصلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينا الامام الحكيم   ويكرم فينا الجهول الغبي

أدب البصل

عيناى على صورة شيخ وقور تزين جدران بيتنا .. كان الرجل بهى الطلعة .. وسيم الملامح .. مفتول الشارب .. توحى نظراته بالارتياح والثقة ، فكانك امام عم أو خال او جد .. ولقد ظننت فى البداية أنه احد الأقرباء .. فلما بلغت مرحلة الصبا عرفت انه لايمت إلينا بصلة الدم .. ولكن بصلة العقل والروح .. فقد كان ابى من عشاق المنفلوطى .. فلما دخلت المدرسة الابتدائية واجهت نفس الصورة فى كتاب المطالعة وتحتها عبارات تذوب رقة وعذوبة عن الرحمة والتراحم والبؤس والبؤساء .. وكان علىّ ان احفظها حتى استخدمها فى صياغة دروس الانشاء ، فقد كانت الوصية الأولى عند اساتذة اللغة العربية فى كل انحاء مصر : إقرا المنفلوطى ثم اكتب على منواله ، وكلما تقدمت فى مراحل التعليم ازددت قربا من المنفلوطى ، فقرات « النظرات » ثم « العبرات » ثم بقية السلسلة الراقية التى صاغها السيد مصطفى لطفى المنفلوطى : الفضيلة وما جدولين وفى سبيل التاج .. حتى بات المنفلوطى جزءا لايتجزأ من كيانى الثقافى .

وإذا سالتنى عن سر عظمة المنفلوطى قلت لك إنها تتمثل فى قدرته على بث القيم الخلقية الرفيعة والآداب السامية والمثل العليا فى اسلوب محبب الى النفس ـ وتلك وظيفة الادب كما كنا نتعلمها ـ فانت أمامه لا تشعر بانك بإزاء واعظ او أستاذ ، ولكنك بجوار صديق عزيز يمس اوتار قلبك باصابع حانية. . فلا تلبث ينابيع الخير ان تتفتح فى نفسك لتستقبل معانى الحق والفضيلة والجمال .. مثلما تتفتح الزهرة لتحتضن اشعة الشمس .

وانت حين تقرأ المنفلوطى ، فإنك فى الواقع لا تقرأ كلاما مرصوصا او عبارات جامدة .. وإنما تسمع الحانا شجية تنبعث من قيثارة مستكنة فى أعماقك .. فتحرك فى نفسك إحساسا بالسمو والارتقاء ، فإذا بك تصعد الى آفاق علوية ، وإذا بك قد تجردت من نوازع الحقد والجشع والظلم والأنانية .. وإذا بك قد استحلت كائنا نورانيا يشع بالجمال والطهر والعفاف ..

وظلت رفقتى للمنفلوطى حتى بعد أن تخرجت فى الجامعة .. وتعرفت إلى ادباء من الشرق و من الغرب .. لكل منهم طعمه

ومذاقه .. واسلوبه ومنهاجه .. ومع ذلك بقى المنفلوطى مستقرا فى اعماقى .. ألوذ به كلما اجهدنى المسير .. ولسعتنى شدة الحياة .. فارتشف من نبعه الصافى بضع قطرات تملأ النفس بشرا وانسا .

وكان اشد ما يؤلمنى تحامل النقاد على الأدب المنفلوطى .. واتهامه بإشاعة روح الضعف والتخاذل والخور فى نفوس الشباب . وكان على راس هؤلاء الناقدين الاستاذ العقاد .. فقد كان من المؤمنين بفلسفة القوة ، والمبشرين بفكرة البطولة ، وقد ازعجه ان راى كراريس الانشاء عند تلاميذه ـ وقت ان كان مدرسا ـ لاتخلو إحداها من « ميزاب دمع او ماتم شجو وانين » تاثراً بادب المنفلوطى ، وقد بلغت السخرية عند العقاد ان طلب من طباخ المدرسة ان يجمع مخزون البصل عنده ثم يقدمه الى التلاميذ اثناء حصة الانشاء ليستخدموه فى استدرار الدموع بدلا من إدب المنفلوطى .. « فالبصل اولى بمهمة تصريف الدمع من كراسة الانشاء » على حد تعبير العقاد .

ولم يكن العقاد فريد عصره فى التحامل على المنفلوطى واتهامه بالإفراط فى البكاء وإشاعة الأحزان فى نفوس قرائه ، فقد شارك فى الحملة كثيرون ساءهم ان يكون للمنفلوطى هذا التاثير الكبير عند الشباب وان يكون أدب المنفلوطى حجر الأساس فى تذوق الأدب .

وكان المنفلوطى يتقبل هذه الحملات الظالمة ـ كعهده ـ صابرا راضيا .. و لايملك حيالها دفعا .. حتى إذا مات لم يجد أحدا يشيع جثمانه .. فقد شاء القدر ان يلقى وجه ربه فى يوم عصيب ، وهو يوم الاعتداء على حياة زعيم الأمة سعد زغلول فى ١٢ يوليو ١٩٢٤ ، فقد اتجهت جموع الشعب نحو محطة القاهرة لتطمئن على حياة زعيمها ونسيت أديبها الكبير . وقد لفتت هذه المفارقة نظر أمير الشعراء احمد شوقى فانشد مخاطبا المنفلوطى :

اخترت يوم الهول يوم وداع
ونعاك فى عصف الرياح الناعى

هتف النعاة ضحى فاوصد دونهم
جرح (الرئيس) منافذ الأسماع

من مات فى فزع القيامة لم يجد
قدما تشيع او حفاوة ساع

سعد زغلول .. الأفغانى

كان السيد جمال الدين الافغانى ، وقد اغلقت فى وجهه أبواب التدريس فى الأزهر يتخذ مجلسه المفضل فى قهوة متاتيا بميدان العتبة « يوزع السعوط بيسراه .. والثورة بيمناه .. » وكان الطالب الازهرى سعد زغلول احد الذين تلقوا بذرة الثورة من راعيها . فبقيت مستكنة فى وجدانه نصف قرن ، حتى تفجرت كالاعصار وهوشيخ جاوز الستين ، وسرى إشعاعها كما تسرى موجات الأثير فى اعظم ثورة شعبية عرفتها مصر فى تاريخها العريق .

جاء سعد الى القاهرة ليجاور فى الازهر فى نفس السنة التى هبط فيها الافغانى مصر .. فكانهما على ميعاد . واقام الافغانى فى مسكن متواضع فى خان ابو طاقية بحي الجمالية ، والتف من حوله التلاميذ والمريدون يتشربون افكاره فى الثورة والاصلاح كما تتشرب الارض العطشى قطرات المطر ، وصحب الشيخ محمد عبده تلميذه وصديقه سعد زغلول الى حلقة الافغانى ، وما إن راى سعد الشيخ المهيب واستمع اليه حتى قال لنفسه « هذا بغيتى » وأضحى سعد عضوا دائما فى ندوة الشيخ ، وكان من عادة الافغانى أن يستكتب تلاميذه فى الموضوعات التى يتحدث فيها كي يدربهم على قوة التعبير وترتيب الافكار ، وكتب سعد مع غيره فى « الحرية » فاعجب به الافغانى وعلق قائلا : مما يدل على أن الحرية ناشئة فى مصر .. أن يجيد فى الكتابة عنها هذا الناشىء .

وتفاعلت بذور الحرية فى نفس سعد مع اندلاع الثورة العرابية ، كان وقتها شابا فى الخامسة والعشرين ويعمل ناظراً لقلم القضايا بمديرية الجيزة بعد أن كان محررا بالوقائع المصرية ومساعدا لاستاذه محمد عبده ، لقد جرفته احداث الثورة فى اتونها .. فلما فشلت اصابه من اذى الاعتقال ما اصاب كل ثائر غيور ، وفقد سعد وظيفته وبات هدفا للمطاردة والتنكيل ، كان

بوسعه أن يعتذر ويتزلف ليسترد وظيفته ، ولكن روحه الأبية انفت من السقوط فى الشرك الذى سقط فيه ضعاف النفوس ، وإنما آثر ان يحترف المحاماة وهي يومذاك ـ كما يصفها العقاد ـ ليست بالمهنة الشريفة التى نعرفها اليوم ، وإنما كانت صناعة وضيعة مبتذلة يشتغل بها من لايحسب المرافعة الا مجالا للبذاء وطول اللسان وضربا من الاحتيال والكذب والمراوغة والاختلاس .. ولكن سعدا صاحب النفس الابية ارتفع بكرامته عن الدنايا ، فارتفع بالمهنة نفسها حتى صارت من أشرف المهن .

■■■

ولم تنم عين السلطة الغالبة عن سعد ، فقبضوا عليه وعلى شريكه فى مكتب المحاماة حسين افندى صقر بتهمة الاشتراك فى جماعة سرية اطلقت على نفسها اسم (جماعة الانتقام) هدفها قتل الشهود والجواسيس الذين خانوا الثورة ، وارسال خطابات تهديد بالقتل الى الوزراء وكبار المسئولين المتعاونين مع الاحتلال

وتحمل وثائق الثورة العرابية منشورا وزعته الجمعية على قناصل الدول الاجنبية قالت فيه إن اهدافها تتمثل فى تحرير الوطن وطرد الانجليز من مصر وإخراجهم من وظائف الحكومة والجيش . ويؤكد المنشور حرص الجمعية على حماية ارواح الأجانب من كل الجنسيات والأديان ، وتطلب منهم عدم إيواء جنود الاحتلال او التعامل معهم ، وحددت الجمعية مهلة لتصفية هذه المعاملات يتعرض بعدها الجاني للعقاب موتا وإغتصاب امواله وطرد عائلته من البلاد .. واختتم المنشور بعبارة « فلتحى مصر والموت للانكليز » .

ويبدو أن جمعية الانتقام كانت متطورة تنظيميا ، فقد وضعت لنفسها قانونا اساسيا مكونا من ٢٠ مادة يحدد شروط الانضمام للجمعية وطريقة العمل بها ، ونظام الأوامر والتكليفات وطريقة اختيار القيادات والضمانات المكفولة للأعضاء فى حالة الاعتقال واسلوب التخفى ونوعية الاسلحة التى يتدربون عليها .

■■■

وشكلت لجنة للتحقيق مع المتهمين تضم عددا من رجال القضاء الأجانب والمصريين ، ولم تعثر اللجنة على دليل يدين سعدا وشريكه حسين صقر .

فامرت بالافراج عنهما ، ولكنهما بقيا رهن الاعتقال اكثر من ثلاثة اشهر لأن الحكومة كانت عازمة على نفيهما إلى اقاصى السودان ، وكلفت عثمان ماهر باشا محافظ العاصمة باعداد المذكرة بطلب نفيهما لعرضها على مجلس النظار واوشك الأمر بالنفى أن يصدر لولا ان ناظر الحقانية ـ حسين فخرى باشا ـ عارض فيه وقال : ان صدور الأمر بالنفى بعد حكم البراءة يعد تحديا للقضاة الأجانب الذين جيء بهم لتنظيم القضاء المصرى .
فعدلت الحكومة عن النفى وبقى السجينان معتقلين .. عندئذ كتب سعد الى لجنة التحقيق « انى لا ازال موضوعا فى السجن مع تحقق اللجنة من براءة ساحتى مما نسب الى فالأمل إسعافى باجراء أمر الإفراج عنى رعاية لجانب الحق وتنفيذا للقانون » وعلم النائب العام الانجليزى ـ مستر ماكسويل ـ بامر السجينين اللذين ترفض الحكومة إطلاق سراحهما رغم براءتهما ، فابدى تعجبه من هذا التصرف المريب ، وامر بالافراج عنهما فورا .. ولم يسع الحكومة إلا الإذعان .

وخرج سعد ليستانف عمله فى المحاماة .. سائرا على الصراط المستقيم الذى اختطه لنفسه ، ولا يحيد عن المثل والاخلاقيات التى فطر عليها .. لا يقبل ابدا الدفاع عن باطل .. ولا يرفض أبدا الدفاع عن الحق .. وبقيت تلك شيمته حتى آخر العمر .

بيـــن ثورتيـــن

كانت الفترة الممتدة بين الثورة العرابية وثورة ١٩١٩ من اكثر فترات التاريخ المصرى غموضا ، فلم تجد من الباحثين إقبالا على الغوص فيها وتحليل احداثها ، رغـم أن هـذه الفتـرة كـانـت غنيـة بالاحداث التى وقع بعضها نتيجة فشل الثورة العرابية ، وجاء بعضها الآخر إرهاصا بمقدم الثورة الوطنية فى ١٩١٩ ، فإذا كانت هذه الفترة الزمنية هى اللحد الذى احتضرت فيه ثورة ، فإنها ايضا الرحم الذى تخلقت فيه ثورة اخرى ..

ويمكن تشبيه هذه الفترة التى امتدت ٣٧ سنة ، بليل طويل حالك السواد ، جاء بعد غروب شمس العرابيين ، وقهر الامل فى قلوب المصريين ، ولكنه فى نفس الوقت كان بشيرا بميلاد فجر جديد .. وبعث الأمل مرة اخرى فى الصدور اليائسة .. فاستعاد المصريون ثقتهم بانفسهم .. وهبوا يطلبون الحرية والاستقلال .

فى هذه الفترة اصبح كرومر سيد البلاد بلا منازع وصاحب الامر والنهى فى كل مقدراتها ، واضحت دار المعتمد مقصد طلاب الحاجات والباحثين عن الثراء والجاه والمجد .. وبات الوزراء مجرد أشباح او بصمجية بالقياس الى المستشارين الانجليز الذين استقدمهم كرومر من حوارى الامبراطورية ، وبثهم فى الوزارات والمصالح ومديريات الاقاليم . وصدقت فى وزرائنا مقولة احد الكتاب الانجليز : « نحن لانحكم مصر .. وانما نحكم الذين يحكمونها » .

وشهـدت هذه الفتـرة انتشار مـوجة الفسـاد والنفاق والوصولية .. كانت الهزيمة كالاعصار المدمر اكتسح المبادىء الخلقية والقيم الروحية .. وساد الياس والقنوط حتى ظن الناس أن ليل الاحتلال ليس له صباح ..

■■■

وكان من المؤسف أن نجد الادباء والشعراء يدبجون قصائد المديح فى جبار الاحتلال كرومر .. وينشرون ما تجود به قرائحهم فى كل مناسبة انجليزية .. فاذا حل عيد ميلاد ملك الانجليز تتابع الاعيان والوزراء والكبراء على دار الحماية لتقديم ايات التبريك

والتهنئة .. واذا مات الجنرال الغشوم كتشنر غرقا في بحر الشمال انهمرت دموع الحزن عليه أنهارا .. وخلع عليه الشعراء صفة الشهيد .. يتساوى في ذلك كبار الشعراء وصغارهم .. كان من المفجع أن تمسك الصحيفة فتجد فيها قصائد من هذا النوع تحمل اسماء شعراء كبار مثل أحمد شوقي وحافظ ابراهيم واحمد نسيم وغيرهم .. وكان من الطبيعي أن يقتدى بهم صغار الشعراء .. وأن تتأثر بهم الجماهير التي كانت تتلقف ما يكتبون بإعجاب وشغف ..

وبدأ كرومر خطة جهنمية لتغيير خريطة المجتمع المصرى ، ظهر معها وكأنه الفارس الموعود الذى بعثت به الأقدار لتحقيق الأماني القومية التي فشل الثوار في تحقيقها .. لقد ثار المصريون على السخرة والظلم والغطرسة التركية والارستقراطية الشركسية التي احتكرت ملكية الأراضي وكتمت انفاس المصريين وسعدت بفشل الثورة .. فلماذا لا يعمل كرومر على تغيير الهرم الاجتماعي بما يسمح بظهور طبقة من كبار الملاك المصريين تزاحم الفلول الشركسية وترثها ..؟ وعمل كرومر على تحقيق هذا الهدف من خلال اجراءات إصلاحية في نظام الرى والصرف وتنظيم الضرائب وإلغاء السخرة .. وكان له ما أراد .. وبرزت على سطح المجتمع فئة من كبار الملاك تدين بولائها للاحتلال ليس عن كفر بالوطن ، ولكن عن شعور بان مقامهم ارتفع بقيام السلطة الجديدة التي انقذتهم من طغيان السلطة القديمة التي لم يكونوا يستطيعون لها دفعا .

وفي رأى محمد زكي عبدالقادر ان قيام هذه الطبقة واعتمادها على الاحتلال في حمايتها من بطش الخديو ، والكراهية المتأصلة في نفسها للحكم التركي .. كانت البذرة الأولى لنشوء « فكرة الاستقلال » عن تركيا وانجلترا وهي الفكرة التي حمل لواءها ونادى بها بعد ذلك حزب الامة واحمد لطفي السيدفي الجريدة ، وظلت هذه الطبقة اكثر انحيازا الى سلطة الاحتلال منها الى القصر . ولعبت دورا خطيرا في الحياة السياسية المصرية وكان لها شأنها في ثورة ١٩١٩ وما تلاها من تطورات ، كما كان لها تأثيرها في الحياة البرلمانية ، وما تعرضت له من هزات واضطراب . واتخذت موقف العداء المستمر من القصر ،

والمهادنة المستترة للاحتلال ، ليس عن رضاء به ولكن عن خوف من استبداد السراى وبطشها .. كان الاحتلال يريد ان يبقى اطول فترة ممكنة فى مصر ، وكان يعرف ان هذا الهدف لن يتحقق إلا اذا كسب ولاء اعيان المصريين ورضاهم .. ولن يفعل المصريون ذلك الا اذا شعروا بان حالهم قد تحسن اقتصاديا واجتماعيا .. بل يفوق حالهم على عهد اسماعيل .. وأستطاع كرومر ان يغرس فى نفوس المثقفين فكرة الاصلاح التدريجى بديلا عن بذرة الثورة .. وبهذه الخطة الجهنمية نجح فى تاجيل الثورة لأكثر من ثلث قرن .

ثورة النساء

كانت مظاهرات النساء ابرز مفاجآت ثورة ١٩١٩ .. ففي اليوم التالي لاعتقال سعد زغلول اندلعت المظاهرات في شوارع القاهرة ، وخرجت جموع الشعب من كل الفئات والطوائف تواجه رصاص الانجليز في شجاعة منقطعة النظير ، وتساقط الشهداء والجرحى وسالت الدماء في الشوارع دون أن يفت ذلك في روح الشعب المتعطش الى الحرية والاستشهاد ، ولم تكن المرأة المصرية اقل إقداما من الرجل ، وشهدت شوارع العاصمة لأول مرة في تاريخ مصر الحديث - وربما في تاريخها الطويل - مظاهرات نسائية صرفة ترفع الاعلام وتهتف للحرية وتنادي بسقوط الاحتلال والحماية .

وفي يوم ١٦ مارس ١٩١٩ خرجت اول مظاهرة نسائية ، اى بعد اسبوع من نفي سعد ورفاقه الى مالطة وكانت تضم ٣٠٠ سيدة ، وقد وصف الرافعي احدى المظاهرات النسائية فقال :

نظمت السيدات مظاهرة فخرجن من جاردن سيتي وسرن ماشيات وفي مقدمتهن ستة اعلام مكتوب عليها شعارات وطنية باللغتين العربية والفرنسية وسارت المتظاهرات وخلفهن مركباتهن حتى وصلن الى شارع قصر العيني وشارع سعد زغلول ووقفن امام بيت الامة هاتفات لمصر وحياة سعد ، ثم اقبلت قوة كبيرة من البوليس والجنود الانجليز في سيارات مسلحة فضربوا نطاقا حولهن وظل الحصار نحو ساعتين وهن واقفات في الشمس ، وارسلن باحتجاجهن الى سفارات الدول ، وجاء القنصل الامريكي بنفسه واحتج على هذه الفظاعة ، فصدر الأمر على عجل برفع الحصار ،وتمكين السيدات من الخروج من النطاق المضروب حولهن ، فركبن السيارات والعربات وانصرفن الى بيوتهن بعد أن وقفن الى جانب الثوار محتجات على قتل الابرياء مطالبات بحرية مصر .

■■■

وفي يوم ١٠ ابريل سقطت اولى شهيدات ثورة ١٩١٩ وهي شابة عمرها ٢٨سنة اسمها شفيقة محمد ، وعقب وفاتها اصدرت السيدة

هدى شعراوى رئيسة اللجنة التنفيذية للنساء الوفديات ، منشورا اعلنت فيه ان شفيقة محمد هى اول امراة مصرية تسقط برصاص الانجليز منذ اندلاع الثورة ، ثم أصدرت قيادة الثورة منشورا روت فيه قصة استشهادها على النحو التالى :

شاركت شفيقة محمد فى مظاهرة يوم ١٠ ابريل ١٩١٩ وكانت مظاهرة كبيرة ضمت السيدات من مختلف الطبقات وسرن فى الشوارع حتى وصلن الى مقر المعتمد البريطانى وطلبن مقابلته ليرفعن اليه احتجاجا مكتوبا ، فمنعهن العساكر الانجليز بالسلاح وضربوا حولهن حصارا بالبنادق والسونكيات ، ومع ذلك لم يعبأن ، وتقدمت واحدة منهن (شفيقة) وهى تحمل العلم فى يد والاحتجاج فى اليد الاخرى ، واخترقت الحصار وجرت حتى وصلت الى مكتب « ملن شيتهام » القائم باعمال المندوب السامى البريطانى ، فتناول الاحتجاج من شفيقة ودعاها للدخول الى مكتبه فدخلت وراءه ، واشار إليها بالجلوس ولكنها رفضت قائلة : لن اجلس إننى مستعجلة!

وتصفح شيتهام الاحتجاج وتظاهر بأنه لم يفهمه مع انه يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة وقال لشفيقة محمد : إن الاحتجاج مكتوب باللغة العربية ، ماذا تريدين ؟ فاجابت : انه احتجاج على الاعمال الوحشية التى يعاملنا بها جنودكم بدون ذنب الا اننا نطالب بحرية مصر واستقلالها وسالها شيتهام : وما تلك الأعمال الوحشية ؟ فقالت : ضرب النار على اولادنا وأطفالنا الأبرياء ورجالنا المجردين من السلاح لمجرد احتجاجهم بالمظاهرات السلمية على منع زعمائنا من السفر لعرض قضيتنا على مؤتمر السلام ، وذلك مثل باقى بلاد العالم وتنفيذا لمبادىء الرئيس ويلسون .. وسالها شيتهام مرة ثانية : وهل هناك اشياء أخرى ؟ فاجابت نعم نحتج على اعتقال زعمائنا ونفيهم الى مالطة ..

ويئس شيتهام من شفيقة وضاق صدره بها فوقف وقال لها منذرا :

تلك هى المرة الأخيرة التى نراك فيها تشاركين فى المظاهرات وإلا فسيكون الاعتقال مصيرك ! فقالت شفيقة : سترونني فى كل مظاهرة .. واستدارت الشابة المصرية لتغادر الغرفة بخطى ثابتة وهى رافعة الراس .. والعلم فى يدها .. وفتحت الباب لتخرج ،

واغلق الحارس الباب خلفها واخذ شيتهام الاحتجاج الذى تركته ومزقه والقى به فى سلة المهملات .. وقطع سكون الموقف صوت طلقات الرصاص ينهمر،واطل المندوب البريطانى من نافذة غرفته ليجد شفيقة محمد جثة هامدة مضرجة فى دمائها الزكية ، ومن حولها زميلاتها وهن يهتفن :
تحيا ضحايا الحرية .. فى ذمة الله ياشفيقة .

شهيد أسيوط

كان البكباشي محمد كامل مامورا لبندر اسيوط حين اندلعت ثورة ١٩١٩ وامتد لهيبها الى الصعيد ، ودارت معارك طاحنة بين قوات الاحتلال والأهالي العزل ، فما كان من المامور البطل الا أن فتح غرفة « السلاحليك » على مصراعيها ، وترك الثوار يغترفون منها البنادق والطبنجات ليقاوموا بها جحافل الغزاة .

كانت اسيوط قد علمت بنبأ اعتقال سعد ورفاقه ونفيه الى مالطة ، فخرج طلبة المعهد الديني ومدرسة الأمريكان ومدرسة إخوان ويصا والمدرسة الثانوية في مظاهرة سلمية يهتفون لسعد والثورة ، ويرددون هتاف الثورة المجيد « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » فتصدى لهم جند الاحتلال المتمركزون في اسيوط ، واطلقوا عليهم الرصاص فثارت مشاعر الأهالي ، وشكلوا من بينهم لجنة محلية لتنظيم شئون الحماية والدفاع عن المدينة وازدادت حدة التوتر عندما اقدمت سلطات الاحتلال على اعتقال بعض الزعماء المحليين : المحامي احمد علوان والمحامي محمود بسيوني ومحمد محفوظ باشا . وتناقل الناس انباء الاهانات البالغة التي تعرضوا لها في السجن فازداد هياجهم ، وانطلقت الجموع نحو معسكرات الانجليز لتعبر عن سخطها ، فصادفت اكواما من التبن كدستها سلطات الاحتلال لغذاء الخيول فاشعلوا فيها النيران وتصاعد لهيبها إلى عنان السماء حتى بدت المدينة وكانها شعلة من الوهج .

وفقد الانجليز اعصابهم فاخذوا يطلقون الرصاص على المتظاهرين في وحشية ، وتساقط مئات الشهداء والجرحى وسالت الدماء في الشوارع كافواه القرب مما دفع الثوار الى مزيد من العناد والصلابة والاصرار على مقاومة الاحتلال ، وشددوا من هجماتهم على المعسكرات البريطانية حتى اضطر الانجليز الى تجميع أبناء الجالية البريطانية في مبنى المدرسة الثانوية وفرضوا عليها ستارا حديديا من الحصار المسلح ، فكان الثوار ينقضون على الثكنة العسكرية في هجمات فدائية جريئة ، مما

اثار فزع سلطات الاحتلال ودفعها الى الاستعانة بسلاح الجو الملكي البريطاني .

ولأول مرة في تاريخ الصعيد ، وفي صباح ٢٤ مارس ١٩١٩ قامت طائرتان حربيتان بصب حمولتهما من القنابل على المدينة الباسلة في غارات وحشية لم تفرق بين البيت والمستشفى والشارع والمدرسة ، وتساقط المئات دون ان ينال ذلك من روح الأهالي وصلابتهم .

وامام هذا العناد الصعيدى لجات سلطات الاحتلال إلى اسلوب دنيء لإذلال الأهالي ، فاعلنت انها ستقوم بتفتيش البيوت ليلا ، وطلبت من الرجال مغادرة بيوتهم وترك نسائهم فيها ، ولم يستسلم الأهالي للتهديد الحقير فهجرت العائلات البيوت إلى المقابر والكهوف والصحراء والأديرة ، حفاظا على الأعراض من أن تمسها شراذم الاحتلال .

وعلم اهل أسيوط بقدوم قطار من الاقصر يقل بعض كبار الضباط الانجليز في طريقهم الى القاهرة . وارسلت مديرية امن اسيوط إشارة الى جميع مراكز ونقط الشرطة لتشديد الحراسة على المحطات ، ولكن الضباط بدلا من أن يشددوا الحراسة ابلغوا الأهالي حتى لا يفلت منهم الصيد الثمين ، وتحركت جموع الثوار من القرى والنجوع نحو محطة ديروط ، حتى إذا توقف القطار اندفعوا داخله كالسيل ، وانهالوا ضربا على الضباط الانجليز فقتلوا منهم اثنين ومعهم خمسة جنود . وكان لهذا الحادث أثره في اسيوط ، فشدد الانجليز الحصار على المدينة استعدادا للانتقام منها ، واخذوا في حفر الخنادق وإقامة المدافع الثقيلة ، وارسل القائد البريطاني رسالة الى البكباشي محمد كامل مأمور البندر يطلب اليه فيها التسليم ، فكان جواب الضابط الذى تحول الى ثائر : لن تدخلوا المدينة إلا فوق اشلائنا ، وبدات القذائف تمطر المدينة بوابل من النيران ، ولكن المامور لم يستسلم ، وقام بتوزيع مالديه من سلاح على الأهالي ، وتقدم مع جنوده للقيام بواجب الدفاع عن المدينة الصامدة إلى ان وصلت تعزيزات هائلة من القاهرة ، وكان اول مافعلته القوات البريطانية اعتقال مأمور اسيوط وتقديمه الى محكمة عسكرية بتهمة التفريط في السلاح « الميرى » وتحريض الأهالي على التمرد . واصدرت المحكمة

حكمها بإعدام البكباشى محمد كامل ، وتلقى الرجل الحكم فى شجاعة نادرة ، وحاول وجهاء اسيوط إنقاذ رقبة المامور البطل ، وقامت وفود منهم بمحاولة تخفيف الحكم عنه ، ولكن السلطات البريطانية أصرت على إعدامه . وفى يوم ١٠ يونيه ١٩١٩ سيق البكباشى محمد كامل الى ساحة الإعدام داخل احد المعسكرات البريطانية ونفذ فيه الإعدام رميا بالرصاص ، وبقى اسمه فى سجل الخالدين الذين أنبتتهم مصر على مدى تاريخها العريق .

دولت فهمي

كان عبد القادر محمد شحاتة ـ الطالب بالمدرسة الالهامية الثانوية ـ جالسا على مقهى بميدان باب الخلق يلعب « عشرة طاولة » مع صديق له ، عندما تقدم منهما شاب متوسط الطول قمحى اللون ، فسحب كرسيا وانضم إليهما في مباراة الطاولة ، وقدم نفسه باسم « فهمي » . وبعد التعارف وتبادل الأحاديث الودية انصرف « فهمي » لحال سبيله ، ولكن زيارته لعبد القادر تكررت بطريقة مريبة . كان يهبط عليه فجاة في منزله وهو في زى عامل احيانا .. او زى ازهرى او فلاح .. وادرك عبدالقادر ان وراء الصديق الجديد سرا غامضا ولكنه حار في تفسيره .. حتى جاء اليوم الذى كشف « فهمي » فيه عن حقيقة امره . قال له : إسمع ياعبد القادر .. نحن نعرف الكثير عن شجاعتك ، والاعمال البطولية التى قمت بها في المنيا اثناء عدوان الانجليز على اهلها العزل ، ونعرف انك انت الذى اشعلت الثورة في المنيا ، والآن حان الوقت لاكشف لك عن مهمتى .. فانا مندوب الجهاز السرى ، فهل تقبل ان تكون عضوا معنا في الجهاز السرى للثورة .. ؟

قال عبد القادر على الفور : نعم .. اقبل بلا تردد واقسم على حفظ السر .

وكان الجهاز السرى التابع لثورة ١٩١٩ يطارد الوزراء الذين يتعاونون مع سلطات الاحتلال البريطاني ، ويطعنون الثورة في ظهرها .. ويحطمون إرادة الامة التى اختارت سعد زغلول وكيلا وزعيما ومتحدثا وحيدا باسمها في مواجهة الانجليز . وكان محمد شفيق باشا وزير الأشغال في وزارة ابراهيم سعيد باشا قد ارتكب جريمة نكراء حين وافق على إطلاق يد الانجليز في تغيير نظام الرى في السودان خدمة للمصالح الاستعمارية وإلحاق الضرر بالمصالح الوطنية ، وقررت قيادة الثورة قتله .

وفي يوم ١٩ فبراير ١٩٢٠ ذهب « فهمي » الى عبد القادر وابلغه ان الاختيار وقع عليه لاغتيال شفيق باشا ، ولقنه تفاصيل الخطة المرسومة بدقة .. وقام الشاب الجرىء بالعملية كما طلب منه ، والقى قنبلة على سيارة الوزير اثناء مروره في العباسية ،

وانفجرت القنبلة ولكن الوزير افلت من الموت .. وقبض على الفدائي الجرىء ، وبدات سلطات التحقيق تمارس معه افظع الوان التعذيب لتعرف منه اسماء قيادة الجهاز السرى للثورة ، خاصة ان بعض شركائه في المنزل شهدوا بانه كان يبيت لياليه الأخيرة خارج البيت ، وهنا حدثت المفاجاة التى يرويها عبد القادر في مذكراته التي نشرها استاذنا مصطفى امين فى (الكتاب الممنوع) :

« وإذا بى اتلقي داخل السجن رسالة من الجهاز السرى من خارج السجن ، بان سيدة اسمها دولت فهمي ناظرة مدرسة الهلال الاحمر سابقا ، ستتقدم للشهادة وتقول إنى كنت في تلك الأيام ابيت عندها ! وإنه يجب ان اعترف بهذا ، رغم ان هذا يسيء الى سمعتي وإلى سمعتها ، ولكنها قبلت ان تقوم بهذه التضحية ! واستدعاني النائب العام توفيق رفعت باشا للتحقيق من جديد ليسالني أين كنت ابيت ؟ وكانوا يتصورون ان هذا السؤال هو الخيط الذى سيوصلهم الى الجهاز كله ! فقلت وانا اظهر الخجل : « إنني كنت ابيت عند السيدة دولت فهمي ناظرة مدرسة الهلال سابقا » واصدر النائب العام على الفور امرا بالقبض عليها ، فجاءت مكبلة بالحديد ، ودخلت سيدة حسناء الى غرفة النائب العام ، وإذا بدولت هذه تهجم على وتقبلني وتناديني : « ياحبيبى ! ياحبيبى ! اعترفت بانني ابيت في بيتها وانني عشيقها .. وذهل النائب العام والحكمدار الانجليزى .

وصدر الحكم باعدام عبد القادر شحاتة ، ثم خفف الى الأشغال الشاقة المؤبدة ، وقضى الفدائي الشاب أيامه ولياليه في ليمان طرة وهو لا يكف عن التفكير في امر هذه السيدة التي ضحت بسمعتها من اجل إنقاذ شاب مصرى جسور .. كانت تملأ عليه خياله وهو يقطع صخور الجبل .. وتؤنس وحشته وهو ياوى الى زنزانته ، ويناجي طيفها النبيل عبر قضبان السجن الكئيب .. حتى احس بانه يحبها فعلا .. ومضت أربع سنوات تعيسة قضاها عبد القادر شحاته في ليمان طرة حتى جاءت حكومة الشعب الاولى برئاسة سعد زغلول ، فافرج عنه ضمن مجموعة من الفدائيين الذي سجنتهم سلطات الاحتلال ، وكان اول مافكر فيه عبد القادر بعد عودته الى الحرية هو البحث عن دولت فهمي ليتزوجها ولكن

الجميع كانوا يتهربون منه ويطلبون منه ان يكف عن السؤال عنها ..

ولم يكف الشاب عن السؤال حتى وجد نفسه امام الحقيقة المفجعة .. فقد عرف ان اهلها قد قتلوها ليغسلوا العار الذى لحق بهم اثناء التحقيق ، ولم يدركوا انها طوّقت اعناقهم باكاليل الغار حين ضحت بسمعتها من اجل إنقاد زهرة شباب مصر ..

نموت وتحيا مصر

في اعقاب الاعتقال الثانى لسعد زغلول (ديسمبر ١٩٢١) اتخذت قيادة الوفد قرارا بتنظيم المقاومة السلبية للاحتلال .. واصدرت عدة منشورات طالبت فيها المواطنين بمقاطعة الشركات والمحلات والبضائع الانجليزية واستعمال البدائل المصرية ، ونقل ودائعهم المالية من البنوك الأجنبية الى بنك مصر الذى مضى على إنشائه عام واحد . وفى اليوم التالى اعتقلت السلطات البريطانية قيادة الوفد التي كانت تضم : حمد الباسل وويصا واصف وعلي ماهر وجورج خياط وعلوى الجزار ومرقص حنا ومراد الشريعي وواصف بطرس غالي . وعلى اثر ذلك شكلت قيادة جديدة للوفد من المصرى السعدى وحسين القصبى وفخرى عبد النور وسلامة ميخائيل والشيخ مصطفى القاياتي ونجيب الغرابلى . وحملت الهيئة الجديدة راية الكفاح فاصدرت بيانا طالبت فيه الأمة بالاستمرار فى المقاومة ، واعتبار المقاطعة الاقتصادية شكلا من اشكال الجهاد لانه يصيب المصالح البريطانية في مقتل ، ويعمل على تشجيع الراسمالية الوطنية الوليدة ، ويغرس في الشعب روح الانتماء للوطنية المصرية الخالصة .

وبعد الافراج عن المعتقلين انضموا الى زملائهم الجدد ، وتحولت قيادة الوفد الى كتيبة نضالية تؤجج جدوة الجهاد لملاحقة المصالح البريطانية ، وتسميم الآبار فى وجهها ، وانهالت المنشورات فى كل انحاء البلاد تحض الجماهير على مقاطعة انماط الاستهلاك الاجنبية والاقبال على منتجات بلادهم حتى لو كانت اقل جودة او اغلى سعراًمن مثيلتها الأجنبية . واستجابت الأمة لنداء قيادتها الوطنية .. ونجحت المقاطعة حتى اوشكت المؤسسات البريطانية على الافلاس وتعرضت المنتجات الأجنبية للبوار والكساد .

وفى ٢٥ يوليو ١٩٢٢ اصدرت سلطات الاحتلال امرا باعتقال سبعة من قيادات الوفد . وبدات الحملة باعتقال حمد الباسل ومرقص حنا وواصف غالي والقى بهم فى ثكنات قصر النيل ، وكان مراد الشريعي فى بلدته ـ سمالوط ـ فلما علم بنبا القبض على

زملائه ركب القطار الى القاهرة وسلم نفسه الى سلطات الاحتلال ، وكذلك فعل علوى الجزار الذى قَدِم من شبين الكوم . اما ويصا واصف فقد قبضوا عليه فى راس البر . كما قبضوا على جورج خياط في الاسكندرية ، والتام شمل الزعماء السبعة في قشلاق قصر النيل دون أن يعرفوا حقيقة التهمة التى اعتقلوا من اجلها الى ان بدات الصحف البريطانية تنشر تصريحات كبار رجال الحكومة البريطانية وجاء فيها أن الزعماء السبعة سيحاكمون بتهمة التحريض على قتل الانجليز في شوارع القاهرة ، وانهم وسيواجهون عقوبة الاعدام . واستقبل الأبطال هذه الانباء بالسخرية وظلوا يمارسون نشاطهم اليومي في لعب الطاولة ولا يتصورون ان يبلغ الهلع بالسلطات البريطانية الى حد إعدامهم لمجرد دعوتهم الشعب إلى العصيان المدنى .

وهذه صورة وصفية للروح المعنوية العالية للابطال السبعة سجلها مرقص حنا في مذكراته التي نشرها الاستاذ مصطفى امين ويقول فيها : « كنا في غاية الشجاعة .. ونؤمن باننا دافعنا ، بتمام الشرف والهمة والاخلاص ، عن بلادنا وعن حقوقها . هذا هذا جرم ؟ إن العقاب على هذا الامر كالعقاب على الاكل والشرب ، غريب ان يسمى نفسه شريفا ذلك الذى يسمى الدفاع عن الوطن إجراماً ! ان الدفاع عن الوطن فضيلة سامية ، فكيف يكون شريفا ذلك الذى يستعمل قوته وسلاحه ضد امة عزلاء ليسطو عليها ويسلب اصحابها اموالهم وارزاقهم ؟ انهم يريدون عقابنا .. فليكن .. ولكن ماذا يريد اولئك المصريون الذين يتولون الحكم ، ويدفعون الانجليز الى هذا العمل وباى وصف اصفهم ؟ إن احط الكلمات لا تكفى لوصفهم .. » .

■ ■ ■

ولما وجدت السلطات البريطانية ان تهمة التحريض على القتل لا تستند إلى دليل . عدّلوا الاتهام وحصروه فى دائرة الحض على كراهية الحكومة واحتقارها . وتسلم الابطال قرارات الاتهام ، واتفقت إرادتهم على مقاطعة المحكمة وعدم توكيل محامين للدفاع عنهم . وانابوا حمد الباسل لإلقاء كلمة امام هيئة المحكمة العسكرية البريطانية فى أول جلسة من جلسات المحاكمة التى عقدت فى مبنى محكمة استئناف القاهرة بباب الخلق . ونهض

حَمَد الباسل يرفل فى ملابسه البدوية التقليدية يقول فى صوت عميق اهتزت له جنبات المحكمة : باسم الشعب المصرى .. إننا نحن الوكلاء عن هذا الشعب ، المكلفون بالمطالبة باستقلاله ، ولهذا لا نستطيع ان نعترف باى حال من الأحوال بقضاء محكمة اجنبية ، ولو أن هذه المحكمة العسكرية الانجليزية تاخذ بتصريح الحكومة الانجليزية أو تعتبره تصريحا جديا ، (يقصد تصريح ٢٨ فبراير) وهو أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، لكان حقا عليها ان تعلن من تلقاء نفسها عدم اختصاصها بمحاكمتنا ! إن لكم أن تحكموا علينا .. ولكن ليس لكم أن تحاكمونا .. ! مهما تكن العقوبة التى يروق لكم ان تشرفونا بها ، فإننا سنقابلها بالسرور والفخار ، لأنها خطوة إلى الأمام فى طريق المجد الذى تسير فيه مصر الى مصيرها الخالد ! ولو خرجنا من السجن فسنعود الى جهادنا مرة اخرى .. ولو متنا .. فإن مصر لن تموت .. !!

■ ■ ■

وخيم على القاعة سكون رهيب .. ووقف بقية المتهمين فقال كل منهم إن كلام حمد الباسل يعبر عن راينا جميعا .. ورفعت الجلسة للمداولة ثم عادت بعد قليل لتصدر حكمها بالاعدام على الأبطال السبعة .. وما إن فرغت المحكمة من تلاوة الحكم حتى وقف حمد الباسل ليهتف : نموت وتحيا مصر .. !! وضجت القاعة بالهتاف : تحيا مصر .. يحيا الاستقلال .. يحيا سعد ..

وارسل الحكم الى اللورد اللنبى فصدق عليه وبعث به الى حكومته للتصديق . ووجدت الحكومة البريطانية ان إعدام الأبطال السبعة سيؤجج لهيب الثورة من جديد ، فخففت الحكم إلى السجن سبع سنوات وغرامة خمسة آلاف جنيه .

بنك مصر

كان قيام بنك مصر فى مايو ١٩٢٠ هو اعظم إنجاز اقتصادى لثورة ١٩١٩ ، ولكى ندرك اهمية هذا الصرح الشامخ فى تاريخ مصر الحديث ، ينبغى أن نتذكر الحالة التى كان عليها الاقتصاد المصرى منذ التغلغل الاستعمارى الأوربى الذى بدا فى عصر الخديو اسماعيل ، ثم بلغ ذروته باحتلال مصر عسكريا وخضوع الاقتصاد المصرى للسيطرة البريطانية ، حتى تحولت مصر بكاملها الى مزرعة قطن لخدمة مصانع النسيج الانجليزية ، وتحول المصريون الى مستهلكين للمنتجات الانجليزية ، وانفتحت مصر على مصراعيها للبنوك والشركات والمؤسسات الأجنبية ، وباتت مرتعا للمرابين الخواجات الذين انتشروا فى المدن ، وانبثوا فى القرى يمتصون عرق ابنائها بارخص الاثمان .

كنت تمشى فى قلب القاهرة التجارى فلا تجد محلا مصريا عليه القيمة ، فكل المحلات الكبرى تحمل اسماء اجنبية : شيكوريل ، شملا ، اوركو ، افرينو ، بنزايون ، صيدناوى ، عمر افندى ، داود عدس . حتى محلات البقالة الكبيرة احتكرها الطليان والأرمن واليونانيون ، واقتصر نشاط المصريين على تجارة العطارة فى المحلات الصغيرة المكدسة فى الغورية وبين الصورين وعربات الفول والطعمية والكشرى التى تزين جدارنها بشعارات انهزامية تقول : ملك الملوك إذا وهب .. لا تسألنّ عن السبب .. !! وكانت البنوك ـ عصب الاقتصاد ـ تابعة للمصالح الاجنبية بما فيها بنك الدولة القائم على إصدار العملة ـ البنك الأهلى المصرى ـ كان بنكا انجليزيا لحما ودما .. ولا يحمل من سمات المصرية سوى الاسم المزيف .. فلم يكن اهليا .. ولا مصريا .. !!

■ ■ ■

فى هذا الجو القاتم .. وفى هذه الغابة التى تمرح فيها وحوش كاسرة ، ظهر شاب مصرى مشبوب العاطفة ، صادق الوطنية ، متقدم الفكر اسمه طلعت حرب استحوذت على فؤاده فكرة اشبه بالخيال هى إنشاء بنك مصرى يعمل على تجميع مدخرات

المصريين واستخدامها في إنشاء صناعات مصرية وتمويل مشروعات مصرية .. ويعمل فيه مصريون ويستخدمون في معاملاته اللغة العربية .. وعندما بلغ طلعت حرب سن الخامسة والعشرين اصدر في عام ١٩١٠ كتابا صغيرا عنوانه (علاج مصر الاقتصادى ومشروع بنك مصر او بنك الأمة) واذا كان الخطاب يقرا من عنوانه، فإن عنوان الكتاب يكشف عن مضمونه وهو انه «لكى يتم الاستقلال السياسي فإنه من الضرورى ان تتوافر للوطن إمكانات التحرر الاقتصادى التى ترسى دعائم اقتصادية وطنية يستطيع الوطن إن يواجه بها الاختناقات التى سوف يجتازها في مراحل نضاله مع الاستعمار.. تغذى كفاحه وتدعمه وتمنحه الصلابة وقوة الصمود ...» .

لقد وضع طلعت حرب يده على بيت الداء .. إن الاستعمار الاقتصادى هو الهدف الحقيقي للاحتلال .. وراى بفكره الثاقب ان الاستقلال السياسي لن يكتمل إلا إذا تحررت البلاد من اغلال الرق الاقتصادى . وكتب بيده روشتة العلاج في هذا الكتاب الصغير .. وكان العلاج قيام بنك مصرى خالص يرعى مصالح المصريين وياخذ بيدهم من مهاوى العجز والخمول .

ولكن .. كيف يمكن لهذا المشروع الأسطورى ان يرى النور وسط الدياجير المظلمة التى تخيم على مصر في ظل جبروت كرومر .. وتواطؤ عباس الثانى .. وسلبية كبار الملاك الذين هادنوا الاحتلال وارتبطت مصالحهم بمصالحه .. ولم ينظروا الى ابعد من اقدامهم فلم يتخيلوا إمكانية قيام بنك مصرى متحرر من اغلال القهر الانجليزى يعمل فيه مصريون .. كانوا يتصورون ان حرفة المال والتجارة سر لا يتقنه سوى الخواجات .. !

■ ■ ■

مثل هذا المشروع كان لا يمكن ان يرى النور إلا في احضان ثورة شعبية وطنية تقلب موازين القوى وتفتح عيون الغافلين على حتمية الاستقلال الاقتصادى ..

وقامت الثورة في مارس ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول .. وتفتحت ينابيع الوعى في الشخصية المصرية ، وترددت اصداء الحرية في جنبات الوادى وتاقت نفوس المصريين الى الحرية بمعناها الشامل .. وبابعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ..

وارتبط شعار « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » بشعار « مصر للمصريين » وتحرير المصالح المصرية من السيطرة الأجنبية ، واستجاب المصريون إلى نداء سعد زغلول للمساهمة بقروشهم القليلة في رأسمال (بنك مصر) .. ومن حصيلة هذه القروش تجمع مبلغ لا يزيد على ثمانين الف جنيه كان هو النواة الأولى في بناء الصرح الكبير .. وارتبط بنك مصر بثورة مصر واصبح اولى ثمراتها المباركة .. واروع إنجازاتها العملية ..

وكان تشجيع بنك مصر هدفا ثابتا من اهداف الثورة الوطنية .. فحين لجات الثورة الى اسلوب المقاطعة الاقتصادية للمصالح الأجنبية ، طلبت من المصريين ان يسحبوا اموالهم من المصارف الانجليزية وان يودعوها في بنك مصر ، وحثتهم على شراء اسهم بنك مصر « حتى يبلغ راسماله مبلغا يتناسب مع حالة البلاد الاقتصادية ، وبذلك يتسنى للبنك ان يساعد في إحياء المشروعات الوطنية وتنشيط الصناعة والتجارة المصرية » .

وشب الوليد عن الطوق واتسع نشاطه حتى بلغت شركاته ١٤ شركة تمارس نشاطها في جميع فروع الاقتصاد الوطني .. واثبت قدرة المصريين على الوقوف على اقدامهم .. وخرجت الى الأسواق منتجات مصرية اقبل عليها المصريون وهم يشعرون بالفخار والاعتزاز لانها من صنع بلادهم .. وكان من بين الشركات التي اسسها بنك مصر شركة اسمها (بيع المصنوعات المصرية) تخصصت في بيع السلع المصنوعة بايد مصرية .. ولكنها تحولت الآن ـ في ظل الانفتاح ـ الى مركز لترويج السلع المستوردة مثل غيرها من شركات القطاع العام والخاص .. وتبدد الحلم الذي كافح من اجله طلعت حرب منذ ستين عاما على أيدي الغافلين الذين لا يدركون معنى الاعتزاز بالوطنية المصرية .

سنمار المصرى

ما إن فرغ طلعت حرب من بناء قلعة الاقتصاد الوطنى - بنك مصر - حتى كان جزاؤه نفس جزاء البناء الشهير (سنمار) الذى بنى قصرا فخيما لأحد ملوك الفرس الأقدمين ، فلما انبهر الملك من روعة البناء خاف من سنمار ان يبنى لغيره افخم منه ، فصعد به الى سطح القصر ، وألقى به من حالق ، وبات جزاء سنمار رمزا على الجحود ونكران الجميل ، وكان جزاء طلعت حرب الإبعاد عن الصرح الذى بناه على كاهله طوبة طوبة ، ولكن عزاءه الوحيد أن البنك رسخت جذوره في تراب مصر ، وفاءت ظلاله على الروابى الخضر ، وبات حقيقة ماثلة على صلابة الارادة الوطنية فى مواجهة البطش الاستعمارى .. !

■ ■ ■

فعلى مدى عشرين عاما (١٩٢٠ - ١٩٤٠) استطاع طلعت حرب ان يجعل من بنك مصر بيتا مصريا خالصا ياوى إليه المصريون هربا من نار النفوذ الاجنبى الذى ياخذ بخناقهم ، ويستنزف اموالهم ، ويسخر بلادهم سوقا استهلاكية لتصريف منتجات المصانع الانجليزية ، فظهرت شركات بنك مصر لتبنى قواعد النهضة الصناعية والتجارية والادبية والفنية والثقافية ، وبمقتضاها تحولت مصر من بلد زراعى خامل الى بلد مزدهر بالحركة والوعى ، وانطلقت المداخن الى عنان السماء فى المحلة الكبرى وكفر الدوار لتقدم الى المصريين نسيجا من اقطان بلادهم ، ودارت عجلاة (مطبعة مصر) لترعى حركة التثقيف والتنوير وتقدم الى العقل المصرى ثمرات الابداع المصرى ، وقام البناء فى مسرح الأزبكية ليقدم الى الناس فنا مصريا راقيا ، وغذاء ثقافيا مفيدا ، حتى صناعة السينما لم تفلت من نشاط طلعت حرب وقام ستديو مصر فى صحراء الهرم ليرعى صناعة السينما التى كانت حكرا على الاجانب ، واتسع نشاط ٢٤ شركة ليشمل كل مجالات العمل الوطنى من التامين الى العقارات ، ومن صناعة الزيوت والألبان إلى صناعة الاسمنت المسلح والمناجم

والمحاجر ، ومن السياحة والفنادق إلى النقل والملاحة البحرية والطيران .. وباختصار لم يترك طلعت حرب فرعا من فروع الاقتصاد إلا غزاه ، واقام له شركة تحمل اسم (مصر) العزيزة ، وباموال مصرية خالصة ، وبسواعد مصرية شابة وضعت فى موضع الاختبار فكشفت عن جدارتها ، وتولد لديها الاحساس بالثقة والاعتداد بالنفس والاعتزاز بالنسب المصرى ، واضحت شركات بنك مصر مدارس لتفريخ الخبرات التى حملت عبء النهضة الوطنية ، واستردت أرضا كانت سداحا مداحا للغرباء والأجانب .

■ ■ ■

فعل طلعت حرب كل هذه الافاعيل فى ظل الوجود الانجليزى المتسلط على شئون مصر والمتحكم فى إرادتها ، كانت مصر فى ذلك الحين قد حطمت بالثورة اغلال التبعية ، ومضت تمزق اكفانها وتستروح نسمات الحرية ، ولم يكن الطريق سهلا ميسورا .. كانت الحركة الوطنية تشق طريقها فى الصخر لاستكمال مسيرة الثورة ، وتكافح كفاح الصابرين من اجل تحرير الارادة الوطنية من نفوذ ممثل الاحتلال القابع فى قصر الدوبارة ، واستبداد الطاغية القابع فى قصر عابدين ، وهى بين هذا وذاك تتقدم خطوة وتتعثر خطوات ..

وفى هذا الجو المبلد بالدسائس والمؤامرات استطاع طلعت حرب ان يقود سفينة بنك مصر فى غفلة من عيون الاحتلال ، ولو شئت الدقة لقلت انها كانت غفلة الذئب الذى يترك فريسته حتى تتعثر فى شباكه وتسقط مستسلمة فى بؤرة الفشل والاحباط .. فى البداية كان الانجليز يظنون ان بنك مصر مشروع محكوم عليه بالفشل انسياقا وراء الوهم المستحكم بعدم قدرة المصريين على اقتحام دنيا المال والتجارة والصناعة ، ولكن الأيام اثبتت لهم كذب مايزعمون ، ووقف البنك على قدميه كالمارد العملاق .. فلما ثارت غيوم الحرب العالمية الثانية ، واشتدت قبضة الانجليز على اقتصاد مصر ، حانت لحظة الانتقام من طلعت حرب ، وهدم البنك على راس بانيه ، فاوعزت الحكومة البريطانية الى مستشارها المالى فى مصر ليطلب من حكومة على ماهر ان تسحب من بنك مصر رصيد الحكومة المصرية ، وودائع صندوق توفير البريد .

فتعرض البنك لأزمة خانقة فى السيولة النقدية ، اراد طلعت حرب ان يعالجها بالطريق المصرفي السليم وهو اللجوء الى بنك الاصدار ـ وهو يومئذ البنك الأهلي ـ المصرى اسما والانجليزى فعلا ـ ليرهن عنده محفظة أوراقه المالية لقاء قرض يعيد للبنك استقراره ويوفر له السيولة المنشودة ، بعد ان تزاحم الناس لسحب ودائعهم بسبب نذر الحرب ، ولكن البنك الاهلي رفض الطلب بحجة ان طلعت حرب افرط في تقديم قروض « معدومة » الى بعض عملاء البنك . وانكشفت المؤامرة التي افاض احمد السوادى فى وصفها في الفصل البديع الذى كتبه عن طلعت حرب ضمن كتابه (اقطاب مصر بين الثورتين) فقد بعث المستشار الانجليزى برسالة إلى طلعت حرب فحواها انه من الممكن معالجة ازمة البنك إذا استقال الرجل ، ونقل الاصدقاء الرسالة ، وكانت دهشتهم بالغة حينما وجدوا طلعت حرب وقد انبسطت اساريره وهو يقول : الحمد لله .. فليبق بنك مصر لمصر .. وليذهب الف طلعت حرب ..

واجتمعت الحكومة المصرية ، وبدلا من ان تصر على بقاء طلعت حرب على راس البنك الوطني ، استجابت للمطلب الإنجليزى واعدّت مشروعاً تحل فيه الحكومة محل البنك الأهلى ، واجتمع البرلمان لبحث الاتهامات الدنيئة الى وجهت إلى طلعت حرب وتبين للمجلس ان الرجل لم يزل كما كان دائماً مشرق الصفحة وضّاء الضمير ، وان كل ما قيل عنه مفتريات املاها الحقد

ووافق البرلمان على مشروع على ماهر ، وذهب طلعت حرب وجاء حافظ عفيفي المعروف برعايته للمصالح الإنجليزية ، لينفذ الجزء الاخير من المؤامرة وهو ملاحقة رجال الأعمال المصريين ، الذين كانوا يتعاملون مع البنك ، وفرض عليهم تسديد القروض في وقت جفّت فيه ينابيع السيولة النقدية ، فبيعت بيوتهم في المزاد

■ ■ ■

وقضى طلعت حرب ايامه الاخيرة في سكون بعيدا عن الصرح الذي شيده بإصراره وجلده وايمانه . ولم يندم إذ اوى إلى الظل بقوة القهر ، وبقي البناء شامخا يواصل عطاءه النبيل . وظل اسم طلعت حرب مقترنا باغلى اسم لم يزل مرفوعا على هامات المصانع .. اسم مصر .

الوزارة الشـــعبية

لم تمكث وزارة سعد زغلول الأولى والأخيرة فى الحكم سوى عشرة شهور و٢٤ يوما ، وبعدها بدات لعبة الانقلابات الدستورية التى باتت طابع الحياة السياسية فى العصر الملكى ، وكان من نتيجتها ان قضى حزب الأغلبية البرلمانية معظم وقته فى المعارضة ، وتربعت احزاب الاقلية على دست الحكم ، وكان آخر الانقلابات : الانقلاب العسكرى فى يوليو ١٩٥٢ الذى اطاح بالدستور وبالبرلمان وبالحياة النيابية والحزبية معا .

والمؤرخون يخلعون على وزارة سعد اليتيمة صفة «الوزارة الشعبية» أو وزارة الشعب الأولى ، وهم على حق فى هذه التسمية ، لأنها كانت اول وزارة فى تاريخ مصر تتولى الحكم بارادة الشعب وليس بارادة السلطان ، ولقد حاول الملك أحمد فؤاد ان يتملص من هذه الحقيقة الجديدة المؤرقة له ، بان يخدع نفسه ويخدع معه سعد زغلول ، ويفهمه فى خطاب تكليف الوزارة بان اختياره لهذه المهمة الجليلة لم يكن إلا «لصدق ولائك وعظيم خبرتك وسداد رايك فى تصريف الأمور» ولكن سعدا الجسور الواعى لم يبلع هذه العبارات المزوقة التى كانت ترد فى خطابات التكليف فى عصر الوزراء الأغوات .. وردها لملك مصر الاتوقراطى : إننى ما توليت الوزارة إلا بناء على ثقة الأمة ونوابها بشخصى الضعيف ، مما يوجب علىّ والبلاد داخلة فى نظام نيابى احترام ارادة الامة وارتكاز حكومتها على ثقة وكلائها .

ومضى سعد القادم على اعناق الجماهير يضمن «بروجرام» وزارته مبادىء جديدة ثقيلة الوطء على مسامع احمد فؤاد : التمسك بالروح الدستورية فى جميع المصالح ، وتعويد الكل احترام الدستور والخضوع لاحكامه .

ومضى سعد المعجون من تراب مصر وماء نيلها ، يطعم وزارته بوزراء من صميم الشعب ، ولدوا وعاشوا وليس على رؤوسهم ريشة سوى ريشة الجهاد الوطنى ، وزير المواصلات مصطفى النحاس ابن تاجر الأخشاب فى سمنود ، ومحمد نجيب الغرابلى افندى المحامى فى طنطا ، ومرقس حنا المحامى فى اسيوط ، واحمد ماهر افندى وعلى الشمسى افندى .

ولك ان تتصور شعور افندينا المعظم سليل الارستقراطية التركية المتغطرسة وهو يتعامل مع وزراء لا يعرفون الاسموكن والردنجوت ، وليس فى بيوتهم عبيد ولا محظيات ولا جوار .. ورئيسهم نفسه فلاح ابن فلاح واخوته فى إبيانة يحملون أسماء شلبى والشناوى وستهم وفرحانة !

●● هل كنت تتصور أن تسكت أوكار الارستقراطية عن هذا التغير الاجتماعى الهائل الذى حدث باسم الديمقراطية .. وباسم الدستور .. وباسم الحياة النيابية ..!!

●● وهل يمكن لمن تربى فى احضان الاستبداد والطغيان والحكم المطلق أن يسكت عن هذا الفلاح وهو يدق باب قصرة قائلا : عفوا يا مولانا .. ان تصرفك هذا غير شرعى .. لأن الدستور لا يسمح به .. الدستور لا يعطيك حق تعيين أعضاء مجلس الشيوخ المعينين .. والدستور لا يعطيك حق تعيين كبار موظفى القصر دون موافقة الحكومة .. ولا .. ولا ..

●● الله أكبر ..

سلطة الشعب تكبر وتنمو وتتسع لتصل إلى عقر عابدين .. وتسلب صاحبه حقوقا كانت له ولأجداده أشبه بالثوابت والمسلمات غير القابلة للنقاش ..!

●● ولكن .. هكذا قال الدستور .. وإذا تكلم الدستور .. فعلى الجميع أن يصمتوا ، فهل يصمت احمد فؤاد الاتوقراطى بطبعه ، المستبد بالوراثة ، الذى لم يتعود سوى سماع عبارات السمع والطاعة من أفواه العبيد .. وهل نلومه إذا امتلأت نفسه حقدا على هذا الدستور يوم ولد .. ويوم صدر .. ويوم أصبح حدا فاصلا بين سلطاته وسلطات الأمة ..!

●● وهل يسكت كبار ملاك الأراضى الذين وصفوا انفسهم بأصحاب المصالح الحقيقية ، وظنوا أنهم الورثة الطبيعيون لطبقة الشركس المنقرضين ، لقد أسقطهم الشعب فى الانتخابات ولم يمنحهم ثقته ، وأسقط هيبتهم فى مراكز نفوذهم التقليدى فى الريف ..! فتعجبوا من أمر هؤلاء الفلاحين الذين يعملون فى الوسايا والتفاتيش والأبعديات والشفالك .. ما إن اتيح لهم حق الانتخاب حتى تخلوا عن سادتهم وانتخبوا مرشحى الوفد ..! فكيف يمكن ـ بعد ذلك ـ ترويض هؤلاء الفلاحين وقد انحازوا إلى

معسكر سعد واصبح لهم وزراء ونواب وشيوخ ..! ومن المسئول عن هذا التغير الهائل سوى الدستور والبرلمان والحياة النيابية ..! وهل نلوم هؤلاء الجبابرة إذا امتلأت نفوسهم حقدا على الدستور والبرلمان والوزارة الشعبية .. وسعد والوفد ..!!

●● وكبار المثقفين القادمين من اكسفورد وكمبريدج والسربون ، وقد امتلأت رؤوسهم غرورا واستعلاء على الشعب ، وظنوا ان الانتخابات سوف تحملهم من ابراجهم العاجية إلى المقاعد المخملية فى البرلمان .. فما بال الشعب خذلهم .. ولقنهم درسا فى السياسة .. وعلمهم ان التمثيل الشعبى يختلف عن التمثيل الثقافى ، وان الزعامة الشعبية لها اربابها ورجالها الذين يحسون بنبض الجماهير .. فهل نلوم هؤلاء ايضا إذا هم نقموا على الدستور والبرلمان الذى ازدحم «بالجهلة» وخلا من العباقرة «الملهمين»..!!

وتكونت من كل هؤلاء الشراذم جبهة قوية متحدة .. تفرق بينهم المصالح المتباينة ، ويجمع بينهم الحقد على الدستور والنقمة على الوفد ، والتحامل على الحياة النيابية ، والتربص بالسلطة الشعبية .. والتآمر على وزارة الشعب الأولى .. واستجمعت هذه القوى الشرسة اسلحتها يساندها الاحتلال الانجليزى .. فضربت ضربتها .. واطاحت بكل المكاسب التى حصل عليها الشعب .. وبدأ عصر التزوير العلني .. والتزييف الفاضح .. والتدخل السافر لتحطيم إرادة الشعب . وكان سعد يرى هذه المهازل ويتذكر حكومة الشعب فيقول متحسرا : عيبنا الأكبر فى تلك الوزارة اننا اخذناها جدا .. وصدقنا اننا مستقلون ..!!

حزب العرش

شهدت مصر فى حياتها النيابية حياة اقصر البرلمانات عمراً فى العالم ، حيث لم يستغرق عمره سوى تسع ساعات صدر بعدها مرسوم حله قبل ان يتبدد فى الفضاء العريض صدى خطاب العرش الذى القاه رئيس الوزراء احمد زيور باشا امام سيده ومولاه احمد فؤاد .. لقد فعلها الملك تاديبا وتهذيبا وانتقاما من الشعب الذى افسد الخطط الملكية التى عكف فؤاد على تدبيرها فى الظلام . وكانت تهدف إلى هدم الوفد وإقصاء سعد زغلول عن زعامة الشعب ، وسلب الحقوق الشعبية التى تضمنها الدستور ، وإخماد صوت الشعب الذى هتف تحت شرفة قصر عابدين : سعد او الثورة ! لمجرد ان الملك تجرا على تعيين حسن نشات وكيلا للديوان الملكى دون إذن من الحكومة ..!

■ ■ ■

وكانت استقالة وزارة سعد زغلول فرصة ذهبية لتدبير هذه المؤامرة واسعة النطاق لضرب الحياة النيابية فى الصميم ، ونسف مبدا السيادة الشعبية والعودة إلى حكم الصفوة المفروضة على الشعب دون سند او مساندة من الشعب ، وشاركت فى هذه المؤامرة كل القوى التى اضيرت فى الانتخابات ، فالأحرار الدستوريون الذين صاغوا الدستور وطبخوه على نار هادئة انقلبوا عليه وابدوا استعدادهم لمرمطته انتقاما من الشعب الذى خذلهم فى الانتخابات ، وتناسوا خصومتهم التقليدية مع الملك فؤاد مادامت المصالحة سوف تدفع بهم إلى كراسى الحكم ولو عنوة .. او على جثة الدستور الذى وصفوه بانه «فضفاض» .

ومع ذلك ، فإن الملك فؤاد ـ السياسى المحنك ـ لم يسلم ذقنه لخصوم الأمس ، ورأى ان يعطيهم قضمة صغيرة من الكعكة ، اما الهبرة الكبرى فتكون من نصيب حزب جديد يقوم بتاليفه أذناب القصر ومن يلوذ بهم من الوصوليين وطلاب المنافع واصحاب الحاجات ، عسى ان ينجح هذا الحزب الملكى فى سحب البساط من تحت اقدام الوفد ويقتنص منه الاغلبية الشعبية فى الانتخابات .

وفي يوم ١٠ يناير ١٩٢٥ وفي حفل مخملي بلاذخ القيم في فندق سميراميس اعلن عن ميلاد (حزب الاتحاد) وشهد الاحتفال نجوم الارستقراطية المصرية ، قديمها وحديثها ، تحيط بهم شرذمة من محترفي السياسة ، وتتبعهم زمرة من كبار الضباط القدامى ، وتلحق بهم عصبة من الانتهازيين الباحثين عن اللقمة الدسمة فوق أي مائدة .. وبعض الخارجين على الوفد .

●● هكذا ولد حزب الملك ..

وانفض الحفل .. فانفض الحزب .. ولم يسمع له صوت في ارجاء مصر الصابرة الصامدة التي كانت ترقب ما يدبر لها وهي تكظم غيظها وتتحين لحظة الانتقام كي تلقن هؤلاء الأوغاد درسا في احترام ارادة الشعب .

■ ■ ■

وكان تشكيل حزب الملك انتهاكا صريحا لأحكام الدستور ، وخرقا للتقاليد النيابية التي تجعل الملك فوق الأحزاب ، وتنأى به عن المعارك الانتخابية حتى لا يكون فشله فيها استفتاء شعبيا يحسب عليه ، وعلى هذه النقطة يعلق الرافعي المؤرخ قائلا : لم يكن تاليف حزب «الاتحاد» على قاعدة انه حزب الولاء للعرش من الحكمة السياسية ، ولا من الاخلاص للبلاد والعرش في شيء ، فالعرش يجب أن يكون بعيدا عن الاحزاب ، وان يظل للأحزاب كلها ، لا أن يكون له حزب خاص لأن هذا معناه التشكك في ولاء الأحزاب الأخرى للعرش ، ومعناه ايضا ان الدعاية لهذا الحزب إذا لم تنجح - وهي لم تنجح - ولم تنضم له اغلبية الامة ، كان ذلك دليلا على ان اغلبية الأمة مشكوك في ولائها للعرش مما يعد كشفا للعرش وإعلاما بانه لم يكتسب محبة الشعب ..

ويعلل الرافعي دوافع انشاء هذا الحزب في تصور اصحابه بأن الشعب يجب ان يسيره الحاكم كما يشاء ويهوى ، وأن تكون السراي هي مرجع الحكم ومصدره ، اما الشعب - في تصورهم - فلا يصح ان تترك له إرادة في ولاية الحكم او توجيهه ، بل يجب ان يحكم بواسطة حكومة تفرض عليه فرضا ، دون أن يكون له رأى في قيام الوزارات او سقوطها ، وبعبارة اخرى ، لا محل لما يسمونه الدستور ، وإذا كان لابد من نظام دستوري فليكن نظاما صوريا ، او كان لابد من احزاب فليكن اهمها وسيدها الحزب الذي

تنشئه السراى أو يخضع لارادتها وتحركه كيف تشاء ، وهذا الضرب من الحكم هو من انواع الحكم المطلق ، واساسه إهدار حقوق الشعب ، والرجوع به إلى نطاق الذل والعبودية ، وهو نظام يمتنع معه كل تقدم سياسى أو أخلاقى فى البلاد .

■ ■ ■

هذا هو حزب القصر الذى ولد فى الظلام ليكون أداة القصر إلى الحكم .. ومعه بدات الأحزاب السياسية تستنفر انصارها وتحشد اتباعها استعدادا لليوم المنتظر .. اليوم الذى تجرى فيه الانتخابات .. ويقول فيه الشعب كلمته الفاصلة .. وفى ذلك اليوم قال الشعب كلمته فكان لها وقع الصاعقة على رؤوس أعدائه .

وفدية .. سعدية .. زغلولية

كان حل مجلس النواب فى ٢٣ مارس ١٩٢٥ ، وهو لا يزال فى المهد ، اشبه بمهزلة تثير الدهشة والسخط والاشمئزاز ، وكان هذا التصرف الشاذ هو بداية الطريق الوعر الذى اختطه الملك فؤاد المستبد الطاغية ، وتوغل فيه ابنه فاروق المستهتر الذى بلغ العبث بالدستور ، والاستهانة بالارادة الشعبية فى عهده مبلغا عظيما .. وانتهى كل ذلك بتصدع النظام النيابى .. وزعزعة إيمان الأمة بجدوى النصوص الصريحة القائلة بأن الأمة مصدر السلطات .. وانهيار النظام الملكى كله .

وعندما تبحث عن مبرر معقول لحل مجلس النواب ، الذى انتخبه الشعب ، بعد تسع ساعات من انعقاده ـ فلن تجد سوى مبرر واحد هو الحرص على استبعاد سعد زغلول الذى آلت إليه مقاليد الزعامة الشعبية ، وبات ـ ومعه الوفد ـ الناطق الرسمى الوحيد باسم شعب مصر ، فى وقت ظن فيه الظانون انهم احق واجدر بهذه الوكالة اعتمادا على ثراء عريض ، او مجد موروث ، او علم مكتسب.

■ ■ ■

قبل موعد الانتخابات بشهرين جاءوا باسماعيل صدقى ليدير المعركة على هوى الملك ، ويضع السدود والمتاريس امام عودة الوفد إلى البرلمان ، وتقبل صدقى التكليف ممتنا ، فسوف تتاح الفرصة له للانتقام من سعد الذى طرده من الوفد فانتقل إلى المعسكر الآخر ، ومضى فى طريقه غير عابىء بقانون او دستور .. ووضع خطة لتغيير معالم الأرض الانتخابية حتى يتوه فيها اصحابها ، وسلك فى ذلك مسالك اصبحت فيما بعد تقاليد راسخة فى عمليات التزييف والتزوير والتاثير على جهاز الادارة ، فقد عمل على تعديل الدوائر الانتخابية بحيث تخدم مصالح المرشحين غير الوفديين ، ثم تراجع عن نظام الانتخاب المباشر وعاد إلى نظام الانتخاب الثلاثينى الذى الغته حكومة سعد زغلول (ومعناه ان كل ثلاثين ناخبا يختارون ممثلا عنهم لانتخاب احد المرشحين) والقى بكل ثقله على جهاز الادارة من مامير وعمد ومشايخ مستخدما كل

محرم من وعد أو وعيد .. وإغراء أو تهديد .. حتى اثمرت هذه الخطة وظهرت البشائر بتخلي الشعب عن مرشحي الوفد ، لدرجة أن سعد زغلول نفسه لم ينجح في الانتخابات الثلاثينية (يعني لم يجد ثلاثين شخصا يجمعون على انتخابه في انتخابات الدرجة الأولى) ..!!

وعندما فرغ اسماعيل صدقي من إعداد المسرح ، وظن أن كل الترتيبات قد تمت على ما يروم ، مضى إلى مولاه الملك قائلا : تمام افندم .. كل شيء عال .. وتحدد يوم ١٢ مارس ١٩٢٥ لاجراء الانتخابات وتقدمت إليها كل الاحزاب : الوفد والوطني والاحرار الدستوريون .. ومعهم بالطبع حزب القصر (الاتحاد) الذى اطلق عليه سعد زغلول (حزب القش) .

ويبدو أن الهوية الحزبية للمرشحين لم تكن واضحة للسلطات ، وان كانت واضحة للناخبين الذين افلحوا في إخفاء مشاعرهم عن مرشحيهم الحقيقيين ، انتظارا للحظة التي يقفون فيها امام صناديق التصويت .. وعندها يكشفون عن انتمائهم الصحيح . ولعل هذه العملية الانتخابية التي تمت في يوم ١٢ مارس ١٩٢٥ كانت من اشد الأحداث غموضا .. وإثارة ، بل كانت « اغمض » انتخابات عرفتها مصر كما وصفها بحق الدكتور يونان لبيب رزق ، فلم تظهر نتيجتها إلا بعد عشرة ايام من اجرائها ، وقضى القصر والحكومة ودار المندوب السامي طوال هذه الفترة وهم حيارى : كم حصل الوفد ..؟ وكم حصل الآخرون ؟ وتسرعت الحكومة في صبيحة يوم اجتماع المجلس الجديد واعلنت أن الأحزاب غير الوفدية حصلت على اغلبية تسمح باستمرار الحكومة ، وبالفعل اصدر الملك فؤاد مرسوما باستمرار حكومة زيور ، والقى زيور خطاب العرش امام الملك ، وبعد انصراف الملك اجريت مراسم انتخابات رئيس مجلس النواب والوكيلين ، وهنا حدثت المفاجاة التي كان لها وقع الصاعقة : حصل سعد زغلول على ١٢٣ صوتا مقابل ٨٥ صوتا حصل عليها عبدالخالق ثروت مرشح الأحرار الدستوريين ، وفاز بمنصب الوكيلين ، النائبان الوفديان : على الشمسي وويصا واصف ..!! وتبين أن المجلس يضم اغلبية وفدية سعدية زغلولية ..!!

واكتشف الملك انه امام مجلس نواب وفدى ، وأن كل الحيل

التى ابتدعها لم تفلح فى إبعاد الوفد عن الشعب ، وان ذكاء شعب مصر اكثر فاعلية من خبث صدقى ، واحس خصوم الوفد بان الأرض تميد تحت اقدامهم ، وان ما حسبوه تحطيما لقوة الوفد ، انقلب فاضحى إثباتا لهذه القوة ، ويصف الدكتور هيكل هذه اللحظة التاريخية بقوله : لقد وجم انصار الحكومة وجعلوا يضربون اخماسهم فى أسداسهم ويتساءلون : ما عسى أن يتمخض عنه الموقف بعد ..؟؟

■ ■ ■

ولم يضيع زيور باشا وقته فى التفكير .. وإنما عكف سحابة النهار - وهي المسافة الممتدة بين انتخابات الصباح واجتماع المجلس في المساء - على إعداد مرسوم حل المجلس ، وذهب به إلى الملك فؤاد فوقعه على الفور ، وعاد زيور إلى النواب المجتمعين ، وتلا عليهم مرسوم حل المجلس وكانه يقول لهم : نحن لا نريد الوفد ولا نريد سعدا .. ولا نريد الدستور .. ولا نريد البرلمان .. ولا نعترف بشيء اسمه إرادة الشعب .

لطمة ملوكية

كان احمد فؤاد سادس أبناء الخديو اسماعيل الثمانية ، وعندما طرد ابوه من مصر فى عام ١٨٧٩ ، كان هو لا يزال صبيا تخطى العاشرة فكتب عليه ان يقضى صباه وصدر شبابه منفيا فى العواصم الأوروبية فعمل ضابطا فى الجيش الايطالى ولقى العطف من كبار القادة الذين عاملوه على انه (عزيز قوم ذل) . وارتبط فؤاد بالحياة الايطالية شكلا وروحا ، وظلت المؤثرات الإيطالية واضحة فى حياته حتى بعد أن صار ملكا ، فكان للايطاليين وجود كبير فى القصر وفى المشروعات الكبرى ، وورث فاروق عن ابيه حب الطليان ، فكان منهم معظم العاملين فى القصر : الحلاق والطباخ والكهربائى والجناينى .. حتى منسق السهرات الخاصة انطون بوللى .

واستنكف السلطان العثمانى ان يعمل احد رعاياه ضابطا فى الجيش الايطالى فاستدعى الأمير احمد فؤاد إلى الآستانة والحقه بمعيته ثم اوفده ملحقا عسكريا فى فيينا ، إلى ان مات اخوه الخديو توفيق سنة ١٨٩٢ وخلفه ابنه عباس حلمى الثانى فاستدعى عمه احمد فؤاد من المنفى وعينه رئيسا للحرس الخديوى ، وعاد فؤاد إلى مصر ليبدأ مرحلة الصعلكة والفساد فى حياته التى قاربت السبعين . وكان المعروف عنه ـ فى هذه الفترة المبكرة ـ أنه زير نساء ، وزبون دائم على الحانات وعلب الليل وصالات القمار .. يشرب ولا يدفع .. ويخسر ثم يستدين .. ولا يتحرج من ان يمد يده إلى الجرسونات طالبا قروضا غير مردودة لكى يواصل اللعب .. وهناك كثير من اثرياء مصر يفخرون ـ صدقا او كذبا ـ بأن الأمير فؤاد مدين لآبائهم بخمسة جنيهات اخذها على مائدة القمار ..

■■■

وتزوج فؤاد إحدى اميرات الأسرة العلوية ، وهى الأميرة

شويكار فانجب منها فتاة وحيدة هي الاميرة فوقية ، وكان فؤاد دائم الإلحاح على زوجته الثرية لتمده بالدعم اللازم للمجون ، فكانت تابى حينا ، وتذعن احيانا ، وذات يوم رفضت الأميرة شويكار تلبية طلباته فاستشاط غضبا .. ورفع يده وهوى بها على وجه زوجته فى لطمة دوى صداها فى انحاء البلاد حتى بلغ مسامع اخيها الأمير سيف الدين ، وكان شابا عصبيا حاد المزاج لا يحسن التفاهم باللسان ، فما كان منه إلا ان حشا مسدسه بالرصاص وانطلق كالثور الهائج بين البارات والكباريهات بحثا عن زوج اخته ليغسل العار الذى لحقه من اللطمة الملوكية ، حتى عثر عليه فى النادى الخديوى ـ نادى محمد على فيما بعد ـ ودارت بين الأميرين مشادة ساخنة ـ باللغة التركية، طبعا انتهت بأن اخرج الأمير سيف الدين الطبنجة واطلق منها رصاصة استقرت فى حنجرة الأمير فؤاد .. وفشل الاطباء فى استخراجها فبقيت حيث هى ، وبقيت مؤثراتها على حباله الصوتية .. فكانت تصدر عنه اصوات اشبه بالنباح مما يسبب الارتباك لسامعيه ..

وقع هذا الحادث يوم ٧ مايو ١٨٩٨ ، وبعدها قدم الأمير المعتدى إلى المحاكمة ، فحكم عليه بالسجن سبع سنوات ثم خفف إلى خمس .. واستكبر بعض الأمراء الاقوياء ان يعيش احدهم فى السجن بين اللصوص والنشالين وقطاع الطرق ، فتدخلوا لدى حاكم مصر الفعلى ـ اللورد كرومر ـ واستعانوا بتقرير طبى كتبه احد اطباء الأمراض العصبية ، وافتى فيه بأن الامير لا يتمتع بكامل قواه العقلية ، واقتنع كرومر بهذه الفتوى .. واستطاع ان يقنع بها حاكم مصر الشرعى ـ الخديو عباس حلمى ـ فاصدر مرسوما بالإفراج عن سيف الدين على أن يقضى بقية حياته تحت العلاج فى إحدى المصحات النفسية بانجلترا .. ومرت السنون والشاب سجين المصحة العقلية حتى ودع الشباب والكهولة واشرف على الشيخوخة دون أن يتمتع بالضياع الواسعة والثروة الطائلة والنعيم الرغد الذى خلفه فى مصر .

■■■

وتطورت الامور فى مصر على المستويين العام والخاص ، فطلق الأمير احمد فؤاد زوجته شويكار انتقاما من اخيها المتهور ، ثم اصبح سلطانا على مصر بعد وفاة اخيه حسين كامل واعتذر

ابنه كمال الدين عن ولاية العرش .. وجلس فؤاد على الأريكة السلطانية فواتته الفرصة لتعويض ايام الضنك والصعلكة التى قضاها فى البارات والحانات متسولا ومقترضا .. وفكر فى الزواج الثاني فوقع بصره على الفتاة الجميلة - نازلى - كريمة عبدالرحيم باشا صبرى مدير المنوفية السابق ، وحفيدة الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) ، وكانت الفتاة على علاقة عاطفية بشاب يمت إليها بصلة القربى ويعتزمان الزواج عندما شاعت إرادة عظمة السلطان أن ينفرد هو بالفتاة دون خطيبها ، واتخذت اجراءات الزفاف بسرعة بالغة . وفى ليلة الزفاف هربت نازلى من قصر ابيها ولجات إلى بيت خطيبها ، واخذ العاشقان يتنقلان من بيت إلى بيت هربا من جحافل السلطان التى جدت فى البحث عنهما . واخيرا استسلم الشاب واعاد خطيبته ليلا إلى بيت ابيها لتزف فى اليوم التالى - عنوة واقتدارا - إلى عظمة السلطان احمد فؤاد . وشاعت انباء الحادثة فى ارجاء مصر ، وسجلها بيرم التونسى فى قصيدة مشهورة تدخل تحت باب الأدب الفاضح او الجارح - أو الهابط .. ودفع بيرم ثمن تطاوله نفيا وتشريدا .

نزاهــة النحــاس

وَقَعَ اختيار شوكت بك ، وكيل الأمير نوجوان ، على المحامين الثلاثة : مصطفى النحاس ، ويصا واصف ، جعفر فخرى ، لرفع الدعوى لإلغاء الحَجْر المفـروض على الأميـر أحمـد سيف الـدين وتقرير نفقة سنوية له تتناسب مع ثروته الهائلة ومكانته العالية ، وحرر الوكيل مع المحامين الثلاثة عقدا بالاتعاب وطريقة دفعها ، وبدأ المحامون فى ٢ فبراير ١٩٢٧ الاجراءات القضائية ، وسارت الدعوى سيرها الطبيعى امام المحاكم .

ولكن القضية لم تكن كغيرها من آلاف القضايا التى تنظرها المحاكم ، فبطل القضية هو الرجل الذى حاول قتل الأمير احمد فؤاد واطلق عليه رصاصة استقرت فى حلقه ، وسببت له عاهة مستديمة جعلته عاجزا عن توضيح مخارج الالفاظ فيصدر عنه فحيح أشبه بالنباح .

لقد اصبح فؤاد ملكا على مصر ، وراسا لعائلة محمد على ، فانىء له ان يصفح عن الرجل الذى حاول قتله وتسبب له فى كل هذه الأوجاع ، وهل كان له ان يتغافل عن هؤلاء المحامين ويغفر لهم جراتهم عندما قبلوا الوكالة عن الرجل الذى حاول قتل الملك قبل ثلاثين عاما .. لم يكن فؤاد بالرجل الديمقراطى الذى يقدر معنى الواجب الانسانى الذى يفرض على المحامى الوقوف إلى جانب موكله ليستخلص له حقه الضائع .. بل كان يرى فى القيام بهذا الواجب مساسا بذاته المصون .. ومن ثم بَيَّتَ النية على الانتقام .

■■■

واخذت الأحداث السياسية الكبرى تختلط بالأمور الشخصية التافهة حتى ليصعب على الناقد الفصل بينهما ، ففى ذلك الوقت كان الائتلاف قائما بين الحزبين الكبيرين : الوفد صاحب الأغلبية الشعبية ، والأحرار الدستوريين صاحب الأغلبية الارستقراطية ، كان الائتلاف وحسن التفاهم صيغة فرضتها الضرورة بعد الانتخابات العامة التى اجريت فى ٢٥ مايو ١٩٢٦ وفاز فيها الوفد ـ للمرة الثالثة ـ باغلبية ساحقة ، ولكن بات مفهوما أن

الوفد لن يسمح له لتولى سلطاته الدستورية كما تقضى التقاليد النيابية بتسليم مقاليد الحكم إلى صاحب الأغلبية ..

فعندما ظهرت نتائج الانتخابات تحركت بارجتان بريطانيتان نحو ميناء الاسكندرية إشارة إلى إصرار بريطانيا على منع سعد زغلول من العودة إلى كرسى الوزارة حتى لو كان شعب مصر يريد ذلك ، وتقبل الملك فؤاد إشارة الاسطول البريطانى سعيدا مسرورا .. فقد كان ابغض ما يتصوره عودة سعد - أو عودة الشعب - إلى المشاركة فى شئون الحكم . وللخروج من هذه الورطة ، ولكى لا تتكرر مهزلة حل مجلس النواب مرة ثالثة ، تم الاتفاق على أن يتولى عدلى يكن رئاسة الوزارة ، ويتولى سعد زغلول رئاسة مجلس النواب . وبعد اقل من عام استقال عدلى وخلفه عبدالخالق ثروت . وفى عهد وزارته انتقل سعد زغلول إلى جوار ربه ، وتصور الأحرار الدستوريون ان موت سعد قد أزال من طريقهم خصما عنيدا ، وتوقعوا انفضاض الجماهير من حول الوفد بعد غياب زعيمه الأكبر ، ولكن الشعب التف حول مصطفى النحاس بنفس القوة التى التف بها حول سعد ، وبويع النحاس خليفة وزعيما ثم انتخب بالاجماع رئيسا لمجلس النواب فاجتمعت له زعامة الأمة ورئاسة المجلس النيابى ، ثم دخل ثروت فى مفاوضات يائسة مع الحكومة البريطانية لحل المسائل المعلقة بتصريح ٢٨ فبراير ، فلما فشلت المفاوضات استقال ثروت فعهد الملك إلى النحاس بتشكيل أولى وزاراته فى ١٦ مارس ١٩٢٨ ، فلما جلس النحاس على كرسى الوزارة رأى ان التقاليد القضائية تفرض عليه التنحى عن نظر القضايا التى كان موكلا فيها ومن بينها قضية سيف الدين ، وكتب النحاس خطابا إلى شوكت بك وكيل الأميرة نوجوان يخطره فيه بتنحيه عن الوكالة ، أما ويصا واصف الذى خلف النحاس فى رئاسة مجلس النواب فقد عهد بمهمته فى القضية إلى المحامى محمود بك بسيونى .

ووجد الأحرار الدستوريون أن سياسة الائتلاف مع الوفد لم تحقق لهم اغراضهم فبداوا يعملون بإيعاز من القصر والانجليز على فض الائتلاف ، والانسحاب من وزارة النحاس واحدا بعد الآخر .. وحانت الفرصة للملك فؤاد للانتقام من مصطفى النحاس عن طريق تلويث سمعته وتعريض نزاهته المعروفة للشكوك ..

وبدات المؤامرة الدنيئة بسرقة عقد الاتفاق المبرم بين المحامين الثلاثة والوكيل .. ومحاولة إثارة الأقاويل حول فداحة الأتعاب التي تضمنها العقد .. واخذت المؤامرة طريقها إلى العلنية على وجه الصحف المعادية للوفد ، وفي شكل حملة تجريح لم يسبق لها مثيل ضد النحاس وهو لايزال على رأس الوزارة . ففي يوم ٢٤ يونية ١٩٢٨ خرجت صحيفة «السياسة» تحمل العناوين الآتية : «مصطفى النحاس وويصا واصف وجعفر فخري ينتهزون فرصة ضعف الأمير سيف الدين والأميرة امه ويسعون كما يسعى احط الأنذال لابتزاز اموال هذه الأسرة ابتزازا ..» وقالت «الأخبار» لصاحبها امين الرافعي .. «الا إنه شرف النعال ، وإنها لكرامة الأوحال ، وإنها لأمانة المحتال ، وإنها لصيانة دستور الدجال .. الا تخشى ان يتلطف معك صاحب الجلالة ويسالك اين استقالتك ؟ فبماذا تجيب أيها النتن القذر ..!» .

وصدقت نبوءة الصحيفة وفي اليوم التالي انكشفت ابعاد المؤامرة ، فاصدر الملك فؤاد مرسوما بإقالة النحاس زعيم الأغلبية . وهكذا دَبر ونفذ أشد الانقلابات الدستورية إسفافا ، وافسدها ، اسلوبا .. واحَطها تعبيرا .. واوى مصطفى النحاس إلى الظل ينتظر عدالة السماء لتقضي بينه وبين خصومه الألِداء .. حتى بَرّاه الله مما قالوا .

اليــد الحديديــة

إقالة اول وزارة للزعيم مصطفى النحاس فى ٢٥ يونية ١٩٢٨ ، عن مؤامرة محبوكة شارك فى تدبيرها اصحاب القصرين : عابدين والدوبارة ، بالاضافة إلى حزب الأحرار الدستوريين الذى كان مؤتلفا مع الوفد فى وزارة النحاس .

لم يكن هدف المؤامرة ـ فقط الاطاحة بوزارة النحاس ، وتلويث سمعة الرجل الثائر الذى عمل قاضيا ومحاميا ووزيرا فكانت نزاهته ابرز صفاته ، وإنما كان الهدف اعمق ، وهو الانقلاب على الدستور ، وتصفية البرلمان ، ووضع البلاد تحت مظلة حكومة استبدادية ليس لها سند سوى تاييد القصر والانجليز ، فاطلقت على نفسها اسم «اليد الحديدية» دلالة على انتهاجها العنف والقمع وكبت الحريات وتكسير قوانيس الديمقراطية .

تلك كانت وزارة محمد محمود باشا زعيم حزب الأحرار الدستوريين الذى كان وزيرا فى وزارة النحاس ثم استقال بايعاز من الملك حتى يترنح الائتلاف ، ويوجد مبرر امام الملك لاقالة الوزارة بحجة تصدع الائتلاف . وتلاقت إرادة المتامرين الثلاثة : الاحرار والانجليز والملك على تصفية الائتلاف . بعد أن فشل كل طرف فى استثماره لمصلحته الخاصة .

اما الأحرار الدستوريون فقد ارادوا من الائتلاف أن يهيىء لهم فرصة الاستيلاء على تراث الوفد بعد رحيل زعيمه الأكبر سعد زغلول . وكان ظنهم أن شخصية مصطفى النحاس لن تسد الفراغ الهائل الذى تركه سعد . ولكن النحاس خيب فالهم .. وكشف عن شخصية عنيدة صلبة يصعب اكلها ، ومن ثم تبخرت آمال الأحرار فى تعويض ضعفهم الشعبى عن طريق شعبية الوفد ، فاتجهوا إلى فض الشركة حتى ينفردوا بالحكم ولو على جثة الدستور الذى

ينتسبون إليه اسما وتاريخا .. ولكنه انقضوا عليه طمعا فى السلطة

اما الانجليز فقد وقعوا فى نفس الشرك الذى وقع فيه الأحرار بالنسبة لشخصية النحاس ، وظنوا انه سيكون اقل صلابة من سعد ، واكثر استعدادا منه لقبول العروض البريطانية لعقد معاهدة تحدد علاقة مصر بانجلترا ، ولكن النحاس لم يكن اقل صلابة من سعد . ولم يكن لديه ادنى استعداد للتهاون فى حقوق مصر القومية ، وتعمد لويد جورج ـ المندوب السامى ـ أن يقدم للنحاس نفس العروض التى سبق أن رفضها النحاس عندما عرضها عليه عبدالخالق ثروت فى الوزارة السابقة . وكان معنى ذلك الاطاحة بحكومة النحاس الائتلافية ، وتشكيل وزارة اقلية تكون اكثر ليونة .

واما الملك فقد قَبِلَ صيغة الائتلاف بين الوفد والاحرار لأن سعد زغلول ارتضاهاً .. اما وقد مضى سعد إلى جوار ربه ـ فلا محل لبقاء الائتلاف ، ولا معنى لبقاء النحاس شوكة فى حلق الملك مثل الرصاصة التى اطلقها عليه سيف الدين ـ ومن ثم تولدت الرغبة فى العدول عن الحكم النيابى والعودة إلى الحكم المطلق عن طريق وزارة (اليد الحديدية) التى استفتحت عهدها بتعطيل البرلمان لمدة شهر ، قامت خلاله بحملة دعائية غوغائية ضد الدستور والحياة النيابية ، وتسميم المناخ الديمقراطى ، والزعم بان الشعب المصرى لا يصلح للحياة البرلمانية ولا يستحق الدستور ، وان الاغلبية تمارس الاستبداد ، من هنا ظهر تعبير (طغيان الاغلبية) الذى ورد كثيرا على لسان الدكتور هيكل باشا .. وقبل نهاية الشهر استصدرت الوزارة امرا ملكيا بحل مجلسى النواب والشيوخ لمدة ثلاث سنوات حتى تتهيا للوزارة فرصة العمل فى هدوء !!

وهكذا تمت وقائع الانقلاب الدستورى الثالث خلال خمس سنوات هى عمر الحياة الدستورية المصرية ، وتم حل البرلمان للمرة الثالثة ولم يتجاوز عمره سنتين وبضعة ايام ، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الحكم الاستبدادى بقيادة الملك احمد فؤاد ، وبرعاية المندوب السامى البريطانى ، اما اداة الانقلاب فكانت الأحرار الدستوريين .. وبدأ محمد محمود سياسة القمع

والارهاب بتعطيل الصحف اليومية ومنع الاجتماعات السياسية ، وفتحت السجون ابوابها لتستقبل أحرار الساسة والكتاب والصحفيين ، واستدار الملك لينتقم من مصطفى النحاس ورفيقيه ويصا واصف وجعفر فخرى ، لقبولهم الوكالة عن الامير سيف الدين . واستحكمت حلقات الانتقام بتقديمهم إلى النيابة ومنها إلى المحاكمة التاديبية فى ظل حملة غوغائية شرسة لتلطيخ سمعة مصطفى النحاس ، ووقف مكرم عبيد المحامى مدافعا عن رفيق جهاده مصطفى النحاس .. موجها الكلام إلى القضاة :

« عندما بدا للنيابة ، او ابدى لها ، أن ترفع هذه الدعوى التاديبية وجاءنا نبؤها ، كنت مع صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا واتيح لى ان اتبين اثر ذلك النبا السىء فى نفسه قبل ان اتبينه فى نفسى ، فرايته يضحك من خصومه ويهزأ باساليبهم ، ولولا بريق فى عينيه وهزة فى صوته دلت على كمين جرحه ، وثورة فى نفسه ، لظننت ان شعوره كان مقصورا على عدم المبالاة والازدراء ، ولكن مصطفى النحاس الذى عُبئت جميع القوات لمحاربته ، وشُحذ كل سلاح ونُبشت كل قاذورة إما للنيل من شجاعته أو من كرامته ، هذا الرجل ما كان خصومه ليعباوا بمقاتلته إذا لم يكن مقاتلا ، او يجمعوا جموعهم لمناضلته إذا لم يعرفوا فيه مناضلا ، ولذلك لم يدهشنى ان رايته يستبشر بتلك المعركة النهائية الحاسمة بين حقه وباطلهم ، وان يعد لها العدة ، لا من صحيفة الاتهام ، بل من صحيفة نفسه الطاهرة» .

حــادث ســرقة !

فَوْرَ تعيين النحاس باشا رئيساللجلس الوزراء في ١٦ مارس ١٩٢٨ ، بادر إلى التنازل عن الوكالة في قضية الأمير سيف الدين ، وبعث إلى شوكت بك وكيل الأميـرة نـوجـوان أم سيف الـدين إخطـارا بتنحيه عن نظر القضية .. لقد فعل النحاس ما يمليه عليه ضميره ، وما تفرضه مقتضيات الأمانة والشرف ، فلم يكن مقبولا ولا معقولا أن يستمر - وهو رئيس الوزراء - في ممارسة مهنة المحاماة ، وتصورَ الرجل الطيب أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، ونسى أن الخير قد ينام مطمئنا ، ولكن عيون الشر لا تنام ، وأن أبناء إبليس يتحركون في الظلام يدبرون له المكائد والدسائس ، ويبحثون عن كل نقيصة لتلويث سمعة رجل كان كل رأسماله الشرف والنزاهة .. ولم يتورعوا في سبيل تحقيق ماربهم عن ارتكاب جرائم تماثل تلك التي نراها في القصص السينمائية .

■■■

قبل أسبوع من تعيين النحاس باشا ، وقع بالاسكندرية حادث سرقة تافه في مظهره ، خطير في مغزاه وأبعاده ، كان جعفر بك فخري المحامي وشريك النحاس وويصا واصف في الوكالة عن سيف الدين يقضي مع أسرته إجازة بالقاهرة ، وترك بيته في حراسة الخدم بعد أن أحكم إغلاق النوافذ ، ولكن في صبيحة ٨ مارس ١٩٢٨ لاحظ بعض الخدم أن إحدى النوافذ مفتوحة على مصراعيها فأبلغوا مكتب جعفر بك ، فخف إليهم بعض المحامين العاملين بالمكتب ودخلوا إلى المنزل عبر النافذة المفتوحة فاكتشفوا أنها مكسورة من الداخل ، ثم تفقدوا أثاث البيت فوجدوه سليما من كل عبث فاطمأنوا وأقفلوا النافذة وأخطروا جعفر بك تليفونيا بالأمر ، فاطمأن لما علم بأن شيئا من التحف الثمينة لم يُسرق ، فلما عاد إلى بيته بعد بضعة أيام تبين له بعد البحث الدقيق في غرفة المكتب أن سرقة قد وقعت بالفعل ، وأن السرقة قد اقتصرت على مستندات خاصة تتعلق بقضية سيف الدين أهمها عقد الاتفاق المبرم بين المحامين الثلاثة وشوكت بك وكيل الأميرة ، واتهم جعفر بك طباخ البيت بالسرقة فقبض عليه وسيق

إلى النيابة للتحقيق ، وقد صحب معه احد المحامين العاملين فى دائرة الأمير سيف الدين ، مما يقطع بان الدائرة كانت على علاقة بحادث السرقة وإن لم يكن الطباخ هو السارق الفعلى ، فقد تبين بعد ذلك أن اللص هو كاتب فى مكتب جعفر بك ، خان سيده لحساب المتامرين الكبار .

■■■

وانتهى الفصل الأول من هذه الكوميديا السوداء ، بالافراج عن الطباخ لعدم كفاية الأدلة ، وبقيت المستندات المسروقة مخفية فى انتظار الوقت المناسب لنشرها فى شكل فضيحة تحط من كرامة المحامين الثلاثة على اساس انهم اتفقوا مع الوكيل على اتعاب باهظة مقابل العمل على رفع الحجر عن الأمير امام مجلس البلاط ، وانهم استغلوا نفوذهم السياسى للتاثير على الوكيل .

وجاء الوقت المناسب لتفجير القضية عندما فقد الانجليز الأمل فى تطويع إرادة مصطفى النحاس ، وحمله على قبول عروضهم لعقد اتفاق ينظم العلاقة بين مصر وانجلترا . واضاء الانجليز النور الأخضر للملك فؤاد للتخلص من النحاس - زعيم الأغلبية الشعبية ..!! - فاوعز بدوره إلى الوزراء التابعين لحزب الأحرار الدستوريين كى يستقيلوا فيتصدع الائتلاف الوزارى ويقال النحاس .

وقبل الاقالة بيومين ، فوجىء الناس بالمستندات المسروقة منشورة فى الصحف الموالية للقصر وفى جريدة الأهرام وسط سيل من الشتائم والقاذورات الموجهة إلى شخص مصطفى النحاس واتهامه بالنصب والاحتيال والرشوة واستغلال النفوذ ، وإن كان الهدف الحقيقى منها هدم الدستور وتحقير الحياة البرلمانية وإقناع الراى العام بعدم جدوى النظام النيابى ، والربط المتعمد بين قضية الوثائق المسروقة وقضية الديمقراطية فى مصر . فتحت عنوان «مساكين» قالت صحيفة «السياسة» لسان حال الأحرار الدستوريين فى ٢٥ يونية ١٩٢٨ : «إنهم ياتمرون بالوطن وحقوقه حرصا منهم على البقاء فى الحكم لينصبوا وليسرقوا وليرتشوا وليفعلوا ذلك كله بالوثائق موقعة باسمائهم ، وقعوها فى غير خجل ولا حياء .. إلى أن قالت : دعك من انهم لا يقدرون شيئا اسمه الشرف ولا الكرامة ، فليس يطلب إلى الناس

جميعا أن يكونوا ذوى شرف وكرامة ما دام فى الناس مجرمون بالفطرة يستحقون أن يتخلص المجتمع منهم تخلصا حاسما » .

■■■

وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى تكشف الهدف الأعمق من إثارة قضية سيف الدين وتلويث سمعة النحاس وزميليه . فقد عهد الملك إلى محمد محمود باشا زعيم حزب الأحرار ـ المستقيل من وزارة النحاس ـ بتشكيل الوزارة الجديدة ، فعطل البرلمان لمدة ثلاث سنوات بحجة ان الفساد قد دب فيه فاستحق التعطيل ، وقال فى حديث مع مراسل صحيفة شيكاغو تريبيون ونشرته الأهرام : «ان البرلمان عندما يصير مشوبا بالفساد لا يعود دستوريا ، وهذا هو البرلمان الذى عطلته ، فقد كان زعماء البرلمان الماضى يتاجرون بمناصبهم العالية ..» .

●● فهل صحيح ان النحاس تاجر بمنصبه العالى ..؟؟ .

●● الم يتنازل الرجل عن وكالته فى القضية وتنحى عن النظر فيها فور تعيينه رئيسا للوزراء ..؟؟

ولكنها الأحقاد السياسية والضغائن الحزبية التى دفعت خصوم النحاس إلى التغاضى عن مسالك الحق .. وارتكاب أساليب الفحش من اجل الاطاحة بالرجل وتلطيخ صورته فى عيون الجماهير التى تحبه وتثق بنزاهته وأمانته وشجاعته ..

« ويمكرون ويمكر الله .. والله خير الماكرين» صدق الله العظيم .

أمير فى المنفى

سبعة وعشرون عاما قضاها الأمير سيف الدين حبيس السجن واليأس والضياع بسبب رصاصة طائشة اطلقها على زوج اخته الأمير احمد فؤاد ، منها سنتان عاشهما فى احد السجون المصرية ، اما ربع القرن الذى امتص عصارة حياته ، فقد قضاه منفيا فى إحدى المصحات العقلية فى قرية تقع بالقرب من لندن عاصمة الامبراطورية البريطانية ، وهى فترة كانت كفيلة بتدمير قواه العقلية والجسمانية والنفسية ، حتى تحول إلى كائن سقيم .

وكانت عملية إبعاد الأمير سيف الدين من سجنه المؤقت فى مصر ، إلى منفاه المؤبد فى بريطانيا عام ١٩٠٠ تحت ستار العلاج ، قد تمت من خلال مؤامرة دنيئة من مؤامرات القصور التى كانت شائعة فى ذلك العصر ، وشاركت فيها القوى الخفية التى كان يهمها الخلاص من الامير الثرى الأهوج ، حتى يخلو لها الجو لاستلاب ثروته الطائلة التى قدرت يومئذ بعشرة ملايين جنيه ، ولاتزال آثارها باقية حتى اليوم فى تلك العمارات الشامخة بشارع قصر العينى ، وفى العمارات المتكررة القائمة على ارض خان الخليلى ، ولاتزال أبوابها الحديدية تحمل اسم : سيف الدين .

ولقد تم تنفيذ المؤامرة وفق خطوات محسوبة ، بدأت باستصدار حكم بتوقيع الحجر عليه حتى يحرم من التصرف فى امواله ، وكانت الخطوة الثانية إبعاده عن مصر نهائيا ، ووضعه فى مكان سحيق يقضى فيه بقية عمره ، وعلمت امه الأميرة نوجوان ـ وكانت تقيم بصفة دائمة فى تركيا ـ بما يدبر لابنها فى الخفاء ، فكتبت الى اللورد كرومر مستنجدة ومحذرة ليقطع على المتآمرين سعيهم ، ووعدها اللورد بما أثلج صدرها ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى وقع ما خشيته الام ، وتمكن علية القوم من تنفيذ مخططهم ولم يتحرجوا من ارتكاب التزوير لتنفيذ مسعاهم .. فجاءوا باحدى أميرات البيت المالك فانتحلت لنفسها صفة ام الأمير وحررت التماسا إلى حكومة الخديو عباس حلمى تطلب فيه نقل ابنها ـ المزعوم ـ من سجنه ليلقى الرعاية والعلاج فى مصحة « تايسهرست » فى بريطانيا ، واستجابت الحكومة

لطلب الأم المزيفة ، وتم بالفعل نقل الأمير إلى منفاه السحيق دون ان تدرى امه الحقيقية بما جرى له .

وبدات الام المنكوبة نوجوان رحلة البحث عن ابنها الضائع في المدن الأوروبية ، حتى عرفت المكان الذى وضع فيه ، وفي عام ١٩٢٤ طلبت الام رؤيته فرفضت ادارة المصحة ، وقالت لها انها لا تعرف له اما غير الأم التي طلبت إدخاله المصحة ، ولجات الأم إلى أحد كبار المحامين الاتراك اسمه جلال بك عارف ، كان سفيرا سابقا لتركيا في روما ، فانتقل الى بريطانيا وقابل رئيس الوزراء رامزى مكدونالد وعرض عليه ماساة الام المحرومة من لقاء ابنها .. وقضية الأمير المسجون رغم انفه .. ولكن إدارة المصحة اظهرت له نص الطلب الأصلي الذى تقدمت به الأم المزيفة لعلاج الأمير ، ويحتوى على امر صريح منها يحظر على الأمير مقابلة اى انسان .. ! وبالرغم مما ينطوى عليه هذا الطلب من ريبة ، فقد التزمت به ادارة المصحة مما يدل على انها كانت متواطئة مع المتامرين .. ومع ذلك تمكن المحامي من لقاء الامير سيف الدين عن طريق الرشوة فوجده شيخا دب فيه الضعف والوهن ، وحصل المحامي على تقرير من الحارسين المكلفين بحراسته قالا فيه : كان الأمير عند دخوله المصحة في حالة طيبة للغاية ، واستمرت هذه الحالة خمس او ست سنين ، وكان محبوبا من الجميع وقد بدا الاضطراب العقلي بعد ذلك من جراء التضييق عليه ، ولأنه كان محروما من الاختلاط الجنسي ، ولأن حياته كانت متشابهة جملة ، ولانه كانت تعطى له كمية هائلة من الخمر والدخان .. الأمر الذى يكشف عن رغبة مبيتة لتدمير الرجل .

وعندما اطلعت الأم البائسة على حالة ابنها جن جنونها ، واصرت على تحريره ليقضي ما بقي من عمر في حضانتها ، واستخدمت سلاح الرشوة حتى تمكنت من تهريبه إلي تركيا في اغسطس ١٩٢٥ وهناك اتاحت له رعاية طبية مكثفة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من بقايا عمره الضائع ، وارادت الأم أن تستخلص ثروته التي تكالب عليها النهابون ، فاوفدت وكيلها محمد شوكت بك إلى مصر ليرفع قضية امام المحاكم المصرية يطلب فيها رفع الحجر عن الأمير سيف الدين ، وتقرير نفقة شهرية من امواله المجمدة تتناسب مع مكانته الاجتماعية ، ووقع اختيار الوكيل على ثلاثة

من مشاهير المحامين ليباشروا القضية ، اما اول هؤلاء المحامين فكان حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا ، وكان الثانى ويصا بك واصف ، وكان الثالث جعفر بك فخرى ، وأما عن سبب اختياره لهؤلاء المحامين الثلاثة من دون خلق الله فقد قال : لمعرفتى لأهمية القضية اردت ان انتخب اناسا اصحاب علم غزير وقوة دفاع ، وشجاعة مدنية ، واصحاب ذمة طاهرة ولهذه الاسباب انتخبت صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا لكونه صاحب هذه الصفات كلها وصاحب الشجاعة المدنية ، صحيح والله .. ما شفتش فى عمرى إلا إميل زولا فى فرنسا ومصطفى النحاس باشا فى مصر .. فهما الاثنان اتهما النيابات فى القوة المستبدة بقولهما : انى اتهم .. وده وجه مشابهتهما لبعض .. فترجيت من حضرة رئيس النيابة إذا كان لديه معرفة بالشخص الثالث اللى يماثلهما فى الشجاعة المدنية حتى افتخر به بصفتى إنسانا ، وانتخبت ويصا واصف بك لعلمه الغزير وطهارة ذمته ، وانتخبت جعفر فخرى بك اولا لمعرفته باللغة التركية ، وثانيا لمعرفتى بماضيه الشريف .

ولكن هذا الاختيار كان سببا فى ابتلاء المحامين الشرفاء وتعريضهم لأبشع انواع الانتقام .

براءة

كان المنتظر ـ وقد ظهرت المستندات المسروقة من بيت المحامى جعفر بك فخرى منشورة فى الصحف ـ بعد ان تبادر النيابة العامة إلى إعادة التحقيق فى جريمة السرقة للتوصل الى الفاعل بعد أن ظهر جسم الجريمة ، ولكن النيابة سكتت سكوت اهل الكهف ، عندئذ تقدم جعفر بك الى النيابة طالبا التحقيق ، ومرة اخرى لم تتحمس النيابة للبحث عن اللص لانها كانت تعرفه وتعرف الا ىى الجبارة التى تقف خلفه ، واكتفت النيابة بسؤال مديرى صحيفتى الأخبار والسياسة عن كيفية حصولهما على الوثائق المسروقة ، فاحتمى كل منهما وراء « سرية المهنة » فابلغ جعفر فخرى النائب العام بان الاحتماء وراء سرية المهنة هو تضليل ، الهدف منه إعانة المتهم على الهرب من وجه العدالة ، ومرة ثالثة لم تحرك النيابة ساكنا مما دفع مكرم عبيد المحامى إلى نقد موقف النيابة نقدا لاذعا .. واعتبره تقصيرا معيبا فى حق العدالة ، وقال ساخرا : لو ان الأمر كان خاصا بمنشور سياسى لقامت النيابة وقعدت وفتشت جميع المطابع والمحال القريبة والبعيدة للبحث عن ذلك المنشور ولو لم تكن عناصر الاجرام متوافرة ، اما والجريمة ظاهرة والدليل ملموس فالنيابة لم تتحرك بينما تجهد نفسها فى تحقيق المفتريات ضد النحاس وزميليه ، وتنتقل من بلد إلى بلد عسى ان تصل إلى دليل او شبهة إدانة .

واختتم مكرم عبيد هذا الشق من دفاعه بهذه العبارة البليغة فى قسوتها : حقا إن عدالة النيابة فى هذه القضية عدالتان .. وإذا كانت هناك عدالتان فلا عدالة بالمرة .. !

■ ■ ■

كان هذا موقف النيابة من قضية سرقة الوثائق .. اما موقفها من حملة السباب والقذف فى حق الزعيم مصطفى النحاس فقد كان ادهى وامر .. لقد تقدم النحاس باشا ببلاغ الى النيابة ضد الصحف التى وجهت إليه اقذع التهم واشنعها واحطها .. ومع ذلك حفظت النيابة التحقيق بالنسبة للقاذفين ، وقدمت النحاس وزميليه إلى المحاكمة التاديبية .. وهم ضحايا القذف

والسب .. !! وكان هذا الموقف من النيابة من اغرب المواقف فى تاريخ القضاء المصرى ، وارتكنت النيابة فى قرار الحفظ الى ان الوقائع المنسوبة للنحاس باشا وزميليه صحيحة ، وان ما يشكون منه فقط ـ هو التعليق عليها .. وارتكنت ايضا إلى ان الأحكام القضائية تبيح نقد الخصوم السياسيين .

وانبرى مكرم عبيد لتفنيد حجج النيابة فقال إن الطعن فى هذه القضية ليس موجها إلى الخصوم السياسيين بوجه عام ، بل إلى اشخاص معينين بالذات هم النحاس وزميلاه ، ولذلك فالألفاظ الموجهة إليهم تعتبر من قبل الاهانة والسب .. واذا كان النقد مباحا فى النظم الديمقراطية إلا انه يجب ان ينصب على العمل دون غيره .. ثم تساءل : فاين هذا من تعليق الصحف على الوثائق المسروقة .. هذا التعليق لم يتناول العمل ، بل تناول الاشخاص وجاء بعيدا عن الاعتدال والاخلاص اللذين جعل منهما القانون شرطا اساسيا فى النقد ، لايمكن أن يكون منه ان ينسب إلى المطعون عليهم انهم نصابون ومرتشون ومجرمون بالفطرة واحط الانذال .. قذرون .. ونتنون ؟ إنه بذلك لا ينقد عملهم او سياستهم .. ولكنه طعن فى الشرف والأمانة باجلى معانيه .. ولو قلنا بأن هذا نقد مباح لفسد الجو الذى نعيش فيه واصبح جو شتائم وسباب !!

ونهض مكرم عبيد لتفنيد تهمة استغلال النفوذ السياسى التى وجهتها النيابة إلى النحاس وزميليه فقال : إن الاتهام لا يحدد كيفية استخدام النفوذ ؟ بل يتهرب من التحديد عمدا بحجة ان هذا التحديد لا يهم الاتهام !! وتساءل مكرم عبيد : ماهذا الهزل فى قالب الجد ، هل من المعقول ان توجه إلى متهم تهمة عائمة حائرة لا تستقر على حال ، حتى إذا سد الدفاع بعض الأبواب استفتح الاتهام ابوابا اخرى .. وهكذا دواليك إلى ان يقضى الله امرا كان مفعولا ..

ولم يكن مكرم عبيد باشا هو المحامى القدير الوحيد فى هذه القضية المثيرة ، وإنما كان يعمل ضمن فريق من فطاحل المحامين تطوعوا للدفاع عن زعيم الوفد وزميليه هم : محمد نجيب الغرابلى باشا ، وحسن صبرى باشا ، ومحمود بك بسيونى ، وكامل بك صدقى ، وانبرى كل منهم للرد على جانب من جوانب الاتهام ،

وشغلت مذكرات دفاعهم اكثر من الف صفحة كانت فى مجموعها شهادة فخار وتمجيد لمصطفى النحاس ، وبيانا لسلوكه البعيد عن مواطن الشبهات .

وفى يوم ٢ فبراير ١٩٢٩ انتهت اجراءات المحاكمة ، وانعقد مجلس تاديب المحامين المنبثق عن محكمة استئناف مصر الاهلية برئاسة حضرة صاحب المعالى حسين درويش باشا وكيل المحكمة ، وبحضور حضرات اصحاب العزة عبدالحكيم عسكر بك ، ومحمود سامى بك ، ومحمد بهى الدين بركات بك المستشارين بالمحكمة ، وعبدالخالق عطية افندى عضو نقابة المحامين واحمد شرف الدين بك رئيس نيابة الاستئناف ، واحمد عوض الشاذلى افندى سكرتير المجلس . واصدر المجلس حكمه التاريخى ببراءة كل من :

- حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا
- ويصا واصف افندى رئيس مجلس النواب
- جعفر فخرى بك المحامى .

واسدل الستار على هذه القضية التى شغلت الراى العام لكثرة ما استخدم فيها من فنون الدس والتامر والتلفيق والسب والقذف ، ومع ذلك لم تلفح كل هذه الأساليب الدنيئة فى إطفاء نور الحق .. ولم تنل من سمعة النحاس باكثر مما تنال ريح السموم من المعدن الاصيل .. « وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » صدق الله العظيم .

في خندق الشعب

كان مصطفى النحاس من الزعماء القلائل الذين اعتنقوا الديمقراطية فكرا وسلوكا .. لدرجة يصعب معها الفصل بين أفكاره وممارسته العملية . فكان يقول مايفعل ، ويفعل مايقول ، وهو في هذا يختلف عن طراز من السياسيين المصريين كانوا يتغنون بالديمقراطية مادامت الديمقراطية تعود عليهم بالمغانم ، ويتغزلون في عظمة الشعب بشرط ان يدفع بهم إلى السلطة ، ولكنهم سرعان ما يتنكرون للديمقراطية إذا حالت بينهم وبين الحكم ، وسرعان مايسبون الشعب اذا حجب ثقته عنهم ، ولا يتورعون عن الانضمام الى صفوف اعدائه وفرض الوصاية عليه بحجة أنه قاصر .. ومضلل .. ولايعرف مصلحته .

كان مفهوم الديمقراطية عند مصطفى النحاس بسيطا لا تعقيد فيه ولا فذلكة ، إنه يعني الاحتكام الى الشعب ، واحترام إرادته ، واحترام مبادىء الدستور التي تنظم السلطات العامة ، وتنص على أن الأمة - وليس الملك - مصدر السلطات ، وكان الخروج على الدستور أو انتهاك احكامه - كبيرة الكبائر التي لا تغتفر ولا تقبل التسامح عند مصطفى النحاس ، ولذلك كانت حياة النحاس السياسية سلسلة من المعارك والحروب الشرسة مع أعداء الدستور وأذناب القصر ، وانصار الحكم المطلق ، وجميع القوى الرجعية والفاشية التي أرادت أن تجعل من الدستور مجرد ديكور مستورد من بلاد الفرنجة يرضي أحلام المثقفين المفتونين بنظم الحكم الغربية ولكنه - في النهاية - يعني استمرار الحكم الاتوقراطي الموروث عن عصر الاغوات

● ● ●

من أين اكتسب مصطفى النحاس هذه النزعة المتشددة في احترام الدستور والقانون والانحياز إلى الكتلة الشعبية العريضة ؟ هل تعود إلى سليقته التي فطرت على عشق الحرية والنفور من الاستبداد ؟ ربما .. هل تعود إلى نشاته القانونية محاميا وقاضيا ؟ ربما .. هل تعود إلى جذوره الاجتماعية الممتدة في الشريحة الوسطى من السبيكة المصرية الخالصة ؟ يجوز ..

على اية حال كان مصطفى النحاس ظاهرة فريدة فى تاريخ مصر بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، وشاء حظ مصر الطيب أن يظهر مصطفى النحاس على هذه الصورة المتشددة فى التمسك بحق المصريين في إدارة شئونهم عن طريق حكومة مسئولة امام برلمان منتخب ، وشاء حظ النحاس العاثر أن يعاصر الحلقات الأخيرة من سلالة الأسرة العلوية وهي تدخل مرحلة الاحتضار وتحارب معركة البقاء ، وتدافع عن وجودها الاستبدادى فى مواجهة الشعب المصرى وهو يتلمس طريق الخلاص والفكاك ..

فالملك فؤاد كان ينطوى على بغض دفين للديمقراطية ، وبرث عن آبائه احتقارا خسيسا للشعب المصرى ، وفى خلال السنوات الست الأخيرة من حكمه ، وهى الفترة التى شهدت مولد الحياة النيابية بعد دستور ١٩٢٣ استخدم هذا الاتوقراطى العريق حقه في حل مجلس النواب بكثرة لم يشهدها اطلاقا تاريخ الدساتير .. فقد بلغت مرات الحل اربعا انتهت بإلغاء الدستور نفسه .

اما فاروق ـ الغلام العنيد الأحمق ـ فقد ورث عن ابيه كراهة الدستور ومصطفى النحاس ، ولذلك قضى النحاس ـ زعيم الأغلبية الشعبية ـ ما مجموعه عشر سنوات بعيداً عن حقه الدستورى فى الحكم خلال عهد فاروق الذى بلغ ١٦ سنة ، وكانت سنوات الغيبة العشر من نصيب احزاب الأقلية وأذناب القصر الذين استخدمهم فاروق فى انتهاك الدستور والمشاركة فى حكومات لا تحظى بثقة الشعب .

● ● ●

كان مصطفى النحاس يرى رفاق النضال القديم وقد تقطعت انفاسهم من طول الكفاح ، فيضعفون أمام وهج السلطة الزائف ، ويتساقطون فى مستنقع القصر ويتحولون إلى ادوات فى يد الملك يلهب بهم ظهر الشعب ، ثم لا يلبث ان يلفظ لفظ النواة .. ويبقى مصطفى النحاس ـ وحده ـ فى الميدان .. تتناوشه السهام ، فلا يساوم .. ولا يضعف .. ولا يبيع ثقة الشعب برضاء الملك .. كان يقف فى خندق الشعب غير عابىء بمجد زائف أو سلطة زائلة .. فالوقوف مع الشعب هو ذروة الفلاح للزعيم الصادق .. وكان مصطفى النحاس زعيما حقيقيا يعرف موقعه جيدا .

انقلابات دستورية

في الأول من يناير ١٩٣٠ شكل الزعيم مصطفى النحاس وزارته الثانية بعد انتخابات حرة أجراها المرحوم عدلي يكن باشا . واسفرت عن فوز الوفد فوزا ساحقا إذ حصل على ٩٠٪ من مقاعد مجلس النواب .

كانت تلك رابع انتخابات عامة تشهدها البلاد منذ دستور ١٩٢٣ ، وجاءت لتحمل الوفد إلى موقعه الطبيعي في الحكم بعد الانقلاب الثالث في سلسلة الانقلابات الدستورية التي دبرها الملك فؤاد للتخلص من حكم الشعب ، وتعطيل الحياة البرلمانية ، وإسناد الوزارة الى اشخاص لا يتمتعون بثقة الشعب ، ولا يؤمنون بحقه في حكم نفسه ، ويضعون انفسهم في مكان الوصي على الشعب « القاصر » في نظرهم ، ويظنون ان مهارتهم وكفاءتهم الذاتية ترجح قوة الشعب .

اما الانقلاب الأول فقد وقع اثناء حكم وزارة الشعب الأولى برياسة سعد زغلول عام ١٩٢٤ ، فقد استغل الملك فؤاد حادث مصرع السردار واستقالة الحكومة ، فامر بحل مجلس النواب حتي يتهيا الجو امام احمد زيور للعبث بمقدرات البلاد في غيبة الرقابة البرلمانية ، ووقف الزحف الشعبي الذى ظهر جليا في اول برلمان منتخب ، فقد كان برلمان ١٩٢٤ اول مظهر نظامي لبروز سلطة الشعب كقوة مؤثرة في الحكم ، بل القوة الوحيدة التي لها حق الحكم ، الأمر الذى راى فيه المؤرخون تطورا عميقا دل على ان الشعب نما نموا كبيرا ، واضحى على الرغم من كل القوى التي حاربته القوة الأولى المرهوبة الجانب .

ولكن .. هل كان من الممكن ان يستمر هذا النمو كي ياخذ مداه ، وتترسخ به سلطة الشعب ؟ وهل كان من الممكن ان تتواصل قوة الفئات الشعبية مع قوة الزعامة الشامخة التي خرجت من صفوف الفلاحين ممثلة في سعد زغلول ؟ ؟

لقد اجابت الحوادث عن هذا السؤال من خلال اول انقلاب دستوري دبره الملك بايعاز من الانجليز وبالتواطؤ مع كبار ملاك الاراضي الذين حسبوا انفسهم اصحاب المصالح الحقيقية ثم خذلهم الشعب في الانتخابات .

ووقع الانقلاب الثانى فى العام التالى عندما اجرى احمد زيور باشا الانتخابات العامة بعد مؤامرات واحتياطات وتداخلات أشرف على حبكها قطب الدهاء والديكتاتورية اسماعيل صدقى وزير الداخلية ، وكانت كلها تهدف إلى إبعاد الوفد عن قيادة الامة ، ثم فوجيء مدبرو الانقلاب بان المجلس الجديد يضم اغلبية وفدية انتخبت سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب ، وتبين ان ذكاء الشعب ودقة تنظيم الوفد يفوقان دهاء صدقى ، ولم يخجل اصحاب الانقلاب الأول من تنفيذ انقلابهم الثانى فاصدر الملك فؤاد مرسوما بحل مجلس النواب بعد تسع ساعات من انعقاده ، واستمرت البلاد تحت حكم وزارة غير شرعية تحكم دون سند دستورى ودون تاييد من الشعب .

اما الانقلاب الثالث فقد وقع فى صيف ١٩٢٨ بعد ثلاثة شهور فقط من تشكيل النحاس باشا وزارته الاولى .. كان الصراع بين الفئات الشعبية بقيادة الوفد والعناصر الارستقراطية بزعامة القصر قد بلغ اشده ، ولم يكن هذا الصراع السياسى - فى رأى بعض المحللين التاريخيين - إلا انعكاسا حقيقيا للصراع بين طبقتين على النفوذ :

● طبقة الأعيان من اصحاب الأملاك الواسعة التى تحدث باسمها لطفى السيد فى الجريدة منذ اوائل القرن ، وهى التى تعتقد انها طبقة أصحاب المصالح الحقيقية التى يجب ان يستقر فى يدها الحكم لرعاية هذه المصالح .

● البورجوازية المتوسطة والصغيرة التى نمت فى ظل ثورة ١٩١٩ ، وفى ظل النهضة الاقتصادية التى قامت على يد طلعت حرب وبنك مصر ، وهى الطبقة التى قوامها التجار والشباب المتعلم ومفكرو المدن وموظفو الحكومة وضباط الجيش يؤيدهم الفلاحون والعمال بحكم مصلحتهم فى تاييد الوفد ، وكان نضال الوفد من اجل الاستقلال التام والتخلص من الحكم الاجنبى وإصراره على التمسك بحق الانتخاب المباشر ، يتلاقى مع اهداف هذه الطبقة الجماهيرية فى الاشتراك فى الحكم عن طريق النواب .

■ ■ ■

ونجح التحالف بين القصر وحزب الاعيان (الاحرار

الدستوريين) فى الإطاحة بحكومة النحاس بعد حملة تشهير مبتذلة ، اتخذت من قضية الأمير سيف الدين مادة لتلويث سمعة مصطفى النحاس ، وعهد الملك فؤاد إلى محمد محمود باشا زعيم حزب الأحرار الدستوريين بتشكيل وزارة استهلت حكمها بحل مجلس النواب حتى تنفرد بالشعب ، واطلق محمد محمود على وزارته اسم « اليد الحديدية » اعلانا عن انتهاجه اسلوب العنف فى تاديب الشعب ، وسلكت الوزارة فى ذلك سلوكا شرسا ، فعطلت الصحف الوطنية وحرمت الاجتماعات العامة ، واطلقت الحكم البوليسى ، وانتهكت حرمات البيوت والافراد ، وفتحت ابواب السجون والمعتقلات لتستقبل حشودا من الاحرار والمناضلين الذين لم يخضعوا لحكم الارهاب ، وتحرك حزب الوفد حركة منظمة وشعبية عارمة لمكافحة هذا المد الاستبدادى ، ونشطت لجان الوفد فى كل المدن والقرى لتحريك همة الجماهير للوقوف فى وجه « اليد الحديدية » ، وتحولت نقابات المحامين فى القاهرة والمدن الكبرى إلى بؤرات للاشعاع السياسى ، وامتلات المدارس بلجان الطلبة الوفديين الذين اشعلوا الحمية فى نفوس الجماهير ، وانتشرت العناصر الوفدية فى صفوف العمال بالقاهرة والاسكندرية ، واسفر هذا عن النشاط الحزبى الجماهيرى عن صحوة شعبية فعالة ، اثبتت لصاحب اليد الحديدية انه مجرد نمر من ورق .

أكبر رأس فى البلاد

لَمْ تمكث وزارة النحاس الثانية فى الحكم اكثر من خمسة شهور، وتسعة عشر يوما، تعرضت خلالها للدسائس من جانب القصر وأعوانه اعداء الديمقراطية الألداء الذين لم يؤمنوا بجدوى البرلمان المنتخب من الشعب، ولم يؤمنوا قط بحق الشعب فى ان يحكم نفسه عن طريق حكومة مسئولة امام البرلمان. وإنما كانوا يؤمنون بحكم «العباقرة» المستبدين الذين يختارهم القصر فيكون ولاؤهم له وليس للشعب.

وكان النحاس باشا يسعى جاهدا للافادة من دروس الماضى الأليم. ويحاول أن يضع الضمانات الدستورية التى تعالج القصور فى دستور ١٩٢٣ بما يحول بين الملك فؤاد ومعاودة العبث بالدستور، بعد ان اسرف هذا الطاغية فى استخدام حقه الدستورى فى حل مجلس النواب إسرافا مسفا، لدرجة انه اقدم على حل المجلس ثلاث مرات خلال اربع سنوات ما بين ١٩٢٤ - ١٩٢٨، وكانت المادة ٣٨ من الدستور التى تعطيه حق حل المجلس دون قيد أو شرط، بمثابة سيف مُصْلَت على رقبة الحياة النيابية، وهذا هو السبب الذى من اجله عارض الوفد وضع الدستور عن طريق (لجنة الأشقياء) المعينة بمرسوم ملكى، وكان من رايه ان يوضع الدستور عن طريق جمعية تاسيسية منتخبة من الشعب حتى يضمن حقوق السيادة الشعبية فى مقابل حقوق الملك الاتوقراطية التى اصر صاحب العرش على ان يتضمنها مشروع الدستور، وبها انتقلت السلطة الحقيقية من يد الأمة الى يد الملك، وقال سعد زغلول يومها انه من الخطر الكبير ان توضع سلطات كبيرة فى أيدى الملوك خاصة إذا كانت البلاد تخضع للنفوذ الأجنبى.

وصدقت نبوءة سعد زغلول، وتحولت السلطات الممنوحة للملك الى سوط يستخدمه الاحتلال الانجليزى فى إرهاب الأمة، كلما لاحظ اشتداد قوة الشعب ونضجه السريع، ورغبته فى ان يكون مصدر السلطات جميعا، فلما جاء النحاس باشا الى الحكم فى اول يناير ١٩٣٠ وفى جعبته هذه المغامرات الملكية المدمرة،

اراد ان يضع حدا للعبث بالدستور، فوضع مشروع قانون لمحاكمة الوزراء الذين يُقدمون على قلب الدستور او حذف حكم من احكامه، او تغييره، او تعديله بغير الطريقة التى رسمها الدستور، ولم يكن لمثل هذا المشروع الخطير الذى يقيد الملك، ان يمر من تحت ذقن الاتوقراطى العريق الذى كان يبغض الحكم الدستورى من اعماق قلبه، فعمد الى عرقلة اعمال الوزارة حتى يضطرها الى الاستقالة، وادرك النحاس ان المعركة الدستورية بينه وبين الملك يجب ان تنتقل الى الشارع السياسى ليكون الشعب حكما فى هذا الصراع الدستورى

■■■

ويلاحظ الدكتور عبدالعظيم رمضان فى رصده لتطور الحركة الوطنية ان ما فعله النحاس فى ١٩٣٠ كان محاولة من الوفد لتلقين الملك نفس الدرس الذى لقنه إياه سعد زغلول فى ١٥ نوفمبر ١٩٢٤ وهو اليوم الذى صاحت فيه الجماهير فى ساحة عابدين صيحتها المشهورة «سعد او الثورة» ففى ١٧ يونية ١٩٣٠ قدم النحاس باشا الى الملك فؤاد استقالته «الوحيدة» وسجل فيها الأسباب التى دعته الى تقديمها، وهى: عدم تمكنه مع زملائه من تنفيذ البرنامج الذى قطعوا على انفسهم العهد بتنفيذه، ولم يلبث ان أتبع هذه الخطوة بخطوة اخرى فتوجه الى مجلس النواب حيث اعلن استقالته بطريقة مؤثرة، وفصل اسبابها بعدم تمكن الوزارة من ان تتقدم الى البرلمان بمشروع محاكمة الوزراء الذى تقضى به المادة ٦٨ من الدستور، وقد فعلت خطبة النحاس فعلها فى نفوس النواب، ووقف الدكتور احمد ماهر ليطلب من النواب الثقة بالوزارة «حتى تسمع الامة تاييدهم لصاحب الدولة الرئيسى فى موقفه المشرف الذى يعمل به للدفاع عن الحياة النيابية وعن النظام الدستورى للبلاد»، وقوبلت كلمة ماهر بتصفيق حاد، وسادت المجلس روح التنديد بالمحاولات التى تقع من جانب القصر لإرغام النحاس على الاستقالة، وهنا وقف النائب الوفدى عباس محمود العقاد وقال قولته الشهيرة «الا فليعلم الجميع ان هذا المجلس مستعد ان يسحق اكبر راس فى البلاد من اجل صيانة الدستور وحمايته».

وفى اليوم التالى احتشدت الجماهير أمام بيت الامة وهى تهتف بحياة النحاس والدستور ، بينما كان الوفد المصرى مجتمعا الى ساعة متاخرة من الليل ، وعقدت الهيئات والمنظمات الشعبية اجتماعات لتاييد الوزارة ثم خرجت « الاهرام » لتعلن عن اعتزام قيام مظاهرة شعبية ضخمة يوم الجمعة التالى لتطوف بشوارع العاصمة وتذهب الى ساحة عابدين للهتاف بحياة الدستور ومطالبة الملك بعدم قبول استقالة النحاس .

وادرك الملك فؤاد خطورة السباق بينه وبين الوفد الذى يتسلح بالجماهير ، ويحركها لإرغامه على رفض استقالة الوزارة ، وايقن الملك انه سيواجه موقفا عسيرا شبيها بما حدث أيام سعد .. فانقض فى حركة سريعة لإجهاض مخطط الوفد وسارع إلى إصدار امر ملكى بتكليف اسماعيل صدقى بتشكيل الوزارة فى نفس اليوم الذى صدرت فيه « الاهرام » وفى صدر صفحتها الاولى خبر المظاهرة الشعبية ، وبذلك سلب الجماهير ذريعتها للتحرك الى ساحة عابدين واتخذ من التدابير الأمنية والاحتياطات البوليسية ما حال بين الشعب والوصول الى القصر .

وبمجىء اسماعيل صدقى الى الحكم وقع الانقلاب الدستورى الرابع ، وانتقلت البلاد الى عهد بغيض .. ساد فيه الظلام ، وانهدم البرلمان ، والغى الدستور ، واصطبغ الصراع الدستورى بالدم .

البرلمان في الأغلال

كان تكليف اسماعيل صدقي باشا بتشكيل الوزارة - عقب استقالة النحاس باشا - نذيرا بدخول البلاد فى مرحلة البيات الديمقراطي والانهيار الدستورى ، فقد كان معروفا عن اسماعيل صدقي زرايته بالامة ، واستهانته بكل ما يتصل بإرادة الشعب ، ويرى ان عبقريته او كفاءته السياسية تغني عن النظام النيابي كله ، وكان اختيار الملك فؤاد لهذا المستبد الطاغية دليلا على نية الملك فى تاديب الشعب وإذلاله عن طريق اساليب البطش والتنكيل التى برع صدقي فى انتهاجها وكان له فيها باع طويل . وشكل صدقي وزارته من عناصر عرفت بعدائها التقليدى للدستور ، واحتقارها للارادة الشعبية ، وكرهها الموروث للوفد الممثل الشرعي للأمة ، وجاء بخليط من السياسيين الذين يفتقرون الى السند الشعبي من امثال علي ماهر وحلمي عيسى وتوفيق دوس وحافظ عفيفي .

ورغم كون اسماعيل صدقي من مؤسسي حزب الاحرار الدستوريين ، إلا انه فى كتاب تشكيل الوزارة تبرأ من اتصاله بهذا الحزب مدعيا انه سيلتزم بالحيدة السياسية المطلقة ، ويعني ذلك انه انفصل عن حزبه في آخر لحظة ، لا لسبب إلا لكى يؤلف الوزارة . ويعقب الرافعي على هذا التصرف اللااخلاقي بقوله : « إن الانتساب إلى الاحزاب او الانفصال عنها عند هؤلاء القوم هو وسيلة الى الوصول الى مناصب الوزارة فحسب ، ولا يبعد عن هذا الغرض قيد انملة ، وهذا يعطيك فكرة واضحة عن انحطاط الاخلاق السياسية والشخصية فى هذه البيئة من الناس ، وانهم من العوامل الاساسية لفساد الحياة العامة والخاصة فى البلاد ».

ولم تكن الحيدة التى زعمها صدقي اكثر من الحيدة التى ادعاها الانجليز حيال هذا الانقلاب ، وقد كانوا سنده الحقيقى والمحرضين عليه . وكان من دلائل كذب الادعاء ان صدقي عمد الى اصطناع حزب جديد اطلق عليه اسم (حزب الشعب) وكانما كان الرجل يشعر بعقدة الذنب تجاه الشعب ، فسرق الاسم واطلقه على حزبه المصطنع .. ثم شرع فى تنفيذ الخطة المبيتة التى دبرها مع سيده صاحب العرش فاستصدر مرسوما بتاجيل البرلمان لمدة شهر بدءا من ٢١ يونيو ١٩٣٠ دون ان يعرض المرسوم على

مجلس النواب الذى كان من المقرر ان ينعقد بعد ٤٨ ساعة . وتم الاتصال بين ويصا واصف بك رئيس مجلس النواب وعدلى يكن باشا رئيس مجلس الشيوخ واتفق الرئيسان على ان مرسوم التاجيل يجب ان يُتلى على المجلسين . وبلغت انباء الاتفاق اسماع صدقى فوقع فى حيص بيص .. وقاده غروره إلى ان يقترح على ويصا واصف موافقته على عرض المرسوم على مجلس النواب بشرط ان يعطيه عهدا بالا يتكلم اى عضو من اعضاء مجلس النواب عقب تلاوة المرسوم ، ولكن ويصا واصف رفض هذا الشرط واعتبره تدخلا من الحكومة فى شئون المجلس وغضا من كرامته ، فبعث صدقى بكتاب عاجل الى رئيس المجلس يحمل لهجة التهديد والوعيد بانه سوف يتخذ الوسائل الرادعة إذا لم تصله موافقة رئيس المجلس قبل الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم المقرر لاجتماع النواب . وللمرة الثانية يتخذ رئيس مجلس النواب موقف الشجاعة فى مخاطبة رئيس الحكومة ، فبعث اليه بخطاب جرىء ابلغه فيه انه ليس من حق الحكومة ان توجه إلى رئيس مجلس النواب مثل هذا الخطاب لما فيه من تدخل السلطة التنفيذية فى ادارة الجلسات التى هى من اختصاص رئيس الجلسة دون سواه .

وما إن تلقى صدقى باشا هذا الخطاب حتى ركب راسه ، واصدر اوامره باغلاق ابواب البرلمان وربطها بالسلاسل الحديدية ، واستدعى فصائل من الجيش فاحاطت بابواب المجلس لمنع النواب والشيوخ من دخوله ، فلما حانت الساعة الثالثة تجمع ممثلو الشعب حول ابواب المجلس بعد ان اخترقوا النطاقات المسلحة ، واخذوا يهتفون بحياة الدستور وسقوط الطغيان والاستبداد ، ومن المؤكد ان هذه الهتافات النارية خرقت آذان رئيس الوزراء الذى كان يتوارى فى مقعده بمبنى مجلس الوزراء المقابل لمبنى مجلس الشعب . ومن المحتمل انه قام الى النافذة فشاهد ويصا واصف وهو يامر حراس المجلس بتحطيم الاغلال ، ولم يكن امامهم إلا ان يستجيبوا ، فانهالوا بالبلط على السلاسل حتى كسروها وفتحت الابواب وتدفق النواب على القاعة بينما اخذ الشيوخ سبيلهم الى مجلسهم واقسم الجميع يمين الولاء للدستور ، واستنكروا ما ارتكبته الحكومة باغلاقها ابواب

البرلمان ، وإحضارها جنود القوات المسلحة لمنع الشيوخ والنواب من ممارسة حقوقهم الدستورية ، ووقف عدلى يكن - سليل الارستقراطية - موقفا مشرفا كشف عن معدنه الأصيل وانحيازه إلى جانب الحق والعدل على حساب صداقته القديمة لإسماعيل صدقى ، فبعث اليه برسالة احتجاج على اعماله المنافية للدستور ، وكان لهذا الاحتجاج اثره فى إبراز العدوان الذى ارتكبه رئيس الوزراء ، وانتهى هذا اليوم التاريخى بانتصار ارادة الشعب واندحار قوة الطغيان ، ولكن فات نواب الشعب أن يطلبوا من الحكومة ان تتقدم اليهم بطلب الثقة كما ينص الدستور ، وهذا هو الخطا الذى وقع فيه الوفد فى غمرة الهرج والمرج اللذين سادا البرلمان ، فقد كان باستطاعة الاغلبية البرلمانية ان تمارس حقها الدستورى فى حجب الثقة عن الوزارة .. وعندها تضع الملك ورئيس وزرائه فى موقف حرج .. واستدراكا لهذا الموقف راى الوفد ان ينقل المعركة من البرلمان المعطل إلى الشارع الذى كان يموج بالغليان والثورة .

مذبحة فى المنصورة

كان يوم تحطيم السلاسل بداية معركة حامية الوطيس بين الوفد وحكومة اسماعيل صدقى التى كشفت عن نواياها فى حكم البلاد حكما مطلقا ظهرت بوادره فى تعطيل البرلمان واعتزام إلغاء قانون الانتخابات ودستور ١٩٢٣ وتفصيل دستور جديد ينتقص من حقوق الشعب ويضعف من مبدا السيادة الشعبية الذى ظهر جليا اثناء حكومات سعد زغلول ومصطفى النحاس. وكعادة الوفد فى الاحتكام إلى الأمة قررت قيادته النزول الى الجماهير لتتولى بنفسها الدفاع عن حقوقها المعرضة للضياع.

وتحدد يوم ٨ يوليو لزيارة يقوم بها النحاس باشا لمدينة المنصورة، وبدات الجماهير تستعد لاستقبال الزعيم فاتفقت لجنة الوفد العامة بالدقهلية مع شركة سكة حديد الدلتا على تاجير قطار خاص يستقله النحاس مع اقطاب الوفد من بنها الى المنصورة حتى يتاح لأهل القرى لقاء الزعيم، وتقرر ان يتناول النحاس طعام الغداء فى منزل محمد بك الشناوى رئيس لجنة الوفد العامة بالدقهلية، ثم يلتقى ولجان الوفد فى منزل محمود بك نصير، وادركت حكومة صدقى ما سوف تسفر عنه هذه اللقاءات الجماهيرية من قوة شعبية تقلب خطة الحكومة راسا على عقب، فقررت إلغاء مادبة الغداء والاجتماع، بحجة ان الاجتماعات العامة ممنوعة، فاحتجت لجنة الوفد على هذا الاجراء، وبعث الشناوى بك الى مدير الدقهلية يبلغه ان وصف الاجتماعات العامة لا ينطبق على الاجتماع المزمع عقده لأن المدعوين اليه سيحملون دعوة شخصية وان الاجتماع سيعقد سواء قبلت الحكومة او رفضت، وانه يحمل الادارة تبعة ما يحدث من جراء التعرض للحريات العامة التى كفلها الدستور.

وتراجعت الحكومة فوافقت على اقامة وليمة الغداء ولكنها قررت منع الوفد من السفر عن طريق قطار الدلتا او بالسيارة، وسمحت له بالسفر عن طريق قطار السكة الحديد الحكومية، وتنفيذا لذلك امرت شركة الدلتا فسحبت موافقتها على تاجير القطار المخصوص وفتحت الحكومة كل الكبارى التى تقع فى الطريق من بنها الى المنصورة حتى لا يسافر الوفد بالسيارات

واصدر مدير الدقهلية اوامره إلى رجال الادارة بإزالة كل مظاهر الحفاوة التي اقيمت في مدينة المنصورة . وطلب من محمود نصير بك ازالة السرادق الذى اقامه في بيته فرفض ، وانتشر عساكر البوليس يهدمون الاقواس والزينات التي اقامها الاهالي في عرض الشوارع ولكنهم لم يتمكنوا من ازالة الزينات التي اقامها التجار على واجهات محلاتهم . واخذت قوات الجيش والبوليس تتوافد على المنصورة حتى باتت المدينة في ليلة الزيارة كانها ميدان حرب يغص بالجنود المسلحين بمختلف انواع الاسلحة . ونشرت مديرية الدقهلية « اعلان تحذير للجمهور » هددت فيه باستعمال القوة لمن يجرؤ على مخالفة اوامرها .

عندئذ اجتمعت لجنة الوفد واذاعت نداء اعلنت فيه ان تعرض الادارة للاجتماع يتعارض مع مبادىء الدستور وقانون الاجتماعات ، وخاطبت الاهالي قائلة « لا يرهقنكم تحذير الادارة وتهديدها لانه تهديد اجوف لا تستطيع تنفيذه وهو مخالف للقانون مخالفة صارخة ».

■ ■ ■

ولم تتردد حكومة صدقي في استعمال كل وسيلة تحول بين الشعب وزعيمه وتفسد الاستقبال المنتظر ، فامرت بفتح جميع الكبارى المحيطة بالمنصورة حتى تمنع تدفق اهالي القرى اليها ، وغمرت شوارع المدينة بالزفت والقطران لتعويق المرور فيها ، واصدرت تعليماتها الى العمد لمنع الاهالي من الخروج من قراهم ، وقررت البلدية قطع التيار الكهربائي عن السرادق والزينات المقامة على واجهات المنازل ، فاجتمع اعضاء المجلس البلدى - وطنيين واجانب - وذهبوا الى المدير محتجين فوافق على اقامة مولّد كهربائي خاص لتغذية السرادق بالتيار ومد توصيلة الى منزل الشناوى بك .

واراد الوفد ان ينتزع من الحكومة آخر سلاح تستغله لمنع الزيارة فقبل السفر عن طريق سكة حديد الحكومة ، وعلمت الجماهير بتغيير خطة السفر فانتقلت الحشود الى المحطات الواقعة ما بين بنها وطنطا والمحلة وسمنود والمنصورة ، وخرج الفلاحون والعمال من مزارع والمصانع يهتفون للنحاس وللدستور وحُماته ، وجاء خط الرحلة أطول من الخط السابق ، مما اتاح

للوفد لقاء حشود أكثر ، وجماهير أضخم . وجاءت النتيجة فى مصلحة الوفد حيث أرادت الحكومة العكس ، ودخل القطار محطة المنصورة ، فاستقبله على الرصيف حشد كبير من الأعيان وأعضاء لجان الوفد فأرادوا حمل الزعيم على أعناقهم ولكنه أبى ، وتقدمهم الى الباب الخارجى للمحطة ، وأطل النحاس على الميدان الفسيح وقد تحول الى ثكنة حربية تزدحم بجنود السوارى ، وقد وضعوا خوذاتهم على رؤوسهم وسدوا منافذ الطرق حتى يحولوا بين الزعيم وجماهيره ، ومرت سيارة النحاس فى المسار المتفق عليه بين الوفد والادارة ، واجتازت السيارة النطاق العسكرى الأول ثم الثانى ، فلما أشرفت على اجتياز النطاق العسكرى الثالث وقعت المذبحة .

مروءة نادرة

تحركت سيارة الزعيم الجليل مصطفى النحاس فى المنصورة وسط حشد كثيف من جنود الجيش ، والبوليس المسلحين بالبنادق المزودة بالحراب (السناكى) بينما وقفت الجماهير عند افواه الطرق المؤدية إلى شارع البحر فى انتظار موكب الزعيم . وجلس إلى يمين النحاس محمد نجيب الغرابلى باشا ، وإلى يساره سينوت حنا بك وعلى الجمل بك الذى انتدبته لجنة الوفد ليكون حلقة الاتصال بين الوفد والسلطات . وقد طلب منه رجال السلطة ان يجلس فى سيارة النحاس تمييزا لها على بقية السيارات .

وكان سينوت حنا بك يشعر فى قرارة نفسه منذ غادر القاهرة صباحا بان الرحلة لن تمر بسلام ، وان حكومة صدقى لن تتورع عن تدبير خطة دنيئة لاغتيال النحاس باشا اثناء طوافه بشوارع المنصورة . واسر سينوت حنا بما يخالج نفسه من هواجس وشكوك إلى صديقه محمد حامد جودة بك . واتفق الصديقان على ان يلاصقا الزعيم طوال الرحلة حتى يفتدياه بروحيهما إذا تعرض لمكروه . فلما نزل النحاس هو وصحبه من محطة المنصورة ، اسرع سينوت حنا إلى السيارة المخصصة للنحاس ، وجلس فيها فى انتظار وصول الزعيم إليها ، اما حامد جودة فقد فرق الزحام بينه وبين النحاس ، ولم يتمكن من مصاحبته فى السيارة . وتحركت السيارة من الميدان فاخترقت النطاق العسكرى الأول .. ثم الثانى .. وما إن اشرفت على شارع البحر حتى اطبق عليها حشد من الجنود حاملي الحراب . ولمح سينوت حنا احدهم يسدد الحربة الى صدر النحاس ، فما كان من سينوت إلا ان برز بصدره ليفتدى الزعيم ، ويتلقى الطعنة القاتلة .. فانغرست فى كتفه .. وانكسر نصلها فى لحمه .. وسالت دماؤه الزكية على ملابس الزعيم .. وتقدم جندى اخر ليسدد طعنة اخرى فتلقاها على الفدى الموجى .. وفى نفس اللحظة انهمرت الحجارة والطوب والزجاجات المعباة بالرمل على موكب الوفد من منازل اعضاء حزب الاحرار الدستوريين .. وهجمت الجماهير العزلاء تفدى الزعيم بارواحها .. وحدث الصدام الدموى بينهم وبين رجال

الجيش والبوليس المدججين بالسلاح .. وانهالت الطعنات المسمومة على اجساد الاهالى فقتل اربعة منهم في مقابل ثلاثة جنود ، اما عدد الجرحى والمصابين فقد بلغ ١٤٥ شخصا .

■ ■ ■

واسفرت المجزرة التى دبرها صدقى باشا عن هذه النتيجة المؤسفة . وتبين ان الحكومة كانت تدبر للمذبحة منذ وقت طويل وعهدت بالمهمة إلى احد ضباط الجيش من ذوى السوابق فى الاعتداء على الشعب واسمه الاميرالاى عبد العظيم بك على . وقد كافأته الحكومة على إدارته لمجزرة المنصورة بنجاح وامرت بترقيته إلى رتبة لواء بصفة استثنائية ، وفى نفس الوقت عاقبت الصاغ محمد امين لانه سعى إلى حقن الدماء وابى استعمال القوة ضد ابناء وطنه فاحالته الى الاستيداع ، وكانت الترقية والعقوبة تهدفان إلى إغراء رجال الجيش والبوليس كى لا يترددوا فى التنكيل بالشعب وتجنب الرفق بالاهالى العزل ..

وماكادت انباء مجزرة المنصورة تذاع فى انحاء البلاد حتى هبت الجماهير للتعبير عن سخطها على حكومة صدقى . واندلعت المظاهرات فى طنطا وبورسعيد والاسماعيلية والسويس والاسكندرية ، وتساقط الشهداء تحت وابل الرصاص الذى كان الجنود يطلقونه بلا رحمة او شفقة ، حتى بلغ عدد القتلى فى الاسكندرية وحدها عشرين شهيدا فضلا عن ٥٠٠ جريح غصت بهم المستشفيات ، وقبض البوليس على بعض اعضاء لجنة الوفد بالاسكندرية وهم : الاساتذة عبد الفتاح الطويل وحسن سرور والدكتور احمد عبد السلام .

اما فى المنصورة فقد خرج مائة الف من ابناء الدقهلية والمديريات المجاورة لتشييع جنازة الشهداء الذين سقطوا فى المجزرة . ولم تسلم الجنازة من اعتداء البوليس عليها بالكرابيج والعصى الغليظة ، وقبض على الكثيرين حيث اودعوا السجون ، وهم يهتفون بحياة الدستور وسقوط الدكتاتورية والاستبداد . وارادت بعض المدن ان تظهر شعورها بتحية الشهداء إجلالا لهم وتقديرا للتضحيات التى قدموها . فسارت الجنازات الصامتة فى شبين الكوم وسوهاج ومغاغة وكفر الزيات وامبابة وطنطا .. وحاولت السلطات ان تفرق المحتفلين الصامتين وان تعتدى على

الحرمات المقدسة الامر الذى كشف عن فظاعة اسماعيل صدقى ، وتحجر عواطفه ، وخلو قلبه من ابسط المشاعر الانسانية .

■ ■ ■

اما البطل الجريح سينوت حنا فقد عاد إلى القاهرة حيث اجريت له عملية جراحية لاستخراج الشظية المكسورة فى كتفه ، وتحولت داره القابعة على شط النيل بالجيزة إلى قبلة يرتادها الوطنيون من جميع انحاء البلاد للاطمئنان على صحته ، والتعبير عن غبطتهم للدور البطولى الى قام به فى صمت ، وكشف فيه عن معدنه النادر ونفسه الأبية ، ولكن تاثير الطعنة المسمومة كان اكبر من جهود الأطباء ودعوات المخلصين ، فصعدت روحه الوثابة إلى بارئها ، ومضى إلى ربه راضيا مرضيا ، وبقيت قصته رمزا حيا على الشجاعة .. والمروءة .. والتضحية .. والتلاحم المقدس بين ابناء مصر الخالدة .

المجاهد الزاهد

كان سينوت حنا من طليعة الاقباط الذين لبوا نداء الثورة الوطنية عام ١٩١٩ ووقفوا إلى جوار سعد زغلول في حماس حار ، وإيمان صادق بوحدة الألم والمصير بين المسلمين والاقباط ، وعندما اعتقل سعد زغلول للمرة الثانية في آخر ديسمبر ١٩٢١ ، كان سينوت احد الرفاق الخمسة الذين صحبوه إلى المنفى في سيشل مع مصطفى النحاس ومكرم عبيد وفتح الله بركات واخيه عاطف . ويقال ان سعدا عندما بارح بيت الأمة في طريقة الى المجهول كان شديد التاثر ، بادى الألم ، فلما اقلعت به السفينة من السويس صعد الى ظهرها وحوله الصحاب ، فوضع يدا على كتف مصطفى النحاس ، ويدا على كتف سينوت حنا ثم ابتسم قائلا : مع ابنائي لا اشعر بالمنفى .. كان الله في عون ابنائي الذين تركتهم في مصر .

■ ■ ■

كان هذا الجيل من شباب الاقباط قد اكتوى بنار الفرقة التى اشعلها الانجليز بين المسلمين والاقباط بعد حادث دنشواى ، ولكن جهود هؤلاء الشباب لتطويق الأزمة كانت اضعف من حماسة المتطرفين الذين اصروا على عقد مؤتمر للاقباط في اسيوط ، وتم لهم ماارادوا .. وعقد المؤتمر في الاسبوع الاول من مارس ١٩١٠ برياسة بشرى حنا الشقيق الاكبر لسينوت حنا .. وتكلم المتحمسون وخطب المتطرفون .. وفي النهاية تغلبت روح العقل والحكمة .. وانتهى المؤتمر دون ان يمس الحقيقة الخالدة التى جعلت من مصر اما عطوفا على ابنائها جميعا مسلمين واقباطا ..

وعلى الجانب الآخر تحمس المسلمون وعقدوا مؤتمرا شبيها في مصر الجديدة برياسة رياض باشا في ابريل ١٩١١ وتكلم الخطباء والشعراء .. واصر هذا الرعيل المستنير من شباب الاقباط - سينوت حنا وواصف غالي وجورج خياط وويصا واصف ونجيب اسكندر - على حضور المؤتمر الاسلامي تاكيدا لمعنى الوحدة ، واستنكارا لوصمة الشقاق بين ابناء الوطن ، وانتهى المؤتمر كما انتهى سابقه .. وقد زالت الغشاوة عن عيون الغافلين في الجانبين ، وتفتحت على عمق الهاوية التى يحفرها العدو

المشترك لتثبيت أقدامه فى مصر ، وتاكد للجميع انه لا امل لهم فى البقاء أو الوجود بغير استمرارهم على الحالة التى وجدوا انفسهم عليها منذ آلاف السنين .

وجاءت سنوات الحرب العالمية الاولى بما صاحبها من قهر وظلم وسخرة لتؤكد بداهة المصير المشترك فى نفوس المسلمين والاقباط ، واخذوا يتطلعون الى اليوم الذى يتخلصون فيه من كابوس الاحتلال الذى امتص قواهم ونهب ثرواتهم واذل كرامتهم ، فلما اندلعت الثورة تولد الامل الذى انتظروه طويلا وانخرط سينوت حنا فى اتون الثورة مضحيا بماله الوفير وشبابه الغض دون انتظار لثمن .. او ترقب لمنصب .. بينما وقف اخوه بشرى مترددا .. خائفا من مخاطر الثورة على ضِياع اسرته التى كانت تشغل مساحات واسعة من مديرتى بنى سويف والفيوم .

■ ■ ■

يقدم العالم المؤرخ الدكتور حسين مؤنس لقطة رائعة من حياة المجاهد الزاهد سينوت حنا نقلا عن الدكتور جورجى صبحى الذى كان يجمع بين مهنة الطب ودراسة تاريخ مصر القديم وكان يحسن اللغة القبطية ويقرا الهيروغليفية ، وكان يلقى دروسا فى التاريخ على طلبة معهد الآثار المصرية . يقول الدكتور مؤنس : « سألته ذات ليلة ونحن منصرفون من المعهد فى طريقنا الى ميدان التحرير :

- هل صحيح أن بشرى حنا شقيق سينوت حنا ؟

- نعم كان بشرى هو الأخ الأكبر ، وكان غير راض عن الاتجاه الوطنى المتطرف الذى سار فيه سينوت . وقد عاتب بشرى اخاه سينوت الذى كان شديد الحماسة لمؤتمر مصالحة المسلمين والأقباط الذى عقد فى مصر الجديدة ، وكان بشرى يخاف على مركز العائلة وثروتها من الاتجاه الوطنى المتطرف فقال لاخيه يوما :

- اذا اصررت على سلوك هذا السبيل فستسجن وتعذب ، وربما نفوك من البلد كما نفوا عرابى ..

فقال سينوت ، وكان شابا يتميز بالحياء والأدب الشديدين :

- ياأخى بشرى لا تخف على . إننى اسعى فى الحصول على استقلال مصر وإخراج الانجليز منها . لان هذا هو الضمان الوحيد

لسلامتنا جميعا اقباطا ومسلمين . انت تظن أن الانجليز يحرسون اموالنا ويحمون حقوقنا نحن الأقباط .. هذا خطأ .. إنهم لا يحمون إلا انفسهم . وهاانت ذا تراهم يستكثرون من نصارى الشوام ويعتمدون عليهم دوننا ، وانظر عنايتهم بالأروام (اليونان) والأرمن والمالطيين ! أنت تعرف ان الحكومة الانجليزية هى التى بنت من مالها كنيسة الروم وكنيسة الأرمن فى القاهرة ، وهم يمولون المستشفى الاسرائيلى .. فهل ساهموا بقرش في بناء كنيسة قبطية ؟ انهم ياأخى أعداء المصريين جميعا ، أملنا الوحيد هو أن نظل متحدين مع إخواننا المسلمين ، فنحن وهم دائمون فى هذا البلد ، وما عدانا زائل .. هذا هو الأمان الوحيد لى ولك ولأموالك التى تخاف عليها » ..

ثم يستطرد الدكتور جورجى صبحى قائلا : « وبعد ذلك بسنوات وبعد أن اجتمعت كلمة المسلمين والاقباط تحت زعامة سعد ، وبدات دعائم الاحتلال تتزعزع ، واصبح سينوت الى جانب سعد واصحابه من رجال مصر وابطالها ، وصل بشرى ذات يوم الى الفيوم في زيارة عمل فوجد مظاهرة فى انتظاره ، وحمله الناس على اكتافهم ، لمجرد انه اخو سينوت .. وعندما التقى مع اخيه بعد ذلك بايام قال له : كنت انت على حق ياأخى .. لا تتصور كيف يستقبلنى الناس الآن فى الفيوم .. قبل ذلك ، وفى ايام ازمتنا مع إخواننا ، كنت اطلب من الحكمدار ان يرسل معى حرساً .. لقد مضى ذلك والحمد لله » ..

■ ■ ■

هذا هو سينوت حنا .. المجاهد الزاهد الذى عاش الثورة بكل عنفوانها .. وعاش مابعد الثورة دون ان يطمع فى منصب أو جاه او نفوذ .. وكان استشهاده فى المنصورة خير مثل على نزاهته ومروءته وعطائه النبيل .

الصيف الساخن

كان صيف ١٩٣٠ صيفا تصاعدت فيه حدة المواجهة بين الوفد وحكومة اسماعيل صدقى بعد الأحداث الدامية التى وقعت فى المنصورة وغيرها من مدن القطر، كانت خطة اسماعيل صدقى « الضرب فى المليان »، وقمع كل اشكال الاحتجاج عن طريق العنف وإراقة الدماء . وكانت خطة الوفد المضى فى طريق الصمود مهما كانت التضحيات . كان الوفد يتحرك من احساسه بالخطر المبيت لإجهاض المرحلة الدستورية التى لم يمض عليها اكثر من سبع سنوات حُلّ فيها البرلمان اربع مرات بمقتضى النص الذى اصر الملك فؤاد على ان يتضمنه مشروع الدستور، ويعطيه حق حل البرلمان دون قيد أو شرط، ونتج عنه ان فترة تعطيل الحياة النيابية كانت اطول من فترة عملها، وكان الوفد يرى أن المعركة الدستورية لا تقل اهمية عن المعركة الوطنية وتستحق مثلها شرف التضحية، لأن الاعتداء على الدستور هو اعتداء على الحقوق الشعبية التى برزت لأول مرة فى التاريخ الحديث، وأن على الشعب ان يهب لاستخلاص هذه الحقوق قبل أن تتحقق خطة الملك فى تفصيل دستور جديد على مقاسه يحقق اطماعه الدكتاتورية .

ومضى الملك فى طريق الشوك مستغلا النزعة الاستبدادية المتاصلة فى نفس صدقى وكراهيته المقيتة للشعب، وتلاقت إرادة الرجلين على تنفيذ خطة رجعية تعود بالبلاد الى صيغة الحكم المطلق التى كانت سائدة قبل دستور ١٩٢٣، وكانت الخطوة الاولى فض الدورة البرلمانية حتى لا تواجه الحكومة البرلمان الذى كان من المقرر ان يجتمع يوم ٢ يوليو بعد انتهاء مهلة الشهر التى تعطل فيها، وكان قرار فض الدورة مخالفة صريحة لنص الدستور الذى يقضى بعدم فض المجلس قبل إقرار الميزانية العامة، ولكن صدقى لم يابه بهذه الاعتراضات الفقهية لانه كان ينوى ماهو اخطر من ذلك وهو حل البرلمان وإلغاء الدستور ذاته .

وقرر اعضاء البرلمان ان يجتمعوا فى اليوم الاخير من المهلة لحجب الثقة عن الحكومة، ولكن صدقى لم يترك الفرصة لتكرار ما

حدث يوم تحطيم السلاسل ، فامر بطرد قوة حرس البرلمان وجاء بقوات هائلة من الجيش احتلت كل اركان المبنى وجلس الجنود فوق سطح البرلمان فى وضع استعداد لإطلاق النار على أى شخص يقترب من المبنى ، واذاع صدقى على الشعب إنذارا بضرب النار على اى شبح يقترب من المنطقة المحيطة بالبرلمان . واحتج عدلى يكن باشا رئيس مجلس الشيوخ على هذا الاعتداء الهمجى من جانب الحكومة ، وفعل نفس الشيء عبد السلام فهمى جمعة بك وكيل مجلس النواب . وقرر أعضاء المجلسين عقد اجتماعهم فى مبنى النادى السعدى (مقر حزب الوفد) حيث اعلنوا عدم ثقتهم بالحكومة وسجلوا عدوانها السافر على الحياة البرلمانية ، وفى نفس الوقت اصدرت بعض مجالس المديريات (الغربية والبحيرة) بيانا استنكرت فيه تصرّف حكومة صدقى فامر بحلها بحجة (انها تتدخل فى مسائل خارجة عن اختصاصها) .

■ ■ ■

وكان من شان هذه الأساليب البربرية التى انتهجها صدقى باشا فى العبث بالدستور والنظام البرلمانى .. أن اشعلت رغبة الانتقام فى نفوس الشباب الذين رأوا باعينهم مليك البلاد ورئيس وزرائه يتامران على سلطات الشعب الدستورية ، وارتفعت نبرة العنف ومحاولات الاغتيالات السياسية بعد ان توقفت منذ حادث السردار ، وبينما كان صدقى باشا عائدا بالقطار من الاسكندرية يوم ٢٥ اغسطس ضبطوا شابا يتخفى فى زى عمال عربة البولمان ويخفى فى طيات ملابسة بلطة حادة لذبح رئيس الوزراء . وتبين ان الشاب - وكان سودانيا - من خريجى كلية غوردون بالسودان ويعمل موظفا بهندسة السكة الحديدة واسمه حسن محمد طه نجل محمد طه بك عضو مجلس النواب عن مركز الدر ، وقد حوكم الشاب بتهمة الشروع فى قتل صدقى فحكم عليه بالسجن سبع سنوات ولكنه مات بعد سنتين فى السجن .

وفى يوم ٢٢ اكتوبر ١٩٣٠ بلغت خطة الملك منتهاها ، فاصدر امرا ملكيا بالغاء دستور ١٩٢٣ وإعلان دستور جديد ينقل إليه كل السلطات التى كانت مكفولة للشعب . ويجعل من الحكومة العوبة فى يد الملك أو بمعنى اصح ستارا يغطى استبداده بالحكم ، ولم تخف هذه الحقيقة عن الدوائر الاجنبية فقالت صحيفة الديلى ميل : معنى هذا أن الحكومة تكون حكومة السراى ! وان الحكومة

هى الملك نفسه ! وستكون نتيجة ذلك نقل السيطرة البرلمانية من الوفديين المتطرفين المضادين لبريطانيا ـ الى الملك الذى يتسنى له الآن ان يحكم البلاد حكما مطلقا .

■ ■ ■

ومن الطريف ان الملك فؤاد لم يقسم على احترام الدستور الجديد كما تقضى التقاليد الدستورية حتى لا يقع فى خطيئة الحنث باليمين الأولى التى اقسمها على احترام دستور ١٩٢٣ ، وهو فى نفس الوقت لا يستطيع التحلل من هذا القسم من حيث أن الدستور (عقد) بينه وبين الأمة . ومن ثم لا يحق له ان يفسخ من جانبه هذا التعاقد الرسمى العلنى ..

وفى هذا الجو القاتم المترع بدماء الضحايا .. والمشبع بفنون التزييف والحيل والمغامرات .. ولد دستور ١٩٣٠ ولادة ميتة .

على رصيف بنى سويف

فى أرشيف الصحف القومية صورة شهيرة للزعيم مصطفى النحاس وهو ينام فوق « دكة » خشبية على رصيف محطة بنى سويف . ولهذه الصورة قصة ارويها للجيل الجديد ، كى يعرف حجم التضحيات التى بذلها زعماء الوطنية المصرية من اجل حرية الشعب ، وصيانة الحقوق العامة التى حصل عليها بمقتضى دستور ١٩٢٣ ، ثم راق لبعض الطغاة ان يعصفوا بهذه الحقوق ظنا منهم ان الشعب غير قادر على استيعابها .

ففى عام ١٩٣١ كان اسماعيل باشا لايزال يحكم البلاد بالحديد والنار بعد ان الغى دستور الشعب .. ورأى الوفد ان السكوت سيؤدى بالبلاد إلى كارثة ، ويعود بها إلى عصر الحكم المطلق ، وينسف الحقوق الدستورية التى حصل عليها بعد كفاح مرير .. ولما كانت وسائل الاتصال بالجماهير قد تقطعت ، فقد رأى الوفد ان ينزل إلى الناس ليحثهم على مقاطعة الانتخابات التى أراد صدقى ان يتخذ منها اداة لتزييف إرادة الأمة ، وإسباغ الصبغة الشرعية على حكمه الارهابى ، وإظهار نفسه بمظهر الحاكم الديمقراطى الذى يحكم باسم الشعب ..!!

وتحالف الأحرار الدستوريون مع الوفد فى الكفاح من اجل سيادة الأمة ، وانقلبوا على صديقهم القديم بعد ان تبين لهم عمق الهاوية التى يحفرها للنظام الدستورى . واختار النحاس باشا مدينة بنى سويف ـ احد معاقل الوفد العريقة ـ لتكون اول محطة فى مشواره الطويل الشاق .. وركب النحاس ورفاقه قطار الصعيد فى ابريل ١٩٣١ ، ولكن ما ان هبطوا محطة بنى سويف حتى وجدوها اشبه بثكنة عسكرية ، وإذا بقوات مدججة بالسلاح تحيط بهم وتحول بينهم وبين الحركة .. بينما كانت الجماهير تزحف نحو المحطة بعد ان علمت بوجود النحاس ، ففوجئوا بالمصفحات تحيط بمبنى المحطة إحاطة السوار بالمعصم .!!

كان المشهد رهيبا .. مهيبا ..

فلا الزعيم ورفاقه يستطيعون الخروج من المحطة .. ولا الجماهير تستطيع دخولها .. ولا يسمع فى الميدان سوى هدير الناس تتخلله طلقات الرصاص .

ومرت ١٢ ساعة من الساعات الخالدة فى تاريخ هذه الأمة وكفاحها البطولى من اجل الحرية ، واستخلاص حقوقها من براثن الطغاة .. واضطر النحاس ورفاقه إلى النوم على الدكك المتناثرة فوق الرصيف ، حتى إذا لاح القطار المتجه إلى القاهرة ، تقدمت فرقة من الجيش وحملت النحاس ورفاقه قسرا .. ووضعوهم داخل القطار الذى عاد بهم إلى القاهرة بينما جماهير بنى سويف تغلى غيظا .. وكمدا .. وعاد الزعماء إلى بيوتهم مرهقين .. مجهدين .. ولكن هممهم لم تفتر .. وحماسهم لم يخمد .. وقرروا استمرار كفاحهم والاتصال مباشرة بجماهير الشعب .

ففى يوم ٢ مايو ١٩٣١ قرر النحاس باشا ومعه محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين السفر بالقطار إلى طنطا ومعهم حشد من اقطاب الحزبين ، ونجح الوفد فى اختراق نطاق البوليس الذى كان يحاصر ابواب محطة مصر . فلما استقروا داخل القطار تفتق ذهن صدقى باشا عن حيلة لا تخطر إلا على بال كتاب القصص البوليسية ، فقد امر مدير مصلحة السكة الحديدية باجراء مناورة كان من نتيجتها فصل العربة التى يجلس فيها الزعماء عن بقية عربات القطار ، ثم جاءت قاطرة خاصة فسحبت العربة واتجهت بها إلى طريق صحراء العباسية الذى يلتف حول القاهرة باتجاه حلوان حتى توقفت بهم وسط الصحراء ، وتسامع اهل القاهرة بما جرى فانطلق بعضهم يحمل الماء والزاد إلى الزعماء المنفيين فى العراء . حتى إذا جن الليل تحرك القطار نحو محطة المعسكر ـ قرب طرة ـ وجاءت فرقة مسلحة واجبرت الزعماء على مغادرة العربة طوعا او كرها ..!!

ولم تلن قناة مصطفى النحاس .. فقد كان العناد والصلابة من ابرز صفات هذا الرجل العظيم . وفى اليوم التالى كان وفد المقاومة يستقل السيارات ـ فى غفلة من السلطة ـ نحو بنى سويف للمرة الثانية . وما إن استقر النحاس باشا ورفاقه فى بيت رئيس لجنة الوفد حتى انطلقت الجموع كالطوفان تحيط بالبيت وهى تهتف بسقوط الطغيان والاستبداد . ولم يتراجع صدقى باشا عن المضى فى خطته الدموية فامر قوات الحكومة المسلحة باطلاق النار على الجماهير فقتل سبعة شهداء وجرح المئات . وانتهى اليوم بإعادة النحاس باشا ورفاقه مخفورين إلى محكمة مصر بباب الخلق لمحاكمتهم .

ولم تضع دماء الشهداء سدى ..

ولم يذهب كفاح الوفد من أجل الحرية والدستور هباء .. وادرك الشعب حجم التضحية التي يبذلها النحاس كي يعود للشعب دستوره ولا يتحكم فيه الطغاة ، فلما كان يوم الانتخابات قاطعها الشعب مقاطعة اعادت إلى الأذهان ذكريات ثورة ١٩١٩ ، وبينما خلت لجان التصويت من الناخبين انطلقت جموع الشعب تهتف بسقوط المزيفين ، وسقط عشرات القتلى ومئات الجرحى ، ومع ذلك لم يخجل صدقي من أن يعلن نتيجة الانتخابات ـ بعد موعدها بيومين ـ فيزعم ان نسبة الذين أدلوا باصواتهم كانت ٨/٣ ٦٧٪ فكان أول من ابتدع هذا اللون من الفساد السياسي في تاريخ الانتخابات المصرية ، وكان الشعب يبتسم ساخرا وهو يستمع إلى هذه الأرقام ، وظل الشعب يواصل كفاحه الشريف ـ بزعامة النحاس ـ حتى نجح في اسقاط دستور صدقي واعادة دستور الشعب .

فماذا كان حكم التاريخ ..؟

لقد وُضع اسماعيل صدقي ـ رغم ذكائه وعلمه ودهائه ـ في لائحة الساسة المكروهين أعداء الشعب والديمقراطية ، وبقي اسم مصطفى النحاس في سجل الخلود ، حارساً للديمقراطية ، امينا على حقوق الشعب ، طاهر اليد والقلب حتى النفس الأخير .. وما اصدق الذين هتفوا له يوم مماته : عشتَ فقيرا .. ومُتَ كريما ..

أكذوبـــة رخيصـــة

تجمعنى بشخصية الزعيم الجليل مصطفى النحاس الفة روحية وروابط نفسية وعقلية ليست وليدة الانتماء الحزبى او الولاء السياسى ، ولكنه حصيلة المعاناة والبحـث والتنقيـب فـى تلـك الحقبـة الخصبة من تاريخ مصر ، التى افرزت كما هائلا من رجال السياسة والحكم ، وكما نادرا من ذوى العظمة الحقيقية ، واصحاب البطولات الصادقة .

واجتلاء جوانب العظمة فى شخصية مصطفى النحاس امر حيوى ومطلوب فى هذا العصر الذى اختلّت فيه القيم ، واختلطت المفاهيم ، واضطربت المقاييس ، حتى بات الناس فى حيرة من امرهم .. لا يميزون بين العظمة الحقيقية ، والعظمة المزيفة .. بل اصبح حديث العظمة نفسه حديثا بغيضا إلى عامة الناس ، ظنا منهم انْ المسلواة التى شاعت فى عصرنا قد ازاحت العظماء عن عليائهم ، واطاحت بهم إلى مهاوى النسيان ، واصبح تلويث العظماء وتلطيخ سيرتهم متعة رخيصة عند ذوى النفوس الضعيفة . انظر اليهم وقد تعمدوا نسيان تاريخ (النحاس) وكفاحه العريض ثم توقفوا امام اكذوبة تقول انه قبّل يد الملك فاروق .. ولقد اعجبنى وصف الدكتور رفعت السعيد لهذه الاكذوبة بانها من نسج اناس عاشوا حياتهم ، وصعدوا ، او بالدقة هبطوا من اجل تقبيل حذاء كل حاكم وكل طاغية . ثم يعقب على هذه الفرية قائلا : ان علم التاريخ يابى ان يرصد حادثة عارضة ـ حتى لو كانت صادقة ـ لتقييم تراث متكامل ، وتاريخ النحاس يكفيه ويزيد ـ وبدون اية حجج او براهين ـ ان يسمو به فوق هذه الصغائر .

ولا اتصور زعيما تعرضت سيرته للتشويه والافتراء والايذاء .. كما تعرض مصطفى النحاس ، وفى يقينى ان الجيل الحالى الذى تلقى صورة النحاس مشوهة مزيفة .. احوج من اى جيل سبق إلى معرفة الحقيقة حتى تستقيم رؤيته إلى معانى العظمة ، فيستعيد سلامته النفسية والعقلية ، ويبرا من داء الاجتراء على سير العظماء ، ويضع الابطال فى المكانة التى يستحقونها ، ولن يتيسر ذلك بقراءة الكتب التى صدرت عن الزعيم الجليل ، فهى

شحيحة ومبتسرة ، ولكن التاريخ الحقيقى لمصطفى النحاس يوجد فى تضاعيف الأحداث الجسام التى شغلت تاريخ مصر فيما بين ثورتى ١٩١٩ و١٩٥٢ ، عندئذ سيستوى امامك الرجل عملاقا ينطلق من القمقم الذى سجنه فيه أهل الجحود والنكران ، ولسوف تشعر بالندم لأنك لم تكن من مريديه قبل ان يموت ، وستشعر بالاسى لأنك لم تحاول رفع الظلم الذى حاق به حيا وميتا ، وستشعر بسعادة غامرة لأن مصر انجبت هذا الرجل الذى احب مصر بكل ذرة من كيانه ، وقضى حياته مجاهدا فى سبيل حريتها وكرامتها ، فلم يقبض من ثمن الجهاد سوى النفى والتشريد والتجنى والافتراء ، عاش فقيرا يستدين من البنوك ليستكمل نفقات معيشته ، ولا يمد يده إلى مال الدولة . وكانت طهارة قلبه لا تقل عن طهارة يده ، والصورة التى يرسمها لنا على سلامة فى كتابه عن مصطفى النحاس تعطينا صورة الرجل الطيب الودود والأب الحنون الذى لا يعرف الحقد ، يظهر ما يبطن .. ولا يعرف الكلام المنمق المزوق ، وكل ما يحتويه قلبه ينطق به لسانه ، ولا يستطيع ان يبتسم فى وجه شخص يكرهه ، ولا يستسيغ الكذب والمخاتلة والرياء .. ولا يتصور انسانا يحترف الكذب .. ويتخذه وسيلة للوصول إلى الغاية .

كيف استطاع الرجل وهو على هذا القدر من نبل الصفات ومكارم الأخلاق ، أن يخوض بحر السياسة الغامر بالأكاذيب والتضليل والدس والتامر والابتسامات الصفراء المرسومة على شفاة غليظة ..؟ أن الجواب على السؤال يبدو سهلا إذا تذكرنا ان السنوات التى قضاها مصطفى النحاس فوق كرسى الحكم لا تزيد على عُشر الفترة التى قضاها فى احضان الشعب .. مواطنا وقائدا وزعيما .. والعلية النادرون فى تاريخ الأمم لم يستمدوا عظمتهم من زخارف الجاه والسلطة .. ولكن من الايمان برسالتهم والارتباط بشعوبهم والارتقاء بنفوسهم فى معارج الروح ، والارتفاع عن الدنايا والصغائر ، وكان مصطفى النحاس نموذج العظمة السياسية التى فرضت على قلوب الناس خلال جيلين .

صاحب المقام الرفيع

لم يسعدني القدر برؤية الزعيم خالد الذكر مصطفى النحاس ، وإن كنت لا انسى صوته الجهورى وهو يجلجل عبر موجات الاثير من قاعة البرلمان : « من اجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ ، ومن اجل مصر اطالبكم اليوم بإلغائها» كنت وقتها طالبا فى المرحلة الثانوية لا اعرف بالضبط محتويات المعاهدة ولا الظروف التى دعت إلى إبرامها ، ولا مسببات إلغائها ، ولكنى ادركت ان حدثا خطيرا يوشك ان يقع ، وما هى إلا ايام حتى تحولت مصر كلها إلى شعلة حماسة ، فالفدائيون يقتحمون معسكرات الانجليز ، والشهداء يتساقطون ، والمظاهرات تعم ارجاء البلاد ، وذات خرجت مصر فى مظاهرة جارفة وتدفق الملايين على العاصمة للمشاركة فيها ، وكان شيئا مثيرا ان يخرج رئيس الوزراء - مصطفى النحاس - ووزراؤه على راس المظاهرة التى جابت شوارع القاهرة ، واعادت إلى الاذهان ذكريات ثورة ١٩١٩ ، وبعد اسابيع احترقت القاهرة واقيلت حكومة النحاس ، وخيمت على مصر سحائب الظلمات ، واختفى اسم مصطفى النحاس من الصحف والاذاعة ، وبدات حملة مشبوهة لتلطيخ اسمه وزحزحته عن زعامة الامة .

وبعد الثورة ، وطرد الملك ، توقع الناس ان يعود مصطفى النحاس إلى موقعه الطبيعى بحكم زعامته لحزب الاغلبية وتطبيقا للمبدا السادس من مبادىء الثورة الذى يدعو إلى إقامة حياة ديمقراطية سليمة . ولكن تبين ان مفهوم الديمقراطية عند قادة الثورة يختلف عن المفهوم الموروث عن الديمقراطية ، وتطوع الفلاسفة والمنظرون - وهم للاسف من فئة كبار المثقفين - بإعطاء الديمقراطية عشرات التفسيرات ، وإلباسها اقنعة مزيفة تخفى وجهها الحقيقى الذى يتمثل فى الاحتكام إلى الشعب واحترام ارادته ايا كانت النتائج .

وكما عاش مصطفى النحاس بعيدا عن كرسى الحكم معظم سنى عمره السياسى ، فى ظل النظام الملكى ، قضى بقية سنوات عمره سجين بيته فى ظل النظام الثورى ، وكما عمل القصر واعداء الحرية واحزاب الاقلية على تحطيم زعامة مصطفى النحاس ، واصلت الثورة نفس العمل ، عن طريق سلسلة من المحاكمات

تناولت اقرب الناس إليه ولم تتناوله شخصيا ، ربما - وهو الارجح - خوفا من ان تزيده المحاكمة رفعة وتالقا .. فيصبح في ظل الثورة «صاحب المقام الرفيع» كما كان قبلها .

هل كان مصطفى النحاس يستحق كل هذا العذاب الذى وقع له سواء في العهد الملكي او في العهد الثورى ..؟! يمكننا ان نعرف الجواب إذا عرفنا حقيقة الصراع الذى كان يدور حول قضية الحكم والسلطة منذ عرفت مصر النظام النيابى وما يستتبعه من قيام حكومة مسئولة امام برلمان شعبى منتخب ، وإعلان دستور ينظم السلطات الثلاث ويحصر سلطة الملك في دائرة ضيقة ، ويجعل من الامة - وليس الملك - مصدر السلطات ، ولم يكن من اليسير على القصر بحكم تراثه التاريخي وتكوينه الاوتوقراطى ان يتقبل هذا التحول الجذرى الذى يجعل من الشعب سيدا .. بعد أن كان قطيعا يساس بالعصا .. كان هذا هو محور الصراع بين سعد زغلول والملك فؤاد ، وامتد فيما بعد بين مصطفى النحاس والملك فاروق . ولما كان الوفد هو الحزب الذى تجسدت فيه رغبة الأمة في التحرر من تسلط الأسرة العلوية والتخلص من التسلط الأجنبى ممثلا في قصر عابدين وقصر الدوبارة ، فكان القصران يتصديان لهذه الظاهرة وإحباطها بشتى الحيل .. مرة عن طريق تزييف الانتخابات ، ومرة عن طريق اصطناع احزاب تدين بالولاء للقصر وتحكم بطريقة غير دستورية ، ومرة بتشجيع قيام تنظيمات فاشية ترفع شعارات طنانة بقصد خداع الجماهير وصرفها من حول الوفد .. الخ .. وكل هذه الأساليب كانت تلتقى عند هدف واحد هو حرمان المصريين من حكم انفسهم عن طريق ممثلهم الشرعى وهو الوفد ، وإبقاء السلطة في يد القصر ليواصل سياسته القديمة في الحكم الاستبدادى ، وإذا كان هذا السلوك مفهوما من جانب النظام الملكى ، إلا انه لم يكن مقبولا من جانب الثورة التي قامت اصلا للاحتجاج على الانتهاكات الدستورية التى ادت إلى اقصاء صاحب الحق الشرعى عن الحكم ، وإسناده إلى من لا يستحق !!

انه لغز لا يسهل فهمه إلا على ضوء شخصية مصطفى النحاس وفهمه العميق لقضية الديمقراطية .

النحاس .. أسيرا

كان الزعيم الجليل مصطفى النحاس يقضى السنوات الاخيرة من عمره فى بيته كالأسير يعانى مرارة الجحود والظلم والإهمال .. فالصحف لا تذكر اسمه إلا تهَجما او تهَكما .. او تحاملا على جيل باكمله ، جيل السياسيين المصريين الذين انتزعوا مقاليد مصر من براثن الترك والشركس والاغوات ، وبعد ان كنا نسمع أسماء نوبار وباغوص ورفقى ولاظوغلى ، اصبح الوزراء يحملون اسماء زغلول والنحاس والغرابلى وابوعلم وويصا واصف .. رجال من صميم الطينة المصرية .. ومع ذلك اصبحوا فوجدوا تاريخهم يتعرض لأبشع انواع التلطيخ والتزوير .. وهم لا يملكون دفاعا عن انفسهم فليوذون باركان بيوتهم حتى ياتيهم الموت . !!

● ● ●

ذات يوم طرقت فتاة بيت الزعيم مصطفى النحاس ، قالت انها مندوبة التعداد العام، وتريد الحصول على البيانات عن سكان البيت ، واستقبلها الرجل العظيم هاشا باشا .. وجلس امامها ليرد على اسئلتها .. وتهيات الفتاة لعملها ففتحت حقيبتها واخرجت اوراقها وبدات فى طرح اسئلتها فكان السؤال الأول : اسم سيادتك ؟ اجابها الرجل فى هدوء : مصطفى النحاس ، ومضت الفتاة الى السؤال الثانى دون ان يبدو عليها اى انفعال لدى سماعها اسم الرجل .

- وسيادتك بتشتغل ايه ؟

وهنا توقف الزعيم عن الرد ، والتفت الى الفتاة مستفسرا هو انت يابنتى ماتعرفيش مصطفى النحاس كان بيشتغل ايه ؟ !!

وارتبكت الفتاة . وظهر انها لم تفهم مغزى السؤال ولم تعرف شيئا عن الرجل الذى يجلس امامها .. فسالها : انت متخرجة منين قال : من كلية الآداب .. قسم التاريخ .. وازداد حزن الرجل الذى افنى عمره كله من اجل مصر.. ولم ينجب ولدا ولا بنتا .. وكان يعتبر كل ابناء مصر اولاده .. فسالها : وانت تدرسين تاريخ مصر الم تسمعى عن رجل اسمه مصطفى النحاس ؟ !!

واحمر وجه الفتاة خجلا وكانها تعتذر عن جريمة لم ترتكبها .. فطيّب الرجل خاطرها حتى انصرفت .

من المسئول عن جريمة إهمال تاريخ هذا الرعيل من زعماء الوطنية المصرية ؟ ومن الذى يملك حق استمرار الحظر على تاريخ الزعماء فى مناهج التعليم وبرامج الإعلام ؟ إن التاريخ ليس مِلكا لحكومة معينة ، وليس حِكرا على نظام بعينه يعبث به كيف شاء ، وجريمة العدوان على التاريخ تدفع الأجيال اللاحقة ثمنها خصوصا عندما تكتشف الخدعة التى تعرضت لها ، فتكفر بكل ما يقال لها ، ولا يظن التليفزيون انه يبث فى نفوسنا روح الوفاء للخالدين عندما يصدع رءوسنا كل يوم بإحياء ذكرى بعض المشاهير ومعظمهم من المطربين والممثلين وكُتاب الأغانى !! فليس هؤلاء هم رموز الوطنية التى تستحق التخليد ، فالناس تريد ان تعرف تاريخ زعمائها الذين جحدناهم احياء .. ونسيناهم امواتا ..

رجل فلاح

كان احمد حسين زعيم مصر الفتاة مطاردا من قبل سلطات الاحتلال البريطاني اثناء الحرب العالمية الثانية ولكنه نجح فى الافلات والهرب ، وقضى فترة طويلة مستخفيا عن الأنظار حتى ضاقت به سبل العيش ، فعزم على تسليم نفسه الى الحكومة . واستعرض اسماء بعض الوزراء ليختار من بينهم الوزير الذى يسلم نفسه اليه ، وهو مطمئن الى ان كرامته ستكون محفوظة ، ووقع اختياره على وزير الداخلية فؤاد سراج الدين لاعتبارات ترجع الى زمالة قديمة بينهما فى كلية الحقوق ، ورفع احمد حسين سماعة التليفون ورد عليه فؤاد سراج الدين مهللا مرحبا وقائلا : انت فين ياراجل .. علوزين نشوفك !! وقال الزعيم المطارد : وانا اريد ان اقابلك فقال الوزير : اذن تفضل فى بيتى الآن ان شئت فقال احمد حسين : ساحضر الآن بشرط الا تعلم احدا بحضورى ..

وركب احمد حسين سيارة « تاكسى » ، ومضى الى بيت فؤاد سراج الدين المواجه لبيت النحاس باشا رئيس الوزراء ، والشك يساوره فى ان يعد له الوزير كمينا لاعتقاله . فلما لم يجد حول البيت شيئا مريبا سلم امره الى الله ودخل بيت سراج الدين واستقر فى غرفة الاستقبال وقد غمرته الفرحة « فلم اكن اتصور ان سيكون الرجل امينا فى تنفيذ وعده الى حد الا يخطر النحاس باشا مع انه كان يعلم ان هذا الموضوع فى الدرجة الأولى من اهتمام رئيس الوزراء » .

وبعد حديث وُدّى بين الزعيم الهارب والوزير المسئول عن الأمن استأذن سراج الدين من ضيفه لعرض الموضوع على النحاس باشا ، وبعد فترة ـ كانها دهر ـ عاد الوزير ليَروى لضيفه تفاصيل اللقاء : لقد قلت للنحاس باشا إن عندى خبرا يسرك .. احمد حسين عندى ! فقال النحاس باشا : واين هو اريد ان اراه .. فقلت له : وهو ايضا يريد أن يراك .. ولكن قبل ان تتقابلا اريد أن اتفق معك ياباشا على وجوب اخلاء سبيله .. « فالأستاذ احمد حسين زميلى فى الدراسة ، وصداقة المدرسة عندى اغلى ما اعتز به ، على أن هناك فوق ذلك كله ، أننى رجل فلاح.ولقد جاء احمد حسين الى بيتى ، فلا يمكن ان يخرج من بيتى سجينا أو معتقلا

ابدًا .. وإذا كان الباشا يرى ان لا مناص من اعتقاله فليأذن لى ان أعود إلى الأستاذ أحمد حسين كى اساعده على الرجوع من حيث اتى .. ثم يعمل الباشا بوسائله الخاصة على اعتقاله ..

●●●

مازلت اذكر الأثر الذى تركته هذه الواقعة فى نفسى عندما قرأتها لأول مرة وانا فى مرحلة الصبا فى كتاب (وراء القضبان) الذى اصدره المرحوم احمد حسين فى سلسلة ـ كتب للجميع ـ عام ١٩٤٩ ، ورغم مرور ٣٥ سنة فلاتزال رموز هذا اللقاء المثير تشيع فى وجدانى إحساسا بالدهشة والسعادة .. وكلما مضى الزمن اتسعت دائرة الدهشة وضاقت دائرة السعادة .. !

• كان المصريون فى ذلك العصر يقيمون اعتبارا كبيرا للقيم والتقاليد والأخلاق ، وكانت قواعد اللعبة ـ بين الدولة وخصومها ـ مصونة من الطرفين ، لا يجرؤ احد على اختراقها والا قوبل بالخزى والعار من جانب ضميره اولا ومن جانب الضمير العام ثانيا .. وجاء زمن خبا فيه صوت الضمير الى حد العدم .. وباتت القيم والتقاليد والأخلاق عملات قديمة غير قابلة للتداول ..

محكمة الثورة

كان إلغاء دستور ١٩٢٣ بعد نحو خمسة شهور من قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ مؤذنا بالصدام المباشر بين الثورة والوفد ، وسقوط شعرة معاوية التى كانت قائمة حتى ذلك الحين بين الطرفين ، لأن الكفاح من أجل الدستور كان خطا ثابتا فى تاريخ الوفد ويسير فى خط مواز لكفاحه من اجل الاستقلال ، وكانت تضحيات الشعب ـ بقيادة الوفد ـ فى سبيل الدستور ، وحمايته من العبث والعدوان ، لا تقل روعة وجلالا عن التضحيات فى سبيل انهاء الاحتلال ، ومنذ بداية المرحلة الليبرالية فى عام ١٩٢٤ كان الوفد يحارب فى جبهتين : الجبهة الخارجية لاستخلاص حقوق البلاد الوطنية ، والجبهة الداخلية لمقاومة استبداد القصر ، وإحباط محاولاته الدائبة لاستعادة حكمه المطلق ، مما دعا الوفد الى خوض معارك دامية بلغت ذروتها فى عهد اسماعيل صدقى ، وقد توج كفاح الوفد آنذاك بعودة دستور ١٩٢٣ فى اواخر عام ١٩٣٥ .

وعندما قامت ثورة يوليو كان الشائع انها ستعمل على صيانة الدستور وتصحيح الأوضاع الديمقراطية واعادة الحياة النيابية وضمان الحريات الأساسية لجميع المواطنين ، خاصة بعد خلع فاروق المدبر الأكبر لكل الانقلابات والدسائس التى أدت الى الفساد السياسى ، ولكن قيادة الثورة ما لبثت ان تنكرت للدستور ، وكشفت عن نواياها المعادية له عندما تجاهلت النص الدستورى الذى يقضى بدعوة البرلمان الوفدى المنحل لكى يؤدى أمامه اعضاء مجلس الوصاية على العرش اليمين الدستورية . ورغم ان انعقاد هذا البرلمان كان إجراء شكليا بحتا ولا يستغرق اكثر من بضع دقائق ، إلا ان الزمرة التى احاطت بضباط الثورة ، وكلهم من رجال الحزب الوطنى المعادين للوفد ، وجدوا فى عقد البرلمان فرصة غير سارة تذكر الجماهير بالنظام البرلمانى الذى بيتوا النية على هدمه ، والسير بالنظام الجديد فى طريق اللاديمقراطية ، فكان ان تفتقت عقولهم عن فتوى شيطانية بإمكانية اداء اليمين امام مجلس الوزراء ، ووجدت الفتوى ذات المنفعة المزدوجة قبولا عند الضباط الشبان ، فقد شجعت هؤلاء على الاستهانة

بالدستور والتحرر من قيوده ، ومن ثم المضي في طريق الانفراد بالحكم ، وفي نفس الوقت حققت لمستشاري السوء فرصتهم للانتقام من الوفد وإقصائه نهائيا عن حقه الشرعي في الحكم .

وجاء الإجهاز على الدستور في ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ علامة واضحة على أن الحكام الجدد قد اختاروا السير في الطريق نحو الديكتاتورية ، ثم لم تمض ثلاثة اسابيع حتى اصدر مجلس قيادة الثورة في ١٧ يناير ١٩٥٣ امرا بحل الأحزاب السياسية التي تعتبر ركيزة النظام الديمقراطي ، وازاء هذا المد الاستبدادي السافر ، قرر الوفد أن يخوض المعركة أيا كانت نتائجها رغم علمه بطبيعة القوى الجديدة التي يواجهها ، وانها عناصر عسكرية بحتة تستند الى قوة الجيش ، وانتهز زعيم الوفد مصطفى النحاس فرصة ذكرى وفاة سعد زغلول في ٢٣ اغسطس ١٩٥٣ فتحدى القرار الصادر بمنع الاحتفال بها ، وتوجه الى ضريح سعد والقى خطابا ساخنا هاجم فيه قيادة الثورة ، وندد بالأساليب التي اتبعتها في القضاء على الحرية والدستور والحياة النيابية ، وطالب بالافراج فورا عن المعتقلين ، كما هاجم سياسة حكومة الثورة في التفاوض مع الانجليز بعد ان لفظت البلاد هذا الاسلوب ، كما ندد بموافقة الحكام الجدد على ما عرضه الانجليز من منح السودان الحكم الذاتي تمهيدا للاستفتاء على مبدأ تقرير المصير ، وقال النحاس إن أماني مصر القومية قد أهدرت تماما على يد الحكام الجدد ، وحذر من مغبة التفريط في حقوق البلاد ، وقال ان الأمة يقظة لما يدبره لها أعداؤها في الخفاء ، واختتم خطبته بهذه العبارة : ان حبل الباطل قصير .. وهو إن طال شنق صاحبه .

وسرعان ما تحول خطاب مصطفى النحاس الى منشور تداولته ايدى الجماهير بكثافة ، وفي يوم الجمعة التالية للخطاب ، أدى النحاس الصلاة في مسجد ابي العباس المرسي بالاسكندرية فالتفت الجماهير من حوله رغم الحصار الذى فرضه البوليس حول المنطقة ودارت معركة ساخنة بين رجال البوليس والمصلين .

ولمواجهة الهجوم الصريح من جانب زعيم الوفد ، لم تلجأ قيادة الثورة الى مقارعة الحجة بالحجة ، ولكنها لجأت الى النهج التعسفي لتصفية منتقديها وتلويث سمعتهم والتشهير بهم عن

طريق المحاكمات الثورية ، وفى ١٦ سبتمبر ١٩٥٣ اعلن اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية ورئيس مجلس قيادة الثورة فى مؤتمر جماهيرى بميدان عابدين الأمر الخاص بتشكيل محكمة الثورة ، وقدم صلاح سالم الذى كان يوصف بانه « لسان الثورة وميزانها الحرارى » تحليلا لخط العنف الذى قررت الثورة المضى فيه . وبعد ان شن هجوما عنيفا على الوفد وزعامته فاجأ الجماهير بوجود وثيقة « خطيرة » قال انها وقعت فى ايدى مجلس الثورة وتكشف عن التحالف الوثيق بين « الاستعمار الأجنبى والخونة الرجعيين فى هذه البلاد » ولكن صلاح سالم حذف ـ وهو يقرا الوثيقة المزعومة ـ اسم الدولة الأجنبية التى تشجع المتمردين من رجال الأحزاب ، وقد جاء فيها ان هدف التحالف بين تلك الدولة (المجهولة) ورجال الأحزاب هو « بث روح السخط ضد النظام وتشجيع الأفكار التى تنادى بعدم صلاحيته وتدعيم الوسائل التى تؤدى الى تدهور الاقتصاد ، وذكر صلاح سالم ان العمل لقلب مجلس الثورة كان محددا له مدة اقصاها يوليو ١٩٥٤ . واعلن فى نهاية تلاوته لتلك الوثيقة قراران هامان يضعان سياسة الصرامة والشدة محل التطبيق هما : إعادة الرقابة على البرقيات الصحفية الواردة والصادرة من مصر ، كما أن الرقابة على الصحف داخل مصر « ستظل قوية تضع سيفها فوق كل رأس مخرب يريد تبلبل الافكار » ذاكرا « اننا سنطهر بقوة وعزم كل ركن من اركان هذه الدولة ، ولن ننساك فى هذا المضمار ياصاحبة الجلالة الصحافة » !! اما القرار الثانى فيقضى بتشكيل محكمة الثورة من عبداللطيف البغدادى رئيسا ، وانور السادات وحسن ابراهيم عضوين .

وفى دراسة تحليلية لتلك الوثيقة التى قراها صلاح سالم ، يقول صلاح عيسى ان الوثيقة لم تنشر ، ولم يواجه أيا ممن قُدموا للمحاكمة بوقائع محددة تستند اليها ، ثم يصف هذه الوثيقة بانها نص للدراسات المشتركة التى جرت بين اجهزة السفارة الأمريكية ـ ومن بينها وكالة المخابرات المركزية ـ وبين اجهزة الأمن الناصرية ، على النحو الذى اشار اليه رجل المخابرات كوبلاند فى كتابه (لعبة الامم) [وكان هذا قريبا من مسرح الأحداث المصرية فضلا عن انه كان واحدا من المستشارين

المقربين لجمال عبدالناصر آنذاك] فقد ذكر انه فى صيف ١٩٥٣ بدأت السفارة الأمريكية تقلق على الوضع فى مصر بعد ان شعر السفير الأمريكي جيفرسون كافرى بالقلق على نظام عبدالناصر إذ أن الحركات المضادة عادة ما تظهر ـ فى رأى وكالة المخابرات المركزية ـ بعد مرور عام واحد على الحركة السابقة .

وبدأت محكمة الثورة تمارس نشاطها فى جو مشحون بالسموم ضد الوفد ، بل يذهب احمد حمروش الى « أن محكمة الثورة كانت موجهة أساسا ضد الوفد وبقايا الأحزاب السياسية » .. ولما كان الوفد اخطر هذه الأحزاب فقد ناله نصيب الأسد من القضايا ومن التشهير الذى لم يتعفف عن البذاءة والابتذال ، ويرى صلاح عيسى ان محاور الهجوم على الوفد تركزت فى التأكيد بأن ثقة الشعب به ـ التى تمثلت فى حصوله على الأغلبية المطلقة فى انتخابات ١٩٥٠ لم تكن فى محلها ، وفى الهجوم على النظام البرلمانى وصولا الى تأكيد فكرة امكانية الاستغناء عن البرلمان ، وفى التشكيك فى وطنية كل العناصر التى كانت مؤثرة على مسرح الأحداث ، وفى السعى لتلويث كل القيادات الحزبية وبالذات قيادات الوفد بحيث تبدو امام الجماهير شخصيات تافهة ، وفى هذا الصدد نال زعيم الوفد مصطفى النحاس من التشهير ما لم ينله غيره ، ولكن الضباط الاحرار عجزوا عن تقديمه شخصيا للمحاكمة لإدراكهم صعوبة ذلك ، وربما خشيتهم من أن تؤدى محاكمة الرجل الى مزيد من التعاطف الشخصى والسياسى معه ، إذ لم يكن من السهل تجاهل المكانة التى ظل النحاس يشغلها فى نفوس الشعب المصرى منذ تولى زعامة الوفد عقب وفاة سعد زغلول .

وإزاء صعوبة محاكمة مصطفى النحاس فقد قرر الضباط الاحرار محاكمة أقرب الناس اليه : قرينته السيدة زينب الوكيل ، وساعده الأيمن فؤاد سراج الدين ، وابنه فى حقل الجهاد ابراهيم فرج .

خصم وحكم

في الساعة العاشرة من صباح الاربعاء ٩ ديسمبر ١٩٥٣ مثل فؤاد سراج الدين امام محكمة الثورة المشكلة برئاسة قائد الجناح عبداللطيف البغدادى وعضوية البكباشى انور السادات وقائد الأسراب حسن ابراهيم اعضاء مجلس قيادة الثورة بالاضافة إلى البكباشى زكريا محيى الدين الذى راس مكتب الادعاء يعاونه ستة اعضاء نصفهم من الضباط الحقوقيين والآخرون من وكلاء النيابة ، وكان صلاح سالم وهو يعلن امر تشكيل المحاكمة فى المهرجان الشعبى بميدان عابدين ، قد اقترح أن تعقد المحكمة فى ميدان التحرير لبث الذعر في قلوب الناس ، ولكن مجلس الثورة لم ياخذ باقتراحه ، وقرر عقدها فى مقر مجلس قيادة الثورة الذى كان فيما قبل مقرا لنادى اليخوت الملكية ، ويشغل اجمل بقعة على قمة جزيرة الزمالك حيث يتفرع النيل ، وتنساب امواجه الرقيقة تحت عتباته فى جمال وروعة وسكون .

فى الطابق الثانى الذى خصص للمحكمة ارتفعت لافتة مكتوب عليها باللون الدموى (سكون) وتدلى على باب القاعة رقم المخصصة للجلسات علم الثورة المثلث الالوان ، وكتب على الجزء الابيض منه (محكمة الثورة) بينما تناثرت على جدرا القاعة ايات قرآنية تم اختيارها بعناية مثل « اقتلوهم حيث ثقفتموهم» « وليجدوا فيكم غلظة» «فاضربوا فوق الاعنا واضربوا منهم كل بنان» .

وقد نص امر تاليف المحكمة على أن يتولى مكتب الادع القبض على المتهمين واخطارهم بالتهم المنسوبة اليهم قبل مو المحاكمة باربع وعشرين ساعة على الاقل ، ولا يجوز تاجيل القضية لاكثر من مرة واحدة ولمدة لا تزيد على ٧٢ ساعة ويتولى الدفاع عن المتهم محام واحد فى جميع التهم المنسو اليه ، ولا يجوز المعارضة فى هيئة المحكمة او احد اعضائه كما أن أحكام المحكمة نهائية ولا تقبل الطعن باى طريقة الطرق أو امام اية جهة من الجهات ، وكذلك لا يجوز الطعن اجراءات المحاكمة .

ورغم أن اللواء محمد نجيب يعترف فى كلمته للتاريخ بأن هذه المحكمة أشاعت الفزع والرعب فى نفوس الناس ، ورغم انه يقول إنه اعترض على فكرة المحاكم الثورية لانها تجعل من قادة الثورة خصما وحكما فى نفس الوقت ، فإن معارضته لم تمنعه من توقيع امر تشكيلها والمشاركة فى الزفة التى صاحبت ذلك بميدان عابدين .

وفى حين يذكر بعض الكتاب ان محكمة الثورة كانت تعقد جلساتها فى سرية ولا يحضرها إلا اعضاؤها والمتهم وزكريا محيى الدين هو ومعاونوه ، وان المتهمين كانوا يواجهون المحكمة بلا تحقيق ويوجه الادعاء التهمة اليهم كنوع من المفاجاة (!!) فإن احد الضباط الذين جمعوا وقائع المحاكمات الأولى يقول فى صدر كتابه إن رجال القانون والتشريع فى مصر كانوا يتهافتون على حضور هذه المحاكمات ، وإنهم اعجبوا ببراعة المناقشات التى تدور فيها والأسئلة التى يوجهها اعضاء المحكمة كما لو كانوا من رجال القضاء العريقين (!!) ثم يصف المحكمة بانها ابتدعت نظما جديدة فى المحاكمات فهى تنجز فى ايام ما تنجزه المحاكم العادية فى شهور بل سنوات (!!) ومع ذلك كان العدل رائدها وذلك بشهادة المتهمين انفسهم حتى إن بعضهم تقدم بالشكر على معاملته بالعدل والقسطاس (!!).

وكانت محاكمة فؤاد سراج الدين أطول محاكمات الثورة ، فقد استغرقت ٥٤ جلسة ، وكانت اقرب إلى محاكمة عهد ما قبل الثورة كله منها إلى محاكمة فرد ، وتطرقت المحكمة إلى قضايا لا علاقة لسراج الدين بها ، وطرحت امورا خارجة على موضوع القضية ، وبلغ الابتذال بالمحكمة ان حشدت رهطا من السياسيين القدامى الذين كانت لهم مواقف معادية للوفد ، واخذت تحرضهم على سرد قصص وحكايات تسىء إلى الزعامة الوفدية وتشوه صورتها فى نظر الجماهير ، وبلغ الاسفاف بأحدهم انه تطرق إلى الحياة الخاصة للزعيم مصطفى النحاس ، وكان بعضهم يتبرع باختلاق وقائع كاذبة لكى يشترى حريته وينجو من المحاكمة أمام نفس المحكمة عن جريمة العمالة للانجليز ، وكان هذا مسلك رئيس الديوان الملكى السابق حسين سرى الذى تبرع بفبركة قصة تقبيل النحاس ليد الملك عقب تشكيل وزارة ١٩٥٠ ، وعن طريق هذه الحملة التشهيرية الواسعة تحقق الهدف الأصيل من

المحاكمة ـ كما اعترف رئيسها فى مذكراته بعد ربع قرن ـ من ان القصد من المحاكمة كان التشهير بالزعماء حتى يفقد الشعب الثقة بهم .

وتحولت محاكمة فؤاد سراج الدين ـ أكبر شخصية مؤثرة فى الوفد بعد مصطفى النحاس ـ إلى مهرجان لتوجيه اقسى الطعنات إلى الوفد ، بل وإلى عهد ما قبل الثورة كله ، وانساقت المحكمة فى هوجة التجريح حتى عميت عليها الامور ، واختلطت الحقائق بالضغائن ، ولم تعد تفرق بين الأحقاد السياسية والاعتبارات الوطنية التى تعلو فوق الخلافات ، فتحول الأبيض إلى سواد ، واصبح العمل الوطنى فى نظر المحكمة جريمة يلام عليها فاعلها ، وبلغت المحكمة ذروة المغالطة عندما عابت على حكومة الوفد موقفها من معركة التحرير التى اعقبت الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وعدم الاستعداد لها ، متجاهلة الدور البطولى الذى لعبته هذه الحكومة فى تدعيم الكفاح المسلح وتسهيل مهمة الضباط ـ ومنهم رئيس المحكمة ـ فى مقاومة الاحتلال البريطانى .

وقد استفزت هذه المغالطة البشعة الكتاب الأحرار الذين عاصروا هذه الأحداث بمن فيهم المنتمون إلى حركة الجيش ، فكتب احمد حمروش منتقدا مسلك المحكمة بقوله : وهكذا تحول الموقف الذى يستحق الفخر فى تاريخ الوفد .. إلى موقف يجلب اليه العيب والأسف (!!) ووجهت الطعنة فى غير موضعها ،

وإذا كان الشر لا يخلو من بعض جوانب الخير ، فإن وقائع المحاكمة كشفت عن خطأ كثير من المقولات التى كانت شائعة حول العلاقة بين الوفد والقصر ، وقد ذكر صلاح عيسى بعض نماذج لهذه الحقائق فى مقدمة الجزء الأول من وقائع محاكمة سراج الدين ، وقال إن المحاكمة ازاحت الستار عن مواقف بطولة وهمية نسبها البعض لانفسهم على حساب الوفد ومنهم زكى عبدالمتعال ـ الشاهد الذى ادانته محكمة الثورة فى حكمها ـ وكانت بعض الصحف قد قدمته كبطل ، ثم ثبت بعد ذلك عمالته للسراى فضلا عن صلاته الوثيقة بالدوائر الأمريكية ، كما افتضح موقف النائب العام الأسبق محمد عزمى من تحقيقات قضية الأسلحة الفاسدة التى ذهب بعض المؤرخين (الرافعى) إلى اتهام الوفد بانه المسئول عن طرده من منصبه تلبية لرغبة السراى واعتبروه بطلا ، ثم ثبت فيما بعد انه هو الذى تواطأ ـ على غير

رغبة الحكومة الوفدية ، لافساد قضية الأسلحة الفاسدة لحساب السراى طمعا فى مرتب كبير .

وتضمن الادعاء على فؤاد سراج الدين تهما من كل لون وجنس مثل خيانة امانة الحكم واستغلال النفوذ ومهادنة الملك وعدم مراعاة مصلحة الوطن وعرقلة تحقيقات الأسلحة الفاسدة . وبالاضافة إلى الجهد الخارق الذى بذله محاميه الوحيد وصديقه عبدالفتاح حسن باشا ، فقد تصدى سراج الدين لتفنيد هذه الدعاوى فى شجاعة فذة لفتت إليه انظار المؤرخين ، ووصفه بعضهم بانه كان اشجع المتهمين الذين واجهوا المحاكم الثورية ، وانه انبرى للدفاع عن نفسه وعن حزبه دفاعا مجيدا استغرق خمس جلسات كاملة فنجح فى ذلك نجاحا نادر المثال بما يؤكد ذكاءه واقتداره السياسى .

ورغم أن رئيس المحكمة اظهر فى بعض مراحل المحاكمة تقديرا لشخص فؤاد سراج الدين وقال له ان المحكمة لا تشك فى نزاهتك ، وايد الادعاء هذا الراى ، ورغم وضوح تهافت الاتهامات المصوبة إلى سراج الدين فقد صدر الحكم عليه بالسجن ١٥ عاما لانه كان لابد ان يختفى من المسرح السياسى ليخلو الجو امام الضباط الشبان للانفراد بالحكم دون إزعاج ، وعبّر جمال عبدالناصر عن هذه الحقيقة عندما صرح للذين تحدثوا اليه بشان التصديق على الحكم فقال : «إن فؤاد سراج الدين كرجل سياسى ، يعرف لماذا حكم عليه .. ومتى سيخرج» .. واوضح عبدالناصر لأسرة سراج الدين الضرورة التى حتمت عليه وضع زعيمهم خلف القضبان ، وهى تخضع لعاملين احدهما خارجى وهو عودة الأحزاب السياسية فى سوريا بعد الإطاحة بحكم العقيد الشيشيكلى ، وهو الأمر الذى سبب ارقا لرجال الثورة بصفة عامة ، وعبدالناصر بصفة خاصة ، لانهم كانوا يدركون أن مجرد وجود الأحزاب يشكل خطرا على سلطتهم .. اما العامل الداخلى فهو ان جمال عبدالناصر كان يستعد للقضاء على الاخوان المسلمين .

وهذا هو منطق العدل الثورى .

وقد انجز عبدالناصر وعده .. ولم يغادر فؤاد سراج الدين السجن إلا بعد أن اجهز عبدالناصر على الاخوان .. وخلّص له حكم مصر .

مجزرة طرة

في يوم السبت الحزين الموافق للفاتح من يونية ١٩٥٧ وقعت احداث هذه المجزرة في ليمان طرة :

كان هناك ١٨٠ من رجال الاخوان المسلمين يقضون عقوبة الأشغال الشاقة المحكوم عليهم بها من محاكم الثورة من اكتوبر ١٩٥٤ ، وكانت مصلحة السجون قد اتخذت بعض الاجراءات الانسانية تمشيا مع سياسية تحسين حال المسجونين ، ومن بينها اعفاء المسجون من الصعود الى جبل طرة لتكسير الصخور بعد انقضاء سنتين من هذا العمل الشاق يحول بعدها للعمل في الورش داخل السجن ، ولما طالب الاخوان المسجونون بتطبيق هذا الاجراء عليهم كغيرهم من المسجونين العاديين فوجئوا بالرد عليهم بان قرار الاعفاء من الأشغال الشاقة لا يسرى على الاخوان !! عندئذ طالب الاخوان بعرض قضيتهم على النيابة العامة ، كما تقضي لائحة السجون ، فرفضت ادارة السجن .

وفي صبيحة اليوم المشئوم اعتصم الاخوان في الزنازين ورفضوا الخروج إلى الجبل إلى ان يتحقق مطلبهم ، وانتدبوا اربعة منهم للتفاوض مع ادارة السجن ، وبينما المفاوضات جارية في المكاتب ، كان خبر الاعتصام قد تسرب الى المراجع العليا في الدولة فاصدرت قرارها التاريخي باستئناف سياسة الإبادة التي توقفت بعد مذابح السجن الحربي ، وضرب الاخوان في المليان .. !!

وتقدمت فرقة من السجانة ففتحت بعض زنازين الاخوان واحدة بعد واحدة واخرجت من فيها بالقوة وربطتهم في سلسلة جماعية ، وادرك الاخوان انهم سوف يساقون قهرا الى الجبل ليفتك بهم رصاص الحرس.ثم يقال انهم كانوا يحاولون الهرب . ! ولم يشأ الاخوان أن يستسلموا كالذبائح امام جلاديهم ، واستطاع احدهم ان يختطف المفتاح من الحارس واسرع إلى فتح الزنازين واخبر الاخوان بما يدبر لهم .

وحان وقت صلاة الظهر فاتجه الاخوان للوضوء والاستعداد للصلاة وفجاة تقدمت فصيلة من حرس السجون مسلحة

بالرشاشات وصعد الجنود السلم وتوقف نصفهم فى ممرات الطابق الثانى بينما واصل الباقون صعودهم فاتخذوا مواقعهم فى الطابق الرابع وصوب الجميع فوهات المدافع نحو الطابق الثالث ، ولم يابه الاخوان لهذا المشهد وظنوه مجرد تهديد ، ولم يخطر ببالهم ان يصل الغدر إلى حد قتل المسجون الأعزل وهو وديعة فى رقبة الدولة ، عليها أن تحميه وتصون حياته بمقتضى الشرائع والقوانين والأعراف واللوائح والتقاليد والعادات والأخلاق .. !! ولائحة السجون نفسها تتضمن اجراءات لمعاقبة المسجون اذا ارتكب خطأ أو امتنع عن العمل .. وليس بينها بالطبع قتل المسجون !!

وفى اللحظة الرهيبة دخل قائد السجن فاخرج مسدسه واطلق منه رصاصة كانت هى اشارة البدء انفتحت بعدها فوهات الجحيم على الاخوان الذين اصابهم الذهول والهلع والفزع وصاح احدهم ؛ لا تخافوا ياإخوان .. هذا فشنك .. !! وقبل ان يكمل عبارته عاجلته رصاصة فى راسه فاردته قتيلا .. واخذ الإخوان يتساقطون .. ويتصايحون .. ويتدافعون نحو الزنازين للاحتماء بها .. ولكن الرصاص كان ينهمر عليهم كالمطر من النوافذ فيتساقطون بين قتيل وجريح .. وكان بعض الاخوان يوصدون الأبواب بظهورهم فتصدر التعليمات بصب النيران على الأبواب فيخترقها الرصاص فيصيب مقتلا ممن يقفون خلفها ، وكان بعض الضباط يضع فوهة الرشاش على ثقب « النضارة » الموجود بالباب ثم يفرغ خزانة الرشاش على من بالداخل .. وهناك تفاصيل يقشعر لها البدن يرويها جابر رزق فى كتابه التسجيلى عن المذبحة .

وبعد ساعة توقف اطلاق النار ، وغادرت فرقة الاعدام مبنى السجن ، ولكن عملية الابادة لم تتوقف فقد تقدمت فرقة اخرى من الاشاوس من حملة الشوم لتجهز على كل من يصادفها من الجرحى الذين تساقطوا فى الممر وعجزوا عن الحركة ، ثم تقدمت فرقة ثالثة فاقتحمت الزنازين واخرجت منها الجرادل والأوانى والقت بها فى ساحة العنبر حتى يبدو الامر امام المحققين وكانه حصاد معركة « أخوية » بين فصائل الاخوان ، ولما وضحت سذاجة هذا

التفسير جاءوا برجال مباحث فى ثياب وكلاء نيابة وسجلوا أن
الاخوان كانوا يعتزمون الفتك بحرس السجن .. رغم عدم وجود
جريح واحد من السجانة .. وتقرر حفظ التحقيق وإسدال الستا
على المجزرة التى راح ضحيتها ٢١ شهيدا و٢٢ جريحا .. وفقد
بعضهم عقله من هَول ما راى ..

وفى اليوم التالى .. وتحت جنح الظلام كان هناك طابور حزين
يغادر مبنى ليمان طرة تحت حراسة مشددة من البوليس ، وكان
الطابور يضم ٢١ نعشا انطلقت بهم السيارات نحو جهات مختلفة
من مصر ودفنوهم ليلا وكان شيئا لم يكن .

الفهرســــت